سلسلة أركان الإيمان ١

الإِيمَانُ بِاللهِ جَلَّ جَلَالُهُ

د. عليّ محمَّد محمَّد الصَّلَّابي



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *﴾[التغابن: 11]

الإيْمَانُ بِالله جلَّ جَلاَلُهُ

تأليف

د. علي محمد الصلابي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل إنسان في الوجود يبحث عن الطريق لمعرفة الله؛ والإيمان به؛ وتحقيق عبوديته الشاملة على المنهج الصحيح؛ أهدي هذا الكتاب، سائلاً المولى عز وجلّ بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً لوجه الكريم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *﴾ [الكهف :110].

د. علي محمد محمد الصلابي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ *﴾ **[آل عمران: 102]** ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا*﴾ **[النساء: 1]** ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا *﴾ **[الاحزاب 70 . 71]**.

يا ربِّ لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيتَ، ولك الحمد بعد الرضى.

أما بعدُ: فهذا الكتاب يتحدّث عن الخالق العظيم، والرازق الكريم، الفعّال لما يريد، الكريم المنّان، الواسع العليم، الذي رأيتُ من خلال مسيرتي في عالم التاريخ عظمتَه في الحياة، وفي قيامِ الدول وزوالها، وانتشارِ الحضارات واندثارِها، وعزِّ الحكومات وإذلالها، وقصص الناس، وفي مخلوقاته العجيبة الغريبة، وفي هذا الكون الفسيح، وحركة التاريخ.

هذا الكتابُ إنّما كان نتاجَ هذه المسيرة، بل إحدى ثمارِها، حيثُ وجدتُ أنَّ الذين آمنوا بالله العظيم، واتبعوا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، هدى الله قلوبهم، بل زادها إيماناً، لقد عرفوا ربهم، وعلموا أنّ الله هو التواب الرحيم، ذو الفضل العظيم، العزيز الحكيم، الذي ابتلى إبراهيمَ بكلمات، وسمع نداءَ يونسَ في الظُّلمات، واستجابَ لزكريا، فوهبه على الكِبَرِ يحيى هادياً مهدياً، وحناناً من لدنه وكان تقياً.

الله جلّ وعلا الذي أزال الكرب عن أيوب، وألان الحديد لداود، وسخَّر الريح لسليمان، وفلق البحر لموسى، ورفع إليه عيسى، ونجّى هوداً، وأهلك قومه، ونجّى صالحاً من الظالمين، فأصبح قومُه في دارهم جاثمين، وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، وفدى إسماعيل بذبحٍ عظيمٍ، وجعل عيسى وأمَّه ايةً للعالمين.

الله جلّ وعلا الذي أغرق فرعون وقومه، ونجّاه ببدنه، ليكون لمن خلفَه اية، وخسفَ بقارون ودارِه الأرض، ونجّى يوسف من غيابة الجُبِّ، وجعلَه على خزائن الأرض، ونصرَ نوحاً على القوم الكافرين، ونجّاه وأهلَه من الكرب العظيم. الله جلّ وعلا الذي أضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وأسعد وأشقى، وأجدَّ وأبلى، ورفع وخفض، وأعزَّ وأذلَّ، وأعطى ومنع. الله جلّ وعلا الذي هدى نوحاً، وأضلَّ ابنَه، واختار إبراهيمَ، وأبعد أباه، وأنقذَ لوطاً، وأهلك امرأته، ولعن فرعونَ، وهدى زوجتَه، واصطفى محمّداً، ومقت عمَّه، وجعل من أنصار دعوته أبناءَ ألدِّ خصومه، كخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فسبحانه عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته[1].

[1] الله أهل الثناء والمجد ، د. ناصر الزهراني ص: (41).

الله جلّ وعلا الذي جمع في هذا الوجود بين الكمال والجمال، وعنصرُ الجمال في هذا الكون مقصودٌ قصداً، جمالٌ مقصودٌ، وكمالٌ بلا حدودٍ، فرؤيةُ الجمال على حقيقته لا تكونُ إلا حينما ينظرُ القلبُ بنور الله، فتتكشفُ له الأشياءُ عن جواهرها الجميلة وروائعها البديعة، ويتذكّر اللهَ كلّما وقعت عينُه أو حِسُّه على شيءٍ بديع، أو منظرٍ حَسَنٍ، فيُحِسُّ بالصلةِ، ويشعرُ بالترابط بين المبدعِ وما أبدعَ، والجميلِ وما جمّل، والمحسنِ وما أحسنَ، ويرى مِنْ وراء هذا الجمال جمالَ الله وجلالَه وكمالَه، والقرآن الكريم يوقظُ القلوبَ لتتبُّعِ مواضعِ الحسنِ وآياتِ الجمالِ في هذا الكون البديع ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ *﴾ [المؤمنون :14] ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة :7] وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ *﴾ [ق :6].

وتأمّلْ كلمةَ ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ إنّه استفهامٌ استنكاري لأولئك الذين لهم أعينٌ يبصرونَ بها، وقلوبٌ لا يفقهون بها، ولا يرونَ ذلك الجمالَ الساحرَ، والإبداعَ الأخّاذ، والحُسْنَ الجذّابَ، الذي يدلُّ على ربِّ العبادِ، ولذلك يكثرُ في القرآن الكريم الأمرُ بالنظرِ لأخذِ العبرةِ، وللإحساسِ بالجمال.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الاعراف :185] .

وقال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾ [الروم :50] .

وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخرة إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾ [العنكبوت :20] .

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ *أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا *ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا *فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا *وَعِنَبًا وَقَضْبًا *وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً *وَحَدَائِقَ غُلْبًا *وَفَاكِهَةً وَأَبًّا *مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ *﴾ [عبس :24 . 32] .

وقال تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: 101].

فأينَ الأعينُ الناظرةُ، والقلوبُ المبصرةُ، والأذهانُ المتوقدةُ، والفطرةُ السليمةُ، والمشاعِرُ الحيةُ، والأحاسيسُ المرهَفَةُ؟!

يا الله، ما أروعَ هذا الكون! وما أجملَ هذا الوجود! إنَّ المتأمِّلَ فيه يُبْهَرُ بجماله، وروعةِ نظامه، وعظمةِ إحكامِهِ، كلُّ شيءٍ فيه جميلٌ، ليلُه ونهارُه، صبحُه ومساؤه، أرضُه وسماؤه، بدرُه وشمسُه، حرُّه وبردُه، غيمُه وصحوه،

أخضرُه وأغبرُه، جبالُه وتلالُه[1]، سهولُه ووديانه، بَرُّه وبحرُه، كلُّ شيءٍ جميلٌ، وكلُّ شيءٍ بديعٌ، وكلُّ شيءٍ متقَنٌ، وكلُّ شيءٍ متناسِقٌ، وكلُّ شيءٍ منتَظِمٌ، وكلُّ شيءٍ بقدرٍ، وكُلُّ شيءٍ بإحكامٍ، مِنَ الذرّةِ الصغيرةِ، إلى الجِرْمِ الكبير، ومنَ الخليّةِ الساذجةِ إلى أعقدِ الأجسام.

انظر إلى الإنسان وروعة خَلْقه، وتباينِ أجناسِه، وتعدُّدِ لغاتِه، واختلافِ نغماتِه، فهو جلَّ وعلا قد أحسنَ كُلَّ شيءٍ خلقه، ومنْ أحسنِ مخلوقاتهِ وأجملِها الإنسانُ

---

[1] الله أهل الثناء والمجد ، ص: (66 ، 67).

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ *﴾ [التغابن: 3] ﴿يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ *﴾ [الإنفطار: 6 . 8]

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ *﴾ [التين: 4] .

انظر إلى السماء وهيبتِها، والنجومِ وفتنتِها، والشَّمسِ وحُسنِها، والكواكبِ وروعتِها، والبدرِ وإشراقِه، والفضاءِ ورحابتِه، تأمّلْ السماء في ليلةٍ حالكةٍ؛ وقد انتشرت فيها الكواكبُ، وبُثَّتْ فيها النجوم.

انظر إلى الأرض كيفَ دحاها، وأخرجَ منها ماءها ومرعاها، والجبالَ أرساها، هذه البحارُ، هذه الأنهارُ، هذا الليلُ، هذا الصبحُ، هذا الضياءُ، هذه الظلالُ، هذه السُّحبُ، هذا التناغُمُ الساري في الوجودِ كلّه، هذا التناسقُ، هذه الزهرةُ، هذه الوردةُ، هذه الثمرةُ اليانعةُ، هذا اللَّبنُ السائغُ، هذا الشَّهْدُ المذابُ، هذه النخلةُ، هذه النحلةُ، هذه النملةُ، هذه الدُّويبةُ الصغيرةُ المجهّزةُ بالأرجلِ والشُّعيراتِ، لتشقَّ طريقَها، وتتعاملَ مع واقعَها، هذه السمكةُ، هذا الطائرُ المغرّدُ، والبلبلُ الشادي، هذه الزاحفةُ، هذا الحيوانُ جمالٌ لا ينفد، وحُسْنٌ لا ينتهي، وقُرَّةُ عينٍ لا تنقطعُ[1] ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ *﴾ [الروم: 17 . 19] .

---

[1] الله أهل الثناء والمجد ، ص: (68 ، 69).

الله سبحانه إلهٌ واحدٌ، ليس له شريكٌ، وليسَ له مثيلٌ في ذاته وصفاته وأفعاله، كلُّ ما في الكون من إبداعٍ ونظامٍ وانسجامٍ يدلُّ على أنَّ مبدعَه ومدبَّره واحدٌ، ولو كان وراءَ هذا الكون أكثرُ من مدبِّرٍ؛ وأكثرُ من منظِّمٍ؛ لاختلَّ نظامُه، واضطربَتْ سنَنُهُ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ *﴾ [الانبياء :22]

وليس التوحيدُ مجرَّد إقرارِ العبد بأنّه لا خالقَ إلا الله، وأنَّ اللهَ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه، كما كان عُبّادُ الأصنامِ مقرّين بذلكَ، وهم مشركون، بل التوحيدُ يتضمّن محبَّةَ اللهِ، والخضوعَ له، والذلَّ له، وكمالَ الانقيادِ لطاعتهِ، وإخلاصَ العبادةِ له، وإرادةَ وجههِ الأعلى بجميعِ الأقوالِ والأعمالِ، والمنعِ والعطاءِ، والحُبِّ والبغض، وهو واحدٌ سبحانه في ألوهيته، فلا يستحقُّ العبادةَ إلا هو، ولا يجوزُ التوجُّه بخوفٍ أو رجاءٍ إلا إليه، لا خشيةَ إلا منه، ولا ذلَّ إلا إليه، ولا طمعَ إلا في رحمته، ولا اعتمادَ إلا عليه، ولا انقيادَ إلا لحكمه[1].

الله جلّ وعلا كلُّ الخلقِ مفتقرونَ إليه، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ *﴾ [فاطر :15] .

قد يُعْطَى الإنسانُ أموالاً، وقد يُمْنَحُ عقاراً، وقد يُرْزَقُ عيالاً، وقد يُوْهَبُ جاهاً، وقد يَنَالُ منصباً عظيماً، أو مركزاً كريماً، أو زعامةً عريضةً، أو رياسةً مكينةً، قد يحفُّ به

---

[1] الله أهل الثناء والمجد ، ص: (85).

الخدمُ، ويحيطُ به الجندُ، وتحرسُه الجيوشُ، ويرضَخُ له الناسُ، وتذلُّ له الرؤوسُ، وتدينُ له الشعوبُ، ولكنّه مع ذلك فقيرٌ إلى الله، محتاجٌ إلى مولاه[1].

الله تعالى أسعدَ عبادَه بكتابه، وأبهجَ قلوبَهم بكلامه، وأنارَ بصائرَهم بقراءته، أكثرُهم قراءةً له أشدُّهم تعظيماً له، وأقربُهم منزلةً منه أقربُهم من كلامه، وأقرؤهم لوحيه.

كلامٌ معجزٌ، وقرآن مبهجٌ، وحبلٌ متينٌ، ونورٌ مبينٌ، ينطِقُ بالعظمةِ، ويهتِفُ بالإبداعِ، ويصدَحُ بالألوهيةِ، ويشهدُ بالربوبية[2].

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ *﴾ [الزمر :23] .

وجودُ الله جلّ وعلا أمرٌ ثابتٌ في النفوس، متمكّنٌ في الفِطَرِ، مزروعٌ في الأذهانِ، مغروسٌ في الأفئدةِ، لا يحتاجُ إلى دليلٍ، ولا يتطلّب إثباتٍ، ولا يفتِقرُ إلى توكيدٍ.

قال الشاعر (من الوافر):

وليسَ يصحُّ في الأذهانِ شيءٌ ... إذا احتاجَ النهارُ إلى دَلِيْلِ[3]

ولكنَّ بعضَ ذوي الفِطَرِ المنكوسةِ، والأنْفُسِ المريضةِ، والعقليّات المتعنّتَةِ، قد يجادلون في ذلك، مع أنّه مغروسٌ في حقيقة ضمائرهم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل :14] .

[1] المصدر نفسه ص: (126 ، 127).

[2] المصدر نفسه ص: (490).

[3] المصدر نفسه ص: (565).

وجاء القرآن الكريمُ مزدهراً بآيات تنطِقُ بالعظمةِ، وتشهدُ بالربوبيَّةِ، تَسُرُّ نفوسَ الواثقين، وتدحَضُ مزاعمَ المارقين ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ *﴾ [الطور: 35] .

وقد تعرّضَ أنبياءُ اللهِ وأمناءُ الوحي؛ وحملةُ الدعوةِ؛ ومصابيحُ الدجى؛ وأنصارُ التوحيدِ؛ لعددٍ من المتعنتين على مرِّ العصورِ، مع اختلافٍ في طبقاتهم، وتبايُنٍ في تفنُّناتِهم، إلاّ أنّ بعضَهم وصلَ به الأمرُ إلى أنِ ادّعى أنَّه ربُّ العالمين، فأيَّد اللهُ أولياءَه بحججٍ قاهرةٍ، ودلائلَ باهرةٍ، وأدلةٍ قاصمةٍ، وصواعقَ مرسلةٍ، تدمِّرُ أباطيلَهم، وتنسِفُ افتراءاتِهم، وتزلزِلُ كياناتِهم، وتُظْهِرُ سُخْفَ عقولِهم، وقلّة فهمهم، وانحطاطَ أمانيهم.

فهذا إبراهيمُ عليه السلام يحاوِرُ النمرود، الذي طغى وتجبّر، وعتا وتكبّر، وادّعى الربوبيةَ من دون المولى عزّ وجل، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *﴾ [البقرة :258] .

فحينما أدلى إبراهيمُ بالدليلِ الأوّلِ على وجودِ الله تعالى وربوبيتِهِ فقال: قال النمرود: وأنا أحيي وأميتُ (فأتى برجلين قد تحتّمَ ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فأمرَ بقتلِ أحدِهما، وعفا عن الآخر، فكأنّه قد أحياه، وأماتَ الآخر) وهذه حجةٌ واهيةٌ، وردٌّ سخيفٌ، ولكنَّ إبراهيمَ عليه السلام تدرّجَ معه في المحاجَّةِ، فأتاه بالضربةِ القاضيةِ، والحجَّةِ الدامغةِ، فقال:: أي هذه الشمسُ مسخرةٌ كلَّ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ

الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، تطْلعُ من المشرقِ، كما سخّرها خالقُها ومسيّرُها وقاهِرُها اللهُ، الذي لا إله إلا هو، خالقُ كلِّ شيءٍ، فإنْ كنتَ كما زعمتَ أنَّك تحيي وتميتُ، فأتِ بهذهِ الشمسِ مِنَ المغربِ، فإنَّ الذي يحيي ويميت هو الذي يفعلُ ما يشاءُ، ولا يمانَعُ، ولا يغالَبُ، بل قد قهرَ كلَّ شيءٍ، ودانَ له كُلُّ شيءٍ، فإنْ كنتَ كما تزعمُ فافعل هذا، فإنْ لم تفعلْه، فلستَ كما زعمتَ، وأنتَ تعلمُ وكلُّ أحدٍ يعلمُ أنك لا تَقْدِرُ على هذا، ولم يبقَ للنمرود كلامٌ يجيبُ فيه الخليلَ عليه السلام[1]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *﴾ [البقرة :258] .

وقال الشاعر (من المتقارب):

فيــا عجبــاً كيــفَ يُعْصَــى الإلــهُ	أمْ كيـــفَ يجحَـــدُهُ الجاحِـــدُ
وللهِ في كـــــلِّ تحريكـــــةٍ	وفي كـــلِّ تســـكينةٍ شـــاهِدُ
وفي كُـــلِّ شـــيءٍ لـــه ايـــةٌ	تَـــدُلُّ علـــى أنَّـــه واحِـــدٌ

وما أجمل هذه الأبياتِ الرائعةِ التي قالها الشاعِرُ إبراهيمُ بريول رحمه الله! (من الكامل):

إنّي أويــتُ لكــلِّ مــأوًى في الحيــا	ةِ فمــا رأيــتُ أعــزَّ مِــنْ مأواكــا
وتَلَمَّسَتْ نفسي السبيلَ إلى النجا	ةِ فلـمْ تجِـدْ منجًـى سـوى مَنْجَاكـا
وبحثــتُ عَــنْ سِــرِّ الســعادةِ جاهِــداً	فوجــدتُ هــذا السِّــرَ في تَقْوَاكــا
فلـيرضَ عـنِّي النـاسُ أو فليسـخطوا	أنا لم أعــدْ أســعَى لغــيرِ رِضَــاكا
أدعـــوكَ يا ربِّي لتغفِـــرَ حـــوبتي	وتعينَـــني وتمـــدَّني بهُـــدَاكا
فاقبـلْ دعـائي، واسْـتَجَبْ لرجائيـا	مـا خـابَ يومـاً مَـنْ دَعـا ورَجَاكـا

[1] أهل الثناء والمجد ص: (567).

إلى أن قال:

يا أيُّها الإنسانُ مَهْلاً ما الذي	باللهِ جَلَّ جلالُه أَغْرَاكا
فاسجدْ لمولاكَ القديرَ فإنَّما	لا بدَّ يوماً تَنْتَهِي دُنياكا
وتكونُ في يومِ القيامةِ ماثلاً	تُجْزَى بما قَدْ قدّمَتْهُ يَدَاكا[1]

إنَّ حقائقَ الإسلام ثابتةٌ لا تتغير، منذ أُنزلتْ على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة، المرجعُ فيها كتابُ اللهِ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولكنّ علماءَ الأُمّة في كلِّ جيلٍ. وطلاّبَ العلمِ فيها. يتناولونها بالشرح والتفسيرِ، من خلالِ الواقعِ الذي يعيشُه كلُّ جيلٍ، وما جدَّ فيه من نوازلَ، وما حدثَ فيه من انحرافٍ في الفهمِ أو السلوكِ، وإنَّ جيلنا الذي نعيشُ فيه لهو مِنْ أحوجِ الأجيالِ إلى التعرُّفِ على حقائق دينه، وخصوصاً أركانِ الإيمان الستّةِ، وهذا الكتابُ الذي بين يدي القارئ يتناول الركن الأول (الإيمان بالله عز وجل) وستلحقه بإذن الله تعالى دراساتٌ أخرى في أركانِ الإيمان الستة، والأخلاقِ، والتربيةِ الروحيةِ، والسُّننِ الإلهية، ومقاصدِ الشريعةِ، والسياسةِ الشرعيةِ، وعلمِ المصالحِ والمفاسدِ، وغيرها من الدراساتِ المنهجيّةِ الهادفةِ إلى المساهمة في نهضة الأمة، وانطلاقتها الحضارية الجديدة المرتقبة.

هذا وقد قسّمتُ هذا الكتابَ إلى سبعة مباحثَ:

المبحث الأول: معنى (لا إله إلا الله محمَّدٌ رسول الله)، وبيّنتُ فضلَ (لا إله إلا الله)، وأنَّها أفضلُ الذكر، وتحدّثتُ عن شروطها: كالعلمِ، واليقينِ، والقبولِ، والانقيادِ،

[1] المصدر نفسه ص: (550).

والصدقِ، والإخلاصِ، والمحبَّةِ، وارتباطِها بالولاءِ والبراءِ، واثارِ الإقرارِ بهذه الكلمةِ في حياتنا.

وفي المبحثِ الثاني والثالث: تكلّمتُ عن إثباتِ وجود الخالق، وتوحيدِ الربوبيّةِ، وأشرتُ لدليلِ الخَلْقِ، ودليلِ الفِطْرةِ والعَهْدِ، ودليلِ الافاقِ، ودليلِ الأَنْفُسِ، ودليلِ الهدايةِ، ودليلِ انتظامِ الكونِ وعدمِ فسادِهِ، ودليلِ التقدير، ودليلِ التسويةِ، التي جاءت في القرآن الكريم.

ووضحّت في المبحثِ الرابع والخامس: توحيدَ الأسماءِ والصفاتِ، وتوحيدَ العبادة، وتكلّمت عن علاقةِ تحكيم الشريعة بالتوحيدِ، والاثارِ الحسنةِ للحُكْمِ بما أنزل الله: كالاستخلافِ، والتمكينِ، والأمنِ، والاستقرارِ، والنَّصرِ، والفتحِ، والعزِّ، والشَّرفِ، وبركةِ العيشِ، ورَغَدَهِ، والهدايةِ، والتثبيتِ، والفلاحِ، والفوزِ، والمغفرةِ، وتكفيرِ السيئاتِ، ومرافقةِ النبيّينَ والصدّيقين.

كما وقفتُ مع الاثارِ السيئةِ للحكم بغير ما أنزلَ الله: كقسوةِ القلبِ، والضَّلالِ عن الحقِّ، والوقوعِ في النفاقِ، والحرمانِ من التوبةِ، والصدِّ عن سبيل اللهِ، وغيابِ الأمنِ، وانتشارِ الفوضى، وانتشارِ العداوةِ والبغضاء، والحرمان من النَّصْرِ والتمكينِ، وهول العقابِ الذي يَنْتَظِرُ المبدّلين لشرعهِ، والإهانةِ عند قَبْضِ الأرواح، والأكلِ من النار، وغضبِ الجبارِ، والعذابِ المهين.

وتكلّمتُ عن جهودِ النبيّ صلى الله عليه وسلم في حمايةِ توحيدِ العبادة: كالنهي عن الغلوّ والإطراء لشخصه الكريم، وكيفيّةِ التعامل مع الرُّقى والتمائم، ونهيه عن الكهانة... إلخ.

أما في المبحثِ السادسِ: فكان الحديثُ عن الإيمان بالله عز وجل، واخترتُ كلمةَ الإيمان بدلاً من العقيدةِ، واستخدمتُها في كتابي تماشياً مع العَرْضِ القرآني، الذي عرضَ مقرَّرات الإيمانِ، وخصائصَه ضمنَ المصطلح اللطيف، والكلمة الحبيبة (الإيمان) ولا شكَّ أنَّ العودةَ إلى تعبيرِ القرآن الكريم والرسولِ صلى الله عليه وسلم أنفعُ وأولى مع استعمال المصطلحات الأخرى، فكلمةُ الإيمانِ أرقى معنًى، وأشفُّ ظِلاًّ، وأدلُّ على المقصودِ من الكلمات الأُخرى، فهي تُشيعُ في الأجواءِ ـ عندما تُكْتَبُ أو تُنْطَقُ ـ معانيَ الأمنِ والثقةِ، وتلقِي ظلالَ الطمأنينةِ واليقينِ، وتوحي بمعاني الإلزامِ والتصديقِ والخضوع، وتُطْلِقُ إيحاءاتِ الثباتِ والدوامِ، والمتانةِ والحيويةِ، وكلمةُ العقيدةِ لا تتضمَّنُ كلَّ هذا.

كما أني بيّنتُ الفرقَ بين الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ، والأسسَ التي يقومُ عليها الإيمانُ بالله عز وجل، وشرحتُ بعضَ الآيات القرآنية التي تحدّثتْ عن الإيمانِ، كزينةِ الإيمانِ، ونورِ الإيمانِ، وروحِ الإيمانِ، ولخّصتُ في هذا الكتاب أهمَّ أسبابِ قوةِ الإيمان مثل:

1 ـ معرفة أسماء الله الحسنى.

2 ـ تدبر القرآن على وجه العموم.

3 ـ معرفة النبيّ صلى الله عليه وسلم.

4 . التفكير في الكون، والنظر في الأنفس.

5 . الإكثار من ذكر الله في كلِّ وقت.

6. معرفة محاسن الدين.

7 . الاجتهاد في التحقق من مقام الإحسان.

8 . الدعوة إلى الله.

9 . توطين النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان.

10 . معرفة حقيقة الدنيا، واعتبارها مزرعةً للآخرة.

وعرضتُ بعضَ صفات المؤمنين التي جاءت في القرآن الكريم، وشرحتُها، وبيّنْتُ أهميتَها، وركّزتُ على أهمِّ فوائد الإيمان وثمراته، كالاغتباطِ بولايةِ الله الخاصّة، ودفاع اللهِ عن المؤمنين، والفوزِ برضا الله، وحصولِ البشارةِ بكرامةِ الله، وحصول الفلاحِ والهدى، والانتفاعِ بالمواعظِ والتذكيرِ، والشكرِ، والصبرِ، وتأثيرِه على الأعمالِ والأقوالِ، وهدايةِ الله إلى الصراط المستقيم، ومحبةِ الله وللمؤمنين مِنْ خلقه، ورفع الله لمكانتهم.

وفي المبحثِ السابع والأخير: كان الحديثُ عن الشركِ، والكُفْرِ، والنفاق، والردة، والفسق، والمعاصي.

أيها القارئُ الكريم، أضعُ بين يديكَ هذا الكتابَ، راجياً من اللهِ أن يحيا قلبُك، وتزدادَ هدايةً مع كلِّ معرفةٍ جديدةٍ عن ربِّكَ، فالهدفُ من كتابتِهِ هو زيادةُ إيمانِكَ بربِّ العالمين، بعيداً عن العوائق التي وُضعتْ في طريق الإيمانِ، الذي بيّنه رسولُنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وسار عليه الصحابةُ الكرامُ، سهلاً ميسّراً، دونَ عناءٍ ولا شقاءٍ، فآمنوا

بربهم، فهدى الله قلوبَهم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *﴾ [التغابن :11] .

هذا وقد انتهيتُ من هذا الكتاب يوم الأحد في الساعة الثالثة إلا ربع ظهراً بتاريخ 1430/5/8 هـ يوافقه 2009/3/3 م بالدَّوحة، والفضلُ للهِ منْ قبلُ ومِنْ بعدُ، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أنْ يجعلَ عملي لوجهه خالصاً، ولعبادِه نافعاً، ويشرحَ صدورَ العبادِ للانتفاعِ به، ويباركَ فيه بمنّه وكرمِهِ وجودِه، وأن يثيبَ إخواني الذين أعانوني من أجلِ إتمام هذا الجهد المتواضِع، ونرجو من كلِّ مسلمٍ يصلُه هذا الكتاب أنْ لا ينسى العبدَ الفقير إلى عفو ربِّه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ *﴾ [النمل :19] .

وقال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [فاطر :2] .

وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ *وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ *وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ [الصافات :180 . 183] .

سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ أنتَ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليك، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين

علي محمد محمد الصلابي

المبحث الأول

معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله
وفضلُها وشروطُها

أولاً ـ معنى (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

ثانياً ـ فضل كلمة (لا إله إلا الله).

ثالثاً ـ أفضل الذكر (لا إله إلا الله).

رابعاً ـ أشعة (لا إله إلا الله) تبدِّدُ ظلماتِ القلوب.

خامساً ـ التوافق بين (لا إله إلا الله) و(إياك نعبد).

سادساً ـ شروط (لا إله إلا ا لله).

سابعاً ـ ارتباط (لا إله إلا الله) بالولاء والبراء.

ثامناً ـ اثار الإقرار (بلا إله إلا الله).

المبحث الأول : معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله وفضلُها وشروطُها

أوَّلُ كلمةٍ يدخلُ بها الإنسانُ بوّابةَ الإسلامِ، ويصلُ إلى مدارجِ التوحيد، ويرتقي في مراقي العبودية، هي كمةُ (لا إله إلا الله محمد رسول الله) التي بموجبها يعترفُ العبدُ للهِ عزّ وجلّ وحدَه بالربوبية والألوهية، ولمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بالرسالةِ.

أنْ يشهدَ العبدُ أنَّ الله هوَ المستحقُّ للعبادةِ، وأنْ تنصَرفَ قواه ـ قوى عقلِهِ وقلبِهِ وبدنهِ وجوارحِه ـ في التسبيح، والتهليلِ، والتمجيد، والعبودية لهذا الإلهِ العظيم، الذي أنتَ أيُّها الإنسانُ من بعضِ فضلِه، ومن بعضِ خلقِه، فكلُّ ذرَّاتِ كيانك الداخلية تعترِفُ به، وتمجِّده، وتسبِّحه، شئتَ أم أبيتَ، غفلتَ أم انتبهت، حَيِيْتَ أم مِتَّ، آمنتَ أم كفرتَ، فيبقى اختيارُ الإنسانِ أن يعبدَ ربَّه سبحانه وتعالى طَوْعاً بما أمره الله تعالى، وبما جاء على ألسنةِ رسلِهِ المكرّمين عليهم الصلاة والسلام[1].

وأن يشهدَ أنَّ محمَّداً صلى الله عليه وسلم الخاتمَ للرسل هو عبدُ اللهِ ورسولُه، أرسلَه ربُّنا إلى الخَلْقِ أجمعين، من الإنس والجن، وذلك إقراراً باللسانِ، وإيماناً بالقلب، بأنَّه رحمةٌ مهداةٌ للعالمين.

أولاً ـ معنى (لا إله إلا الله محمد رسول الله):

إن معنى كلمة: (لا إله إلا الله) أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، فهو وحدَه سبحانه المستحقُّ بأنْ تصرفَ له جميعُ العباداتِ، وتكونَ خالصةً له دون سواه، قال تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ *﴾ [البقرة: 163] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ *

(1) مع الله ، د. سليمان العودة ، ص: (39).

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *﴾ [الزخرف: 26 . 28] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ *﴾ [آل عمران: 2] .

ومعنى شهادةِ (أنَّ محمد رسول الله) الإقرارُ باللسانِ، والإيمان بالقلبِ، بأنَّ محمَّدَ بنَ عبد الله القرشيَّ الهاشميَّ رسولُ اللهِ . عزَّ وجلَّ . إلى جميعِ الخلقِ من الجنِّ والإنسِ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمنوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *﴾ [الاعراف :158] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا *﴾ [الفرقان :1] .

فكلمة لا إله إلا الله تشمل جزأين، النفي والإثبات:

1 . أما (لا إله): فنافيةٌ جميعَ ما يُعْبَدُ مِنْ دونِ الله تعالى، فلا يستحقُّ أنْ يُعْبَدَ أحدٌ سواه، و«النكرةُ في سياق النفي تفيدُ العمومُ» فهي تشملُ كلَّ ما يمكِنُ أنْ يُتوجَّه إليه بالعبادةِ، وكلَّ مَنْ تُصْرَفُ إليه غير الله تعالى[1].

2 . أما (إلا الله): فَمُثْبَتَةٌ العبادةَ للهِ تعالى، فهو الإله الحقُّ، المستحقُّ للعبادة، فإنَّ خبر (لا) المحذوفَ (بحق) هو الذي جاءت به نصوصُ الكتاب المبين، فمعنى (لا إله بحق إلا الله) أي: لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، فكما تفرَّد سبحانه وتعالى بالخَلْقِ، والرزق، والإحياءِ، والإماتةِ، والإيجادِ، والإعدامِ، والنفعِ، والضّرِ، وغير ذلك من معاني ربوبيته، ولم يشارِكْه أحدٌ في خلقِ المخلوقات، ولا في التصرّفِ في شيءٍ منها، فكذلك تفرُّدُه سبحانه بالأُلوهيةِ حقٌّ لا شريكَ له، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ *﴾ [لقمان :30] .

---

[1] العقيدة الصافية ، سيد سعيد عبد الغني ، ص: (260).

3 . أما لفظ الجلالة في كلمة الشهادة (الله) عزَّ وجلَّ فهو اسمٌ من أسمائه جلَّ وعلا، بل هو اسمه الأعظم عندَ قومٍ، وهذا أكثرُ الأسماءِ تردُّداً في القرآن والسنة.

و(الله) هو أكثرُ الأسماءِ اشتهاراً وترديداً على ألسنةِ المخلوقين كلّهم بمختلف لغاتهم وألسنتهم.

و(الله) هو الاسم الدالُّ على الذاتِ العظيمةِ الجامعةِ لصفاتِ الألوهية والربوبية، وهو اسمٌ له وحدَه، لا يتعلّق به أحدٌ سواه، ولا يُطْلَقُ على غيره، ولا يدّعيه أحدٌ مِنْ خلقه.

و(الله) اسمٌ للربِّ المعبودِ المحمودِ، الذي يمجّدهُ الخلقُ، ويسبّحونه، ويحمَدونه، وتسبّحُ له السماواتُ السبع، والأرضونَ السبعُ، ومن فيهنّ، والليل والنهار، والإنس والجن، والبَرُّ والبحر ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا *﴾ [الإسراء :44] .

و(الله) هو الربُّ الذي تألَهُهُ القلوبُ، وتحنُّ إليه النفوسُ، وتتطلَّعُ إليه الأشواقُ، وتحِبُّ وتأنَسُ بذكرِهِ وقربِهِ؛ وتشتاقُ إليه؛ وتفتقر إليه: المخلوقاتُ كلُّها في كلِّ لحظةٍ وومضةٍ، وخطرةٍ وفكرةٍ، في أمورِها الخاصّةِ والعامّةِ، والكبيرةِ والصغيرةِ، والحاضرةِ والمستقبلةِ، فهو مبديها ومعيدُها، ومُنْشِئُها وباريها، وهي تدينُ له سبحانه وتُقِرُّ، وتفتقِرُ إليه في كلِّ شؤونها وأمورِها، فما مِنْ مخلوق إلا ويشعرُ بأنَّ الله تعالى طوّقه مِنَناً ونعماً، وأفاضَ عليه من الائه وكرمه وإفضاله وإنعامه بالشيء الكثير، فجديرٌ إذًا أنْ يتوجَّه قلبُ الإنسان إلى الله تبارك وتعالى بالحبِّ والتعظيم والحنين.

و(الله): عظيمٌ في ذاته، وصفاته، وأسمائه، وجلاله، ومجده، لا تحيطُ به العقولُ، ولا تدرِكُه الأفهام، ولا تَصِلُ إلى عظمته الظنون، فالعقولُ تحارُ في عظمته، وإن كانت

تستطيع بما مُنِحَتْ من الطّوْقِ والقدرةِ على أن تدرِكَ جانباً من هذه العظمةِ، يمنحُها محبةَ اللهِ، والخوفَ منه، والرجاءَ فيه، والتعبُّدَ له، بكلِّ ما تستطيع[1].

قال الشاعر (من الكامل):

للهِ في الآفــــاقِ آيات لعـــــلْ	لَ أقلَّهــا هــو مــا إليــه هَــدَاكَا
ولعــلَّ مــا في الــنَّفْسِ مِــنْ آياتــهِ	عَجَــبٌ عُجَــابٌ لــو تَــرَى عَيْنَاكـا
والكـــونُ مشـــحونٌ بأســـرارٍ إذا	حاولــتَ تفســيراً لهــا أعياكــا[2]

و(الله) هو الإله المعبود، الذي يُخْلِصُ له المؤمنون قلوبَهم، وعبادتهم، وصلاتَهم، وحَجَّهم، وأنساكَهم، وحياتَهم، وآخرتَهم ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *﴾ [الانعام: 162-163] .

وروحُ (لا إله إلا الله) وسرُّها: إفرادُ الربِّ جلّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه، وتباركَ اسمُه، وتعالى جَدُّه، ولا إله غيرُه بالمحبةِ، والإجلالِ، والتعظيمِ، والخوفِ، والرجاءِ، وتوابعِ ذلك من التوكلِ، والإنابةِ، والرغبةِ، والرهبةِ، فلا يُحَبُّ سواه، بل كلُّ من كان يحِبُّ غيره فإنّما يحبُّه تبعاً لمحبته، ولأنّه وسيلةٌ إلى زيادةِ محبته، ولا يُخَاف سواه، ولا يُرْجَى سواه، ولا يُتَوَكَّلُ إلاَّ عليه، ولا يُرْغَبُ إلاَّ إليه، ولا يُرْهَبُ إلاَّ منه، ولا يُحْلَفُ إلاَّ باسمِهِ، ولا يُنْذَرُ إلاَّ له، ولا يُتَابُ إلاَّ إليه، ولا يُطَاعُ إلاَّ بأمرِهِ، ولا يُحْتَسَبُ إلاّ له، ولا يُسْتَعَانُ في الشدائِد إلاّ به، ولا يُلْتَجَأُ إلاّ إليه، ولا يُسْجَدُ إلاّ له، ولا يُذْبَحُ إلا له وباسمِهِ، يجتمع ذلك في حرفٍ واحدٍ، هو أنْ لا يُعْبَدَ بجميع أنواعِ العباداتِ إلاّ هو.

---

[1] مع الله ، د. سليمان العودة ، ص: (36 ، 37).

[2] المصدر نفسه ، ص: (39).

فهذا هو تحقيقُ شهادةِ أنْ لا إله إلا الله، ولهذا حرَّمَ الله على النارِ مَنْ شهدَ أنْ لا إله إلا الله حقيقةً، ومحالٌ أن يدخلَ النارَ مَنْ تحقَّقَ بحقيقةِ هذه الشهادة، وقامَ بها كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ *﴾ [المعارج: 13] فيكونُ قائماً بشهادتهِ في باطنهِ وظاهره، وفي قلبه وقالبه[1].

ومقتضى هذه الشهادة أنْ تصدِّقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبرَ، وأن تمتثلَ أمرَه فيما أمر، وأنْ تتَجَنَّبَ ما عنه نهى وزجر، وأنْ لا تعبدَ الله إلا بما شرع، وأنْ لا تعتقدَ أنَّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم حقّاً في الربوبية، وتصريفِ الكون، أو حقّاً في العبادةِ، بل هو صلى الله عليه وسلم عبدٌ لا يُعْبَدُ، ورسولٌ لا يكذَّبُ، ولا يملِكُ لنفسِهِ ولا لغيرِهِ شيئاً منَ النفع أو الضرِّ إلا ما شاء الله[2].

لقد عُرِفَتْ (لا إله إلا الله) لدى المسلمين (بكلمة التوحيد) و(كلمة الإخلاص) و(كلمة التقوى)، وكانت (لا إله إلا الله) إعلانَ ثورةٍ على جبابرةِ الأرض وطواغيتِ الجاهلية، ثورةٍ على كل الأصنام والالهة المزعومة من دون الله، سواء كانت شجراً أم حجراً أم بشراً.

وكانت (لا إله إلا الله) نداءً عالمياً لتحريرِ الإنسان من عبوديةِ الإنسان والطبيعة وكلّ مَنْ خُلِقَ، وكانت (لا إله إلا الله) عنوانَ منهجِ اللهِ الذي لا تعنو الوجوهُ إلاّ له، ولا تنقادُ القلوبُ إلاّ لحكمه، ولا تخضعُ إلاّ لسلطانه[3].

---

[1] الجواب الكافي لابن القيم ، ص: (139).

[2] الأمثال في القران ، د. عبد الله جربوع (1؛233).

[3] الإيمان والحياة للقرضاوي ، ص: (31).

ثانياً ـ فضل كلمة (لا إله إلا الله):

لقد ورد في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من الفضائل الجمّة لهذه الكلمة، والخصالِ العديدة، والأوصافِ الحميدةِ، ما يَصْعبُ استقصاؤه في هذا الموضع، فهي كلمةٌ قامت بها الأرضُ والسماوات، وخُلِقَتْ لأجلها جميعُ المخلوقاتِ، وبها أَرسلَ الله تعالى رسلَه، وأنزلَ كتبَه، وشرعَ شرائعَه، ولأجلِها نُصِبَتْ الموازينُ، ووضعت الدواوينُ، وقام سوقُ الجنّة والنار، وبها انقسمتِ الخليقةُ إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجّار، فهي منشأُ الخلقِ والأمر، والثوابِ والعقابِ، وهي الحقُّ الذي خُلِقَتْ له الخليقةُ، وعنها وعن حقوقها السؤالُ والحسابُ، وعليها يقعُ الثوابُ والعقابُ، وعليها نُصِبَتِ القبلةُ، وعليها أُسِّسَتِ الملّةُ، ولأجلِها جُرِّدَتِ سيوفُ الجهادِ، وهي حقُّ اللهِ على جميعِ العبادِ، فهي كلمةُ الإسلام، ومفتاحُ دارٍ السلامِ، وعنها يُسْأَلُ الأولون والآخرون، فلا تزولُ قدما العبدِ بين يدي الله حتى يُسْأَلَ عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟.

فجوابُ الأولى: بتحقيق (لا إله إلا الله) معرفةً، وإقراراً، وعملاً.

وجواب الثاني: بتحقيق (أن محمداً رسول الله) معرفةً، وإقراراً، وانقياداً، وطاعةً[1].

ومما ورد في فضل هذه الكلمة في القرآن الكريم أنّها وُصِفَتْ بالكلمة الطيبة، والقولِ الثابتِ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ *تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ *﴾ [ابراهيم :24 ـ 25] وأنها العروة الوثقى، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة :256] .

---

[1] زاد المعاد (34/1).

ومن فضائلها أنّ الرسل جميعَهم أُرسلوا بها مبشرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ *﴾ [الانبياء :25]

إلى غير ذلك من الفضائل التي ذُكِرتْ في القرآن الكريم.

وأما ما ورد في فضلها في السنة المشرفة فكثيرٌ جدّاً، نذكرُ منه بعضُها:

فمن ذلك أنها أفضل شعب الإيمان، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنّه قال: «الإيمانُ بِضْعٌ وسبعونَ، أو بِضْعٌ وستون، شُعْبَةً، أفضلُها قولُ لا إله إلاّ الله، وأَدْناها إمَاطَةُ الأذى عن الطريق»[1].

ومن فضائلها أن الجهاد أُقِيْمَ من أجل إعلائها، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أُمِرْتُ أنْ أقاتِلَ النَّاسَ حتّى يَشْهَدوا أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ، ويقيموا الصلاةَ، ويؤتوا الزكاةَ، فإذا فعلوا ذلك، عَصَمُوا منّي دماءَهم وأموالَهم، إلاّ بحقِّ الإسلامِ، وحسابُهم على اللهِ»[2].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان عدد شعب الإيمان ، وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء ، وكونه من الإيمان (35) وأخرجه بلفظ مختصر البخاري في صحيحه في كتاب: الإيمان ، باب أمور الإيمان (9) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان عدد شعب الإيمان . (35).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب:[التوبة: 5] ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن من فعل ذلك عصم نفسه وماله إلا بحقها ، ووكلت سريرته إلى الله تعالى ، وقتال من منع الزكاة أو غيرها من حقوق الإسلام ، واهتمام الإمام بشعائر الإسلام (22).

ومن فضائلها أنّها ترجُحُ بصحائفِ الذنوب، كما في حديث البطاقة،، فعن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رجلاً مِنْ أُمَّتي على رؤوس الخلائق يومَ القيامةِ، فَيَنْشُرُ عليه تسعةً وتسعينَ سِجِلاًّ، كُلُّ سِجِلّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يقولُ: أتُنْكِرُ مِنْ هذا شيئاً، أظلمَكَ كَتَبتي الحافظونَ؟.

فيقولُ: لا يا ربِّ.

فيقولُ: أفلك عُذْرٌ؟.

فيقولُ: لا يا ربِّ.

فيقولُ: بلى إنَّ لكَ عِنْدَنا حسنةً، فإنه لا ظُلمَ عليكَ اليومَ، فتُخْرَجُ بطاقةٌ، فيها: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأشهدُ أنَّ محمّداً عبدُه ورسولُه، فيقول: احْضُرْ وزنَكَ.

فيقول: يا ربِّ ما هذهِ البطاقةُ مَعَ هذهِ السجّلاتِ؟

فقال: إنّك لا تُظْلَمُ.

قال: فتوضع السجلاّتُ في كِفّةٍ، والبطاقةُ في كِفّةٍ، فطاشتِ السجلاّتُ، وَثَقُلَتِ البطاقةُ، فلا يَثْقُلُ مَعَ اسمِ اللهِ شيءٌ»[1].

ثالثاً ـ أفضلُ الذكرِ (لا إله إلا الله):

إنّ ذكرَ اللهِ من أفضل العباداتِ المقرّبةِ إلى اللهِ تعالى وأجلِّها، وأعظمِها أجراً، مع سهولته ويُسْرِهِ على مَنْ يسرّهُ الله عليه.

[1] أخرجه الترمذي في جامعه ، كتاب: الإيمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (2639). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وبلفظ قريب أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب: الزهد ، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (4300).

هذا وإنّ أفضلَ أنواعِ الذكر بعدَ القرآن العظيم هو قولُ المرء: (لا إله إلا الله).

وهي كلمةُ التوحيدِ، كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: «أفضلُ الذكرِ لا إله إلا الله»[1].

وهذه الكلمةُ الجليلةُ واجبٌ على كلِّ مسلمٍ أنْ يتعلَّمَها، ويعلمَ مضمونَها ومعناها، وشروطها وأركانها، وكلَّ ما يتعلّق بها، لأنّها الكلمةُ التي يصيرُ بها المرءُ مسلماً، فهي الفيصلُ بين الكفر والإسلام، ولأنَّ الله جلّ جلاله أمر أفضلَ خلقِهِ وخاتمَ رسلِهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يَعْلمَ كلَّ ما يتعلَّقَ بها ويعتقدَه في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: 19] .

وقد ذمَّ الله سبحانه من استكبرَ عنها، وأعرضَ عنها، وتركَ العمل بها في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ *وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ *﴾ [الصافات: 35، 36] .

ووصف الله سبحانه نفسَه بما تضمنته هذه الكلمةُ في غير موضع من كتابه فقال: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255] وقال سبحانه: ﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [غافر: 65] .

وحققها إبراهيمُ عليه السلام كما حكى الله عنه بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ *وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *﴾ [الزخرف: 26، 28] .

---

[1] أخرجه الترمذي في جامعه ، كتاب: الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (3383) ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وأخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب: الأدب ، باب: فضل الحامدين (3800).

رابعاً ـ أشعةُ كلمةِ (لا إله إلا الله) تبدِّدُ ظلماتِ القلوبِ:

اعلمْ أنَّ أشعة (لا إله إلا الله) تبدّدُ مِنْ ضبابِ الذنوبِ وغيومِهَا بقدر قوّةِ ذلك الشعاع وضعفه، فلها نورٌ، وتفاوتُ أهلِها في ذلك النور قوةً وضعفاً لا يحصيه إلا الله تعالى، فمن الناس مَنْ نورُ هذه الكلمةِ في قلبه كالشمس، ومنهم مَنْ نورُها في قلبه كالكوكب الدرِّي، ومنهم مَنْ نورُها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراجِ الضعيف، ولهذا تظهرُ الأنوارُ يومَ القيامةِ بأيمانهم، وبينَ أيديهم، على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علماً وعملاً، ومعرفة وحالاً، وكلّما عَظُمَ نورُ هذه الكلمة واشتدّ أحرقَ مِنَ الشبهاتِ والشهواتِ بحسب قوته وشدته، حتى إنّه ربما وصلَ إلى حالٍ لا يصادِفُ معها شبهةً ولا شهوةً ولا ذنباً إلا أحرقه، وهذا حالُ الصادقِ في توحيدِه، الذي لم يشركْ باللهِ شيئاً، فأيُّ ذنبٍ أو شهوةٍ أو شبهةٍ دنت من هذا النور أحرقَها، فسماءُ إيمانه قد حُرِستْ بالنجوم من كلِّ سارقٍ لحسناته، فلا يَنَالُ منها السارقُ إلا على غرّةٍ وغفلةٍ، لا بدّ منها للبشر، فإذا استيقظَ وعلمَ ما سُرِقَ منه استنقذه من سارقه، أو حصّل أضعافه بكسبه، فهو هكذا أبداً مع لصوص الجنِّ والإنسِ، ليسَ كمَنْ فتحَ لهم خزانتَه، وولّى البابَ ظهره[1].

خامساً ـ التوافق بين (لا إله إلا الله) و(إياك نعبد):

إنّ معنى (لا إله إلا الله) تضمّنه قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ *﴾ [الفاتحة: 5] وهذه الآية متضمّنةٌ لأجلِّ الغايات، ففيها يُسْرُ الخلق والأمر، والدنيا والآخرة، وهي متضمِّنةٌ لأجلِّ الغايات، وأفضل الوسائل، فأجلُّ الغايات عبوديتُه، وأفضل الوسائل

[1] مدارج السالكين (369/1).

إعانتُه، فلا معبودَ يستحقُّ العبادة إلا هو، ولا معينَ على عبادته غيره، فعبادتُه أعلى الغايات، وإعانتُهُ أجلُّ الوسائلِ.

وقد اشتملت هذه الكلمةُ على نوعي التوحيد، وهما: توحيد الربوبية، وتوحيد العبادة، وتضمّنت التعبُّدَ باسم الرب واسم الله، فهو يُعْبَدُ بألوهيته، ويُستعانُ بربوبيته، ويُهْدَى إلى الصراط المستقيم برحمته، فكان أولُ السورةِ ذكر اسمه: (الله) و(الرب) و(الرحمن) تطابقاً لأجل الطالبِ من عبادته وإعانته وهدايته، وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله، لا يعينُ على عبادته سواه، ولا يهدي سواه[1].

سادساً ـ شروط (لا إله إلا الله):

لما كان معنى (لا إله إلا الله) هو أنّه لا معبودَ بحقٍ إلا الله، ولما كان كثيرٌ من الناس لا يدركُ معنى وأهمية (لا إله إلا الله) كان لا بدَّ لنا أن نتحدّث عن شروطِ هذه الكلمة.

ورحم الله وهب بن منبه حين سُئِلَ: أليستْ (لا إله إلا الله) مفتاح الجنّة؟.

قال: بلى، ولكنْ ليس مفتاحٌ إلا له أسنان، فإن جئتَ بمفتاحٍ له أسنانٌ فتَحَ لك، وإلاّ لم يفتحْ لكَ[2]، وهذه الأسنانُ هي شروطُ هذه الكلمة العظيمة، والتي عددُها سبعة عند العلماء، وليس المرادُ مِنْ هذا عدَّ ألفاظِها، وحفظَها، فكم مِنْ عامّيٍّ اجتمعت فيه والتزمَها، ولو قيل له عددها لم يُحْسِنْ ذلك. وكم حافظ لألفاظِها يجري فيها كالسهمِ، وتراهُ يقعُ كثيراً في ما يناقِضُها. والتوفيق بيد الله[3].

---

[1] الإيمان بالله د. عمر الأشقر ص: (96) نقلاً عن ابن القيم في الصلاة.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً ، كتاب: الجنائز ، باب: في الجنائز ، ومن كان اخر كلامه: لا إله إلا الله (417/1). ووصله البخاري في تاريخه الكبير (95/1) رقم (261) ، وأبو نُعيم في حلية الأولياء (66/4).
[27]. مسائل هامة في توحيد العبادة ، محمد القحطاني ص: (21).

[3] معارج القبول للحكمي (377/1).

إليك هذه الشروط مع أدلّتها من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مع الاختصار:

1 ـ العلم بمعناها ـ نفياً وإثباتاً ـ علماً ينافي الجهل بها:

قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: 19] وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [آل عمران: 18] .

وفي «الصحيح» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ ماتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أنّه لا إله إلا الله دَخَلَ الجَنّةَ»[1].

2 ـ اليقين المنافي للشك:

وذلك بأن يكونَ قائِلُها مستيقناً بمدلولِ هذه الكلمة يقيناً جازماً. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *﴾ [الحجرات: 15] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ، وأنّي رسولُ اللهِ، لا يَلْقَى الله بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ فيهما إلاّ دخلَ الجنَّة»[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرةَ رضي الله عنه: «اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هاتَينِ فَمَنْ لقيتَ من وراءِ هذا الحائطِ يَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ مستيقناً بها قلبُه، فبشّرْهُ بالجنّةِ»[3].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: الدليل على أنَّ مَنْ مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (26).
[2] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (27).
[3] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (31).

3 . القبول لما اقتضته هذه الكلمة بالقلب واللسان:

وقد قصّ الله علينا من أنباء ما قد سَبق مِنْ إنجاءِ مَنْ قَبلَها، وانتقامه ممّن ردّها وأباها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [يونس :47] .

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [يونس :102] .

وقال تعالى عن الذين كذبوا بهذه الكلمة ورفضوها ولم يقبلوها: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ *﴾ [الزخرف :25] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللّهُ بِهِ مِنَ الهُدى والعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً، فكانَ مِنْها نقيةٌ، قَبِلتِ الماءَ، فَأَنْبَتَتِ الكلأَ والعُشْبَ الكثيرَ، وكانتْ منها أجادِبُ أمسكتِ الماء، فنفعَ اللّهُ بها الناسَ، فشربوا وسَقَوا وزَرَعُوْا، وأصابتْ منها طائفةً أُخرى، إنّما هيَ قِيعانٌ، لا تمسِكُ ماءً، ولا تُنْبِتُ كلأً، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دينِ اللهِ، ونَفَعَهُ ما بعثني اللّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وعَمِلَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْساً، ولم يَقْبَلْ هَدْيَ اللهِ الذي أُرْسِلتُ به»[1].

4 . الانقياد لما دلّت عليه، المُنافي لترك ذلك:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ *﴾ [الزمر :54] .

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: العلم ، باب: فضل من عَلِم وعَلَّم (79) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الفضائل ، باب: بيان مثل ما بُعث به النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم (2282).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: 125] .

5 . الصدق المنافي للكذب:

وذلك بأنْ يقولَها صدقاً من قلبه، يواطِءُى قلبُه لسانَه. قال تعالى: ﴿الم *أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ *وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ *﴾ [العنكبوت: 1 . 3] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما مِنْ أحدٍ يَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ، وأنَّ محمَّداً رسول الله صِدْقاً مِنْ قلبِهِ إلاَّ حَرّمَهُ اللهُ على النَّارِ»[1].

6 . الإخلاص:

وهو تصفيةُ العملِ الصالحِ النيةِ عن جميعِ شوائبِ الشرك، قال تعالى: ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: 3] .

وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ *﴾ [الزمر: 2] .

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ *﴾ [البينة: 5] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أسْعَدُ النَّاسِ بشفاعتي مَنْ قالَ لا إلهَ إلاّ اللهُ خالِصاً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ اللهَ حَرّمَ على النَّارِ مَنْ قالَ: لا إلهَ إلاَّ اللّهَ يبتغي بذلكَ وَجْهَ الله»[3].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: العلم ، باب: من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا (128) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب: الدليل على أنَّ من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (32).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: العلم ، باب: الحرص على الحديث (99).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الصلاة ، باب: المساجد في البيوت (415) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب:

7 . المحبةُ لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلّت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها، وبغض ما ناقض ذلك:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة :165] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمان: مَنْ كانَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ ممّا سواهما، وأنْ يحبَّ المرءَ لا يحبُّهُ إلا للهِ، وأنْ يكرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ، كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ»[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمنُ أحدُكُم حتّى أكونَ أحبَّ إليهِ مِنْ ولدِهِ ووالدِهِ والناسِ أجمعين»[2].

ومحبةُ اللهِ سبحانه وتعالى لا تتمَّ إلا بمحبَّةِ ما يحبُّه، وكره ما يكرهه، وطريقُ معرفةِ ذلك هو اتباعُ الرسول صلى الله عليه وسلم ومحبتُه، فمحبةُ اللهِ تستلزمُ محبَّة الرسولِ صلى الله عليه وسلم واتباعَه وطاعتَه[3]، فهذه الشروطُ مَنْ حقَّقَها، وعَمِلَ بها، وابتعدَ عمّا يناقِضُها، أوجبَ له مغفرةَ الذنوبِ بإذن الله تعالى[4].

المساجد ومواضع الصلاة ، باب: الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (33).

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب حلاوة الإيمان (16) ، (21) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (43).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: حب الرسول من الإيمان (15) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين ، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة (44).

[3] المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار ، (623/2).

[4] المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار ، (623/2).

سابعاً ـ ارتباط (لا إله إلا الله) بالولاء والبراء:

ولما كان أصلُ الموالاة: الحبُّ، وأصلُ المعاداةِ: البغضَ، وينشأُ عنهما من أعمالِ القلوبِ والجوارحِ ما يدخلُ في حقيقةِ الموالاةِ والمعاداةِ كالنُّفْرَةِ، والأُنْسِ، والمعاونة، وكالجهادِ، والهجرة، ونحو ذلك[1]، فإنَّ الولاءَ والبراءَ

مِنْ لوازمِ (لا إله إلا الله) قال الله تعالى: ﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ *﴾ [آل عمران: 28] .

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *﴾ [المائدة: 51]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أوثقُ عُرى الإيمانِ الحبُّ في الله والبغضُ في الله»[2].

ولقد ضربَ نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام نموذجَ الأسوة الحسنة في ولائه لربِّ العالمين، حيثُ كان عليه السلام أسوةً حسنةً، وقدوةً طيبةً في ولائه لربه ودينه وعباد الله المؤمنين، وبرائه ومعاداته لأعداءِ الله، ومنهم أبوه.

لقد كانت سيرةُ نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام مع قومه، كأيِّ نبيٍّ رسولٍ، حيث دعاهم بالتي هي أحسن إلى عبادة الله وتوحيده، وإفرادِه بالعبادة، والكفرِ بكلِّ طاغوتٍ يُعْبَدُ من دون الله[1].

---

[1] الرسائل المفيدة ، عبد اللطيف بن عبد الرحمن ص: (296).

[2] أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ، كتاب: الإيمان والرؤيا ، باب (80/7) رقم (34338) ، والطيالسي في مسنده (101/1) رقم (747) عن البراء بن عازب. قال الألباني في تخريج أحاديث كتاب الإيمان لابن تيمية ص (119):صحيح.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا *إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا *يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا *يَاأَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا *يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا *قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا *قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا *وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا *فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا *﴾ [مريم :41. 49] .

تلك هي نقطةُ البَدْءِ في دعوة خليل الرحمن، دعوةٍ بالحسنى، مبتدئاً بأقرب الناسِ إليه، فإنْ لم يكن هناك تجاوبٌ مع هذه الدعوة فالاعتزالُ لهذا الباطل وأصحابه، علّ في ذلك ردعاً وزجراً وتفكراً في هذا الأمر الجديد، ونجاة للداعي من مشاركة أهل الباطل في باطلهم، إذا كان لا بدّ له من مخالطتهم ومعاشرتهم، وعدم تمكّنه من الهجرة في أرضهم.

ثم يمضي القرآن في بيان دعوة إبراهيم عليه السلام، مبيّناً أنّه استخدمَ مع قومه كلَّ حجة ودليل، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ *إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ *قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ *قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ *أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ *قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ *قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ *أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ *فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ *﴾ [الشعراء :70. 77] .

---

[1] الولاء والبراء في الإسلام ، د. القحطاني ، ص: (145).

ولما لم يجدوا حجةً، وإنّما هو التقليدُ الأعمى لفعل الاباء والأجداد، قال لهم إبراهيم عليه السلام: أنا عدو الهتكم هذه، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة :4] .

وعقيدة إبراهيم عليه السلام هذه هي التي عبّر عنها علماؤنا الأجلاء بقولهم: «لا موالاة إلا بالمعاداة، ولا تصحُّ الموالاةُ إلا بالمعاداة»[1] كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين، أنه قال لقومه: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ *﴾ [الشعراء :77]، فلم تصحَّ لخليل الله هذه الموالاةُ والخُلّةُ إلا بتحقيق هذه المعادلة، فإنّه لا ولاءَ إلا لله، ولا ولاءَ إلا بالبراءِ مِنْ كلِّ معبودٍ سواه، قال تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ *وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *﴾ [الزخرف :26 -28]، أي جعلَ هذه الموالاة للهِ، والبراءةَ مِنْ كلِّ معبودٍ سواه، كلمةً باقيةً في عقبه، يتوارثها الأنبياءُ بعضُهم عن بعضٍ، وهي كلمةُ (لا إله إلا الله)، وهي التي ورّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة.

وقد كان من نتيجة هذه المعاداةِ وهذا البراء القويّ أَنْ أجمعَ الطغاةُ على قتل إبراهيم .كما هو حال كل طاغية على مر عصور التاريخ في إبادة الدعاة إلى الله لا لشيء إلا لأنهم يدعونهم إلى عبادة الله وحده . وجمعوا له ناراً عظيمة، فكانت رعايةُ اللهِ وحفظُهُ تحوطان خليله الصادق عليه الصلاة والسلام، فصارت النارُ برداً وسلاماً عليه، قال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ *فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ * فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ *﴾ [الصافات: 97 . 98] لقد عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا

---

[1] الولاء والبراء في الإسلام ، ص: (146 ، 147).

وغُلِبوا، ولم تبقَ لهم حجةٌ ولا شبهةٌ إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، فكادهم الربُّ جلّ جلاله، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ *قُلْنَا يانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ *وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ *﴾ [الأنبياء: 68-70].

وجاءت التوجيهاتُ الربانيّة لخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم باتباع ملّة إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [النحل :123] .

وقال تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [آل عمران: 95] .

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [البقرة :135] .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [آل عمران: 68] .

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً *﴾ [النساء :125] .

وقال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج :78] .

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 130] .

فهذه الأخبار مِنَ اللهِ لأمّة محمد صلى الله عليه وسلم عَنْ فعلِ إبراهيم عليه السلام من أجلِ الاقتداءِ به في الإخلاص والتوكل على الله وحده، وعبادةِ الله وحدَه، والبراءِ من الشركِ وأهلهِ، ومعاداةِ الباطلِ وحزبه[1].

والأمثلةُ على أنّ مِنْ لوازمِ (لا إله إلا الله) الولاءَ والبراءَ كثيرةٌ، كقصة نوح عليه السلام مع زوجه، وغيرها من القصص[2].

لقد جمعت (لا إله إلا الله) صُهيباً الرومي، وبلالاً الحبشي، وسلمانَ الفارسي، وأبا بكر العربي القرشي، وتوارت عصبيةُ القبيلةِ والجنسِ والأرض، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوها فإنّها منتنةٌ»[3]، وقال: «ليسَ مِنّا مَنْ دعا إلى عصبيةٍ، وليسَ منّا مَنْ قاتلَ على عصبيةٍ، وليس مِنّا مَنْ ماتَ على عصبيةٍ»[4].

وتبقى سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وسيرة صحابته الأخيار رضوان الله عليهم منارَ هدًى وإصلاحٍ لمن سلكَ ذلك السبيل، ورضي بذلك النهجِ القويم[5].

---

[1] الولاء والبراء في الإسلام ، ص: (148 ، 149).

[2] المصدر السابق ، ص: (150).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: تفسير القران ، باب: قوله: {} [المنافقون: 6] {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *} ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: البر والصلة والاداب ، باب: نصرُ الأخِ ظالماً أو مظلوماً (2584).

[4] أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب: الأدب ، باب: في العصبية (5121). قال السندي: قال أبو داود: في رواية ابن العبد: هذا مرسل ، عبد الله بن أبي سليمان لم يسمع من جبير. هذا اخر كلامه. وفي إسناده: محمد بن عبد الرحمن المكي ، وقيل فيه: العكي. قال أبو حاتم الرازي: هو مجهول ، وقد أخرج مسلم في صحيحه ، والنسائي في سننه من حديث أبي هريرة بمعناه أتم منه ، ومن حديث جندب بن عبد الله البجلي مختصراً. عون المعبود (19/14).

[5] الولاء والبراء في الإسلام ، ص: (158).

ثامناً ـ آثار الإقرار بـ (لا إله إلا الله):

إنَّ لكلمة (لا إله إلا الله) آثاراً عظيمةً في حياةِ المؤمنِ، منها:

1 ـ أنَّ المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيّقَ النظر، بخلاف من يقول بالهةٍ متعددةٍ، أو من يجحدُها.

2 ـ أن الإيمان بهذه الكلمة ينشئ في النفس من الأَنفة وعزّة النفس ما لا يقوم دونه شيءٌ، لأنّه لا نافعَ إلا الله، ولا ضارَّ إلا الله، وهو المحيي المميت، وهو الحكيم القوي، مالك الملك، ومِنْ ثَمَّ يُنْزَعُ من القلبِ كلُّ خوفٍ إلا منه سبحانه، فلا يطأطِئ الرأسَ أمامَ أحدٍ من الخلق، ولا يتضرّعُ إلا إليه، ولا يتكفّف إلا له، ولا يرهب إلاّ من كبريائه وعظمته، لأن لله وحده الكبرياء والعظمة والقدرة، وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد.

3 ـ ينشأ من هذه الكلمة، تواضعٌ من غير ذلٍّ، وترفُّعٍ من غير كِبْرٍ.

4 ـ المؤمن بهذه الكلمة، يعلم علم اليقين أنَّه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح.

أما المشركون والكفار، فإنَّهم يقضون حياتهم في أماني كاذبة:

فمنهم من يقول: إنَّ ابنَ الله قُتِلَ وصُلِبَ كفارةً لذنوبنا عند أبيه.

ومنهم من يقول: نحن أبناءُ اللهِ وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا.

ومنهم من يقول: إنّا سنتشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا.

ومنهم من يقدّمُ النذورَ والقرابينَ إلى الهته، زاعماً أنّه قد نالَ بذلك رخصةً في العمل بما يشاء.

أما الملحدُ الذي لا يؤمِنُ بالله، فيعتقِدُ أنّه حرٌّ في هذه الدنيا، غيرُ مقيَّدٍ بشرعِ اللهِ، وإنّما إلهه هواه وشهوته، وهو عبدهما.

5 . قائل هذه الكلمة لا يتسرب إليه اليأس، ولا يقعد به القنوط، لأنَّه يؤمِنُ أنَّ الله له خزائنُ السماوات والأرض، ومِنْ ثَمَّ فهو على طمأنينةٍ وسكينةٍ وأملٍ، حتى لو طُرِدَ وأهينَ، وضاقت عليه سُبُل العيش.

6 . الإيمان بهذه الكلمة يربي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والإقدام، والصبر والثبات والتوكل، حينما يضطلع بمعالي الأمور ابتغاءَ مرضاة الله، إنَّه يشعر أنَّ وراءه قوة مالك السماء والأرض، فيكونُ ثباتُهُ ورسوخهُ وصلابتُه التي يستمدّها من هذا التصور، كالجبال الراسية، وأنّى للشرك والكفر بمثل هذه القوة والثبات؟

7 . هذه الكلمة تشجِّعُ الإنسان، وتملأ قلبه جرأةً، لأن الذي يجبِّنُ الإنسانَ ويوهّنُ عزمه شيئان:

1 . حبه للنفس والمال والأهل.

2 . واعتقاده أنَّ أحداً غيرَ الله يميتُ الإنسان.

فإيمانُ المرءِ بـ (لا إله إلا الله) ينزعُ عن قلبه الأولَ (وهو حبّه للنفس والمال والأهل)، فيجعله موقناً أنَّ الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله، فعندئذٍ يضحّي في سبيل مرضاة ربه بكلِّ غالٍ ونفيسٍ عنده. وينزع الثاني (وهو اعتقادُه أنَّ أحداً غير الله يميت الإنسان) بأن يلقِي في روعِهِ أنّه لا يقدِرُ على سلبِ الحياة منه إنسانٌ ولا حيوانٌ ولا غيرُه إلا إذا جاء أجله، منْ أجلِ ذلك لا يكونُ في الدنيا أشجعُ ولا أجرأُ ممّنْ يؤمِنُ بالله تعالى، فلا يكادُ يخيفه أو يثبتُ في وجهه زحَفُ الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطرُ الرصاص، ولا وابلُ القنابل.

8 ـ الإيمان بـ (لا إله إلا الله) يرفع قدر الإنسان، وينشِئُ فيه الترفُّعَ والقناعةَ والاستغناء، ويطهِّرُ قلبَه من أوساخ الطمع، والشره، والحسد، والدناءة، واللؤم، وغيرها من الصفات القبيحة.

9 ـ والإيمان بـ (لا إله إلا الله) يجعل الإنسان متقيداً بشرع الله، ومحافظاً عليه، فإنَّ المؤمنَ يعتقِدُ بيقينٍ أنَّ الله خبيرٌ بكلِّ شيءٍ، وهو أقربُ إليه مِنْ حبلِ الوريد، وأنَّه إنْ كان يستطيعُ أن يفلتَ مِنْ بطشٍ أيِّ كانَ، فإنَّه لا يستطيعُ أن يفلتَ مِنْ اللهِ عزّ وجلّ، وعلى قَدْرِ ما يكونُ هذا الإيمانُ راسخاً في ذهن الإنسان يكونُ متّبعاً لأحكام الله، قائماً عند حدودِه، لا يجرؤ على اقترافِ ما حَرَّمَ الله، ويسارِعُ إلى الخيراتِ والعملِ بما أمر الله.

لذا فالعبدُ الذي ملأ اللهُ قلبه إيماناً بـ (لا إله إلا الله) هو في الحقيقة عبدٌ مطيعٌ منقادٌ لربه سبحانه وتعالى، وهذا هو أصلُ الإسلام، وهو مصدرُ قوته، وكلُّ ما عداه من معتقداتِ الإسلامِ وأحكامِه إنّما هي مبنيّةٌ عليه، ولا تستمدّ قوتها إلا منه، والإسلامُ لا يبقى منه شيءٌ لو زال هذا الأساس[1].

* * *

[1] مبادأى الإسلام للمودودي ، ص: (87).

المبحث الثاني

إثبات وجود الخالق جل جلاله

أولاً . دليل الخلق

ثانياً . دليل الفطرة والعهد.

ثالثاً . دليل الافاق.

رابعاً . دليل الأنفس

خامساً . دليل الهداية.

سادساً . دليل انتظام الكون وعدم فساده.

سابعاً . دليل التقدير

ثامناً . دليل التسوية

المبحث الثاني : إثبات وجود الخالق

رغم أنّه لا توجَدُ في القرآن الكريم مناقشةٌ صريحةٌ لمنكري الخالق إلاّ أنَّ الإيمانَ بوجودِ خالقٍ لهذا الكونِ قضيةٌ ضروريةٌ لا مساغَ للعقلِ في إنكارِها، فهي ليستْ قضيةً نظريةً تحتاجُ إلى دليلٍ وبُرهانٍ، ذلك لأنَّ دلالةَ الأثرِ على المؤثّرِ يدرِكُها العقلُ بداهةً، والعقلُ لا يمكنُ أن يتصوّر أثراً من غيرِ مؤثّرٍ، أيَّ أثرٍ، ولو كانَ أثراً تافهاً، فكيف بهذا الكون العظيم؟!.

ولذلك لم يناقشِ القرآن الكريم هذه القضية حتى حينما أوردَ إنكارَ فرعونَ لربِّ العالمين، يوم أن قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ *﴾ [الشعراء :23] ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص :38] ﴿يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [القصص :36. 37] فكان موسى عليه السلام لا يعيرُ اهتماماً لهذه الإنكارات، وتعاملَ مع فرعونَ على أساسِ أنَّه مؤمنٌ بوجودِ الخالقِ، فتراه يقولُ له مثلاً: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاَءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّك يافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا *﴾ [الإسراء :102] .

وقد عزا القرآن الكريم هذا الإنكارَ والتكبُّرَ والعِنادَ، فقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآياتنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ *إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ *فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ *﴾ [المؤمنون :45. 47] .

وأوضحَ ذلك أكثرفقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:14]

.

إنّ البيئةَ التي أُنزل فيها القرآن الكريمُ كانت وثنيةً في الغالب، وكتابيةً في بعض القرى، أو بعض الأشخاص، والكتابيون لا ينكرون الخالق، وأمّا الوثنيون فمع عبادتهم للأوثان إلاّ أنّهم كانوا يؤمنون بالخالق سبحانه، وسجّل القرآن هذا لهم في أكثر من موضع[1]، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: 25] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: 32] ولهذا لم يَحْتَج القرآن الكريم أن يفتحَ الموضوع مع هؤلاء الناس.

بل حتّى خارجَ هذه البيئة لم يُعْرَفْ هناك منكِرٌ للخالق، يقول الشهرستاني: أمّا تعطيلُ العالَم عن الصانعِ العليمِ القادرِ الحكيم فلستُ أراها مقالةً لأحدٍ، ولا أعرفُ عليها صاحبَ مقالةٍ، إلا ما نُقِلَ عن شرذمة قليلةٍ من الدهريّةِ، ولستُ أرى صاحبَ هذه المقالة ممّن ينكِرُ الصانع، بل هو معترِفٌ بالصانع، فما عُدَّتْ هذه المسألةُ من النظريات التي قام عليها دليل[2]. ومع خلوِّ القرآن الكريم من مناقشةٍ صريحةٍ لمنكري الخالق، إلا أنّه تضمّن أدلةً كثيرةً لإثبات وجوده، غير أنها جاءت في الغالبِ لإثبات مسائلَ أخرى: كالوحدانية، والنبوة، والبعث[3].

ومن هذه الأدلة التي ذكرت في القرآن الكريم:

أولاً ـ دليل الخلق:

وخلاصةُ هذا الدليل: أنَّ هذا الخلقَ بكلِّ ما فيه شاهدٌ على وجودِ خالقه العليِّ القدير سبحانه، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ *أَمْ خَلَقُوا

---

[1] المحكم في العقيدة ، د. محمد الكبيسي ، ص: (65 ـ 66).
[2] نهاية الإقدام للشهرستاني ، ص: (123 ـ 124).
[3] المحكم في العقيدة ، ص: (66).

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لاَ يُوقِنُونَ *﴾ [الطور :35 . 36] يقول لهم: أنتم موجودون، هذه حقيقةٌ لا تنكرونها، وكذلك السماواتُ والأرضُ موجودتان، وقد تقرّر في بداهةِ العقول أنَّ الموجودَ لا بدَّ من سببٍ لوجودِهِ.

وهذا يدركُه راعي الإبل، فيقول: البعرةُ تدلُّ على البعيرِ، والأثرُ يدلُّ على المسير، فسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، وأرضٌ ذاتُ فِجاجٍ، أفلا يدلُّ ذلك على العليمِ الخبيرِ.

ويدركه كبارُ العلماء الباحثين في الحياة والأحياء، يقول أحدهم: إنَّ الله الأزلي الكبير، العالم بكل شيء، والمقتدر على كل شيء، قد تجلّى لي ببدائع صنعه، حتى صرتُ دَهشاً متحيراً، فأيُّ قدرةٍ، وأيُّ حكمةٍ، وأيُّ إبداعٍ أودعه مصنوعاتِ يده صغيرِها وكبيرِها[1]؟!.

وهذا الذي أشارتْ إليه الآية هو الذي يُعْرَفُ عندَ العلماء باسم: قانون السببية، هذا القانونُ يقول: إنَّ شيئاً من «الممكنات» لا يحدُثُ بنفسِه من غيرِ شيءٍ، لأنّه لا يحمِلُ في طبيعته السببَ الكافي لوجودِه، ولا يستقلُّ بإحداثِ شيءٍ، لأنَّه لا يستطيعُ أن يمنحَ غيرَه شيئاً لا يملكه هو[2].

وبهذا الدليل كان علماءُ الإسلام ولا يزالون يواجِهون الجاحدين.

فهذا الإمام أبو حنيفة رحمه الله يعرِضُ له بعضُ الزنادقة المنكرين للخالق، فيقول لهم: ما تقولون في رجلٍ يقولُ لكم: رأيتُ سفينةً مشحونةً بالأحمالِ، مملوءةً من الأنفال، قد احتوشتها في لُجَّةِ البحرِ أمواجٌ متلاطمة، ورياحٌ مختلفة، وهي مِنْ بينها تجري مستويةً، ليس لها ملاّحٌ يجريها، ولا متعهِّدٌ يدفعُها، هل يجوزُ ذلك في العقل؟.

---

[1] مع الله ، للشيخ حسن أيوب ص: (76).

[2] العقيدة في الله ، د. عمر الأشقر ص: (69).

قالوا: هذا شيءٌ لا يقبلُه العقلُ.

فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله! إذا لم يجزْ في العقلِ سفينةٌ تجري في البحرِ مستويةً من غيرِ متعهّدٍ ولا مُجْرٍ، فكيف يجوزُ قيامُ هذه الدنيا على اختلافِ أحوالها، وتغيُّرِ أعمالها، وسَعَةِ أطرافها، وتباين أكنافها، من غير صانعٍ ولا حافظٍ؟!.

فبكوا جميعاً، وقالوا: صدقتَ وتابوا[1].

هذا القانون الذي سلّمت به العقول، وانقادت له، هو الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ *﴾ وهو دليلٌ يرغمُ العقلاءَ على التسليم بأنَّ هناك خالقاً معبوداً، إلاّ أنَّ الآية صاغته صياغةً بليغةً مؤثّرةً، فلا تكادُ الآية تمسُّ السمعَ حتى تزلزلَ النفسَ وتهزَّها[2].

قال أبو العتاهية (من المتقارب):

فواعجبــاً كيــفَ يُعْصَــى الإلـــ ـــهُ أَمْ كيــفَ يَجْحَــدُهُ الجَاحِــدُ
وفي كــلِّ شـــيءٍ لَـــهُ ايـــةٌ تـــدلُّ علـــى أنَّـــهُ وَاحِـــدُ

لقد تناولَ القرآن الكريمُ قضيةَ الخَلْقِ والتدبير تناولاً فريداً، وعُني بتوجيه العقولِ إلى النظرِ في افاقِ الكونِ وآيات اللهِ الكثيرة، وأهابَ بالعقلِ أنْ يستيقظَ من سُباته، ليتفكَّرَ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ، وما أودعَ فيها من الآيات.

ويكرّرُ القرآن الكريم ذلك في أساليب متنوّعة، ليرى هذا الإنسانُ ويسمعَ في افاقِ الكونِ ما يقودُهُ إلى الإيمانِ بخالقه سبحانه وتعالى، ويعلمَ أنَّ هذا الكونَ هو مِنْ صُنعِ اللهِ الخالق المدبر، المستحقّ للعبادة وحدَه لا شريكَ له[3].

---

[1] مع الله ، حسن أيوب ص: (68) ، العقيدة في الله ص: (70).

[2] العقيدة في الله ، للأشقر ص: (71).

[3] حماية الرسول صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد للغامدي ص: (216).

ثانياً . دليل الفطرة والعهد:

إنّ معرفةَ الخالق، والإقرارَ بوجودِه تبارك وتعالى وربوبيته أمرٌ بدهي مغروسٌ في نفوس الناس وفطرهم، إذ لو تُرِكَ الإنسانُ في مكانٍ خالٍ لا يوجدُ فيه أحدٌ، بعيداً عن كل المؤثّرات الخارجية، وعن كلِّ الشوائب العقدية، لاستطاعَ بفطرته أن يعرفَ أنَّ لهذا الكونِ خالقاً مدبّراً ومتصرّفاً، ثم بفطرته يتوجَّه لمحبةِ خالقِهِ.

ومن هنا نعلمُ أنَّ مَنْ أنكرَ وجودَ الخالقَ جلَّ جلاله من الملحدين، إنّما أُتوا من انحرافِ فطرهم، ومن تأثيرِ الشياطين عليهم، وتلاعبهم بهم.

ودليلُ الفطرة هذا دلَّ عليه القرآن الكريمُ والسنةُ النبويّةُ المطهرة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾ [الروم: 30] . فالمقصود بالفطرة هنا الإسلام، فالله جل جلاله فطر الناسَ على دين الإسلامِ والتوحيد[1].قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما مِنْ مولودٍ إلا يولدُ على الفِطْرَةِ، فأبواه يهوّدانِهِ، أو ينصّرانِهِ أو يمجّسانِهِ، كما تُنْتِجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تحسّون فيها مِنْ جَدْعاء»[2]؟، وفي الحديث القدسي: «يقول تبارك وتعالى: إِنّي خَلَقْتُ عبادِي حنفاء كلَّهم، وإنَّهم أتتهم الشياطينُ فاجْتالَتْهُم عن دينهم»[3]. ومعنى (حنفاء) أي: مائلينَ عن الأديانِ كلِّهم

---

(1) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (368/1).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجنائز ، باب: إذا أسلم الصبيُّ فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (1292) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: القدر ، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (2658). [60]. أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (2865).

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (2865).

إلى دين الإسلام[1]. ومعنى (اجتالتهم) استخفتهم، فجالوا معهم في الضلال[2].

ومن أجل أهميّةِ الفطرةِ في دلالةِ الناسِ على ربّهم، وتعريفهم به، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصبحَ أو أمسى يقرِّرُ أنه يُصْبِحُ ويُمْسِي على هذه الفطرةِ فطرةِ الإسلامِ، وأنّها لم تتأثَّرْ بالمؤثِّرات والعوارض الخارجية، من نزعات الشياطينِ ووساوسهم، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنّه كان يقولُ إذا أصبحَ وإذا أمسى: «أصبحنا (أو أمسينا) على فطرةِ الإسلامِ، وعلى كلمةِ الإخلاصِ، وعلى دينِ نبيّنا محمّدٍ صلى الله عليه وسلم، وعلى ملّةِ أبينا إبراهيم، حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[3]. فقد أكّد على سلامة الفطرة من الانحراف بقوله: «وعلى كلمَةِ الإخلاص» وهي شهادة أن لا إله إلا الله. وبقوله: «وعلى دينِ نبيّنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم» وهو الدين الإسلامي، وبقوله: «وعلى مِلّةِ أبينا إبراهيمَ حنيفاً مسلماً» أي مائلاً عن كلِّ ما يخالِفُ هذه الفطرة من الأديان والعقائد الفاسدة، التي تنكِرُ الربَّ سبحانه وتعالى، أو تزعمُ أنَّ معه شريكاً في مُلْكِهِ أو عبوديتِهِ إلى الإسلام الخالص، فإذا حقَّقَ توحيدَ الألوهية (توحيد العبادة) كان توحيدُ الربوبية محقّقاً، لأنَّ توحيدَ الألوهية (توحيد العبادة) يتضمَّنُ توحيدَ الربوبية، وبذلك تكونُ الفطرةُ قد دلّت على توحيدِ الربوبية[4].

---

[1] تفسير القرطبي (144/20).

[2] النهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير (جول).

[3] أخرجه أحمد في مسنده (406/3 ، 407) مسند المكيين ، حديث عبد الرحمن بن أبزي الخزاعي. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (116/10): رواه أحمد والطبراني ، ورجالهما رجال الصحيح.

[4] المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (370/1).

وهذه الفطرةُ التي فطرَ الله عليها عبادَه لها صلةٌ وارتباطٌ وثيقُ بالعهدِ الذي أخذه سبحانه وتعالى على بني آدم، وهم في عالم الذَّرِّ، كما أشار الله بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدم مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ *أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ *﴾ [الاعراف :172 ـ 173].

فهذا العهدُ والميثاقُ الذي أخذه الله جل جلاله على الناس، مضمونُه الاعترافُ والإقرارُ بربوبيته، وأشهدَهم على أنفسِهم فشهدوا.

فمنَ الناس مَنْ حافظ على ذلك العهد، وقام بمقتضاه ولازِمه، من عبادة ربه وحده لا شريك له، وتوحيده. وصَدّقَ رسلَ اللهِ، وآمن بهم، وبما جاؤوا به.

ومن الناس من تغيَّرتْ فطرتُه وانحرفت، واجتالته الشياطين ـ والعياذ بالله ـ فنسيَ ما شهدَ عليه، وما جُبِلَ عليه، من الإقرار بربوبية الله عز وجل، فوقع في الكفر والإلحاد، مع أنَّ الله سبحانه لم يتركْ عبادَه سدًى، بل أرسل لهم الرسلَ، وأنزل معهم الكتبَ، ليذكّروا الناس بهذا الإشهاد. وهذا العهد والميثاق.

ولكي يبقى المسلمُ متذكِّراً هذا العهد الذي أخذه الله عليه في عالم الذَّرِ، فقد علّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ذِكْراً يقولونه في الصباحِ والمساءِ، ففي الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال: «سيّدُ الاستغفارِ أنْ يقولَ العبدُ: اللهمَّ أنتَ ربي لا إلهَ إلاَّ أنتَ، خلقتَني وأنا عبدُكَ، وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ، أعوذُ بكَ مِنْ شَرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمتِكَ عليَّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي، إنَّه لا يغفرُ

الذنوبَ إلا أنتَ»[1]. فقوله: «وأنا على عهدِكَ»: أي ما عاهدتُكَ عليه من الإيمان بِكَ، والإقرارِ بوحدانيّتِكَ، لا أزولُ عنه[2]، قال ابن حجر: وقال ابن بطال: قوله: «وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ» يريدُ العهدَ الذي أخذَه الله على عبادِه حيثُ أخرجَهم أمثالَ الذَّرِّ، وأشهدهم على أنفسِهم: ألستُ بربِّكُم؟ فأقرّوا له بالربوبية، وأذعنوا له بالوحدانية، و(بالوعدِ) ما قاله على لسان نبيه[3]، فهذا الذكرُ العظيمُ مَنْ داومَ عليه يومياً ولازمَه؛ حفِظَ نفسه ـ بإذن الله ـ من انحرافِ فطرتِهِ، وتغيّرها، ووفّى بعهدِهِ الذي بينه وبين ربه[4].

ثالثاً ـ دليل الآفاق:

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *﴾ [فصلت: 53] .

فقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتنَا فِي الآفَاقِ﴾ أي: علامات وحدانيتنا وقدرتنا[5]، وقوله (في الآفاق) يعني أقطار السماوات والأرض: من الشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، والرياح، والأمطار، والرعد، والبرق، والصواعق، والنبات[6]، وغير ذلك مما فيها من عجائب خلق الله.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الدعوات ، باب: أفضل الاستغفار (5947).
[2] نتائج الأفكار في شرح حديث الاستغفار للسفاريني ص: (240).
[3] فتح الباري (99/11).
[4] المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (373/1).
[5] تفسير القرطبي (374/15).
[6] تفسير القرطبي (374/15).

وفي حديثِ العلماء عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ما يدلُّ على آيات الله في الافاق، والتي منها:

1 . نقص الأوكسجين في الارتفاعات:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ *﴾ [الانعام: 125] تنصُّ هذه الآية الكريمة على الإنسان عندما يصّعّد في السماء . أي يرتفع في أعالي الجو . يضيقُ صدرُهُ، ويشعر بالاختناق، وهذه حقيقةٌ علميةٌ سببها أنَّ نسبة الأوكسجين تقلُّ كلَّما ارتفعنا إلى أعلى، كما يقلُّ الضغطُ الجويُّ، وهذان السببان يجعلانِ الإنسانَ يشعر بضيق النفس.

2 . حركة النجوم والكواكب في مداراتها:

كان الناسُ يرونَ أنَّ الأرضَ مركزُ الكون، ويدور حولها الشمسُ والقمرُ والنجومُ السيّارة، ويرونَ نجوماً ثابتة طوال السنة، فيصفونها بالثبات، ثم حدث في عصر (غاليلو) رأيٌ يعتبِرُ أنَّ الأرض هي التي تدورُ حولَ الشمس، وأنَّ الشمسَ هي مركزُ الكونِ.

أمّا القرآن الكريمُ فقد رفضَ قبلَ ذلك جميعَ الاراءِ التي تزعمُ أنَّ للكونِ مركزاً ثابتاً، قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ *﴾ [يس: 40] وكانَ ذلكَ في عصره سَبْقٌ علميٌّ[1]. وقال تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ *وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ *﴾ [الواقعة: 75 . 76] .

---

[1] البراهين العلمية ، عبد المجيد العرجاوي ص: (105).

فقد وجدَ العلماءُ أنَّ مواقعَ النجومِ ومساراتها ليست اعتباطيةً، فالكوكبُ وُضعَ في مسارٍ بحيثُ لا تؤدّي قوى التجاذبِ الكونيّةِ الكثيرةِ والقوى النابذةِ الناشئةِ عن الدوران إلى اضطرابٍ كوني، ولقد اختِيْرَ له المسارُ الذي يحقّق له التوازنَ بين تلك القوى الكثيرة.

ووجد العلماء أيضاً أنَّ أبعادَ المجموعة الشمسية تتبعُ سلسلةً حسابيةً، وأنّى للعربيّ الجاهلي الذي كان يرى النجومَ مبعثرةً في صفحةِ السماءِ أن يعرفَ من تِلقاءِ نفسه أنَّ لمواقعِها شأنٌ عظيمٌ[1].

3 . دوران الأرض والجبال:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل :88] لقدكان الناس قديماً يرون أنّ الأرضَ وجبالَها ثابتةٌ، بل يضربون المثلَ بثباتها، فجاء القرآن الكريم ليخالفَ ما ألفه الناسُ، واستقرّ في أذهانهم، وتحدَّث عن ظاهرةٍ كونية، فقال عن الجبال: إنّها تمرُّ مرَّ السحاب، أي إنَّ الجبال كالسحاب، فكما أنَّ السحابَ لا يتحرّكُ ذاتياً إلا إذا كان هناك شيءٌ يدفعه إلى التحرك، والذي يحرِّكُ السحابَ ويدفعُه هي الرياح، فكذلك الجبالُ لا تتحرَّكُ بنفسِها، لأنها أوتادُ الأرضِ، ولكن تتحرك، وحركتُها تابعةٌ لحركة الأرض، فالأرضُ تتحرّكُ وتدورُ، وإلا فكيفَ تتحرَّكُ الجبالُ، وتمرُّ مرَّ السحاب، وهذا من صنع الله الذي أتقن كل شيء، حينئذٍ يكون هناك يقينٌ ثابتٌ[2]

---

[1] البراهين العلمية ، عبد المجيد العرجاوي ص: (106).

[2] تأملات في العلم والإيمان ص: (178).

4 . حاجز بين بحرين مالحين:

قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَان بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَان فَبِأَيِّ آلاَء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ *﴾ [الرحمن: 19 . 22]. تتحدّثُ الآيات الكريمةُ عن بحرين يتلاقيان، وفي مكان تلاقيهما يوجدُ حاجزٌ، والظاهر أنها تتحدّث عن بحرين حقيقيين مالحين، وليس عن بحرٍ ونهرٍ، لأنّه قال: والمرجان ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ *﴾ وهو الخرز الأحمر . لا يخرجُ إلا من المياه المالحة، فالآية الكريمةُ إذاً تتحدَّثُ عن حاجزٍ حقيقي بين بحرين مالحين في مكان تلاقيهما، والبحرانِ يتلاقيانِ في المضايق، لأنه، إن لم يكن هناك مضيقٌ، فليس من مسوّغٍ لاعتبارهما بحرين، بل يكونان بحراً واحداً، إنَّ هذا الذي أثبتته الآية الكريمةُ مستغربٌ جداً في عرف الناس، إذ الانطباع السائد أنَّ المياه المتلاقية لا حواجز بينها، وما كان أحد يعرف هذه الحقيقة، ولا تخطرُ له على بالٍ، إلى أن اكتُشِفَتْ عام 1962 م، وثبت أنّ ما قاله القرآن الكريم حقيقةٌ مدهشَةٌ[1].

5 . اهتزاز الأرض وزيادتها بالمطر:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ *﴾ [الحج: 5] إن العلمَ يؤكّد أنَّ الأرضَ تهتزُّ فعلاً بنزول الغيثِ عليها، فالحبوبُ والبُصَيلاتُ والدّرناتُ والحُوَيصلاتُ والبكترية والجراثيمُ كلُّها تبدأُ بالحركة والانقسامات الخلوية، وامتصاص الماء، وتحليل الغذاء المعقّد إلى وحدات أقل ارتباطاً، وأكثر عدداً، وأكبر حجماً، وبامتلاء مسامّ الأرضِ بالماء تتحرّك جُزيئات الطينِ، وتبدأُ عمليةُ تأيُّنٍ عجيبةٍ في جُزَيئات التربةِ، وتنشطُ الديدانُ الأرضيّةُ في شَقِّ الأنفاقِ

---

[1] البراهين العلمية ، عبد المجيد العرجاوي ص: (111).

الأرضيةِ، وابتلاع كمياتٍ كبيرةٍ من التربة المتلاصقة، وإخراجها بعدَ ذلك مفككةً، كلُّ هذه النشاطات تؤدي إلى زيادةِ حجم التربة، ويمكنُنا رؤية صورةٍ مصغّرةٍ لهذه العمليات بتخمير العجين، وزيادة حجمه، نتيجة نشاط خلايا الخمائر، وفي التربة تحدثُ ضروبٌ كثيرةٌ لمثل هذا النشاط، مِنْ كلّ ما سبق نجدُ التوافقَ بين ما عرفه العلم وما وصفه القرآن الكريم[1].

6 . أوهن البيوت:

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *﴾ [العنكبوت: 41] إنَّ قوله سبحانه: وقوله بعد ذلك: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ *﴾ [العنكبوت: 43] يشيرانِ إلى أنَّ وَهْنَ بيت العنكبوتِ المتحدَّث عنه وَهْنٌ غيرُ ظاهرٍ ولا معروف لدى عامة الناس، وقد ضُرِبَ هذا الوهنُ مثلاً لموالاة الكافرين بعضهم لبعض، فماذا وجد العلماءُ عند دراسة العنكبوت؟ وجدوا أنَّ الروابطَ بين أفراد العنكبوت في غاية التفكّك، فالأُنثى كثيراً ما تأكل الذكرَ بعد الإلقاح، وقد تأكلُ أبناءها، والأبناءُ يأكُل بعضُهم بعضاً، فهو بيتٌ متفكّكٌ متداعٍ، وذلك مثلُ موالاةِ الكافرين بعضهم بعضاً[2].

---

[1] المصدر نفسه ص: (127).

[2] البراهين العلمية ، عبد المجيد العرجاوي ص: (128). والأمثلة في البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية كثيرة ، ذكرت في كتب بحثت هذا الموضوع منها. «رحلة الإيمان في جسم الإنسان» د.«حامد أحمد حامد» ، و«وحدانية الله تتجلى في وحدة خلقه» للأستاذ عمر أحمد الهواري وغير ذلك كثير لمن أراد التوسع.

رابعاً . دليل الأنفس:

قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ *﴾ [الذاريات: 21] ولما كان أقربُ الأشياء إلى الإنسان نفسَه، دعاه خالقُه وبارئُه ومصوِّرُه وفاطِرُه مِنْ قطرةِ ماءٍ إلى التبصُّرِ والتفكُّرِ في نفسِه، فإذا تفكّرَ الإنسانُ في نفسِه، استنارت له آيات الربوبيّةِ، وسطعتْ له أنوارُ اليقينِ، واضمحلّتْ عنه غمراتُ الشكِّ والريب، وانقشعتْ عنه ظلماتُ الجهلِ، فإنّه إذا نظر في نفسِهِ وجدَ اثارَ التدبيرِ فيه قائماتٍ، وأدلّةَ التوحيدِ على ربِّه ناطقاتٍ، شاهدةً لمدبّره، دالةً عليه، مرشدةً إليه[1].

وإليك بعضُ البراهين العلمية المتعلّقة بالإنسان وخلقه:

1 . الإحساس والجلد:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: 56] وهذه حقيقةٌ كونيةٌ، وهي أنَّ موطنَ الإحساس والألم في الإنسان هو الجلدُ، فالكافرون يعذَّبون عن طريق تبديل الجلد أو تغييره، وذلك ليذوقوا العذابَ، فالإذاقةُ حسب القرآن الكريم محلُّها الجلدُ، وقد بيّنَ التشريح المجهري للجلدِ أنّه عضوٌ غنيٌّ بالأليافِ العصبيّةِ، التي تقوم باستقبالِ ونقلِ جميعِ أنواعِ الحسِّ من المحيط الخارجي، وذلك عن طريق طبقاتٍ الجلدِ (البشرة، الآدمة، النسيج تحت الآدمة) وهي تنقلُ حِسَّ الألم، والحرارةَ والبرودةَ، والضغطَ، وحِسَّ اللمس، فالقرآن ينبّهنا إلى هذه الحقيقة، ويقول: إن الله سبحانه كلّما أرادَ أن يذيقَ الكفارَ مزيداً من العذاب بدّلَ جلودَهم التي احترقت وماتت فيها الأليافُ العصبيّةُ بجلودٍ سليمة لم تحترقْ، ليذوقوا العذابَ مرّةً أُخرى، وعندما يأتي التشريحُ

---

[1] التبيان في أقسام القران لابن القيم (190/1).

المجهري، ليقول: إنَّ الألياف العصبيَّة تكمنُ في الجلدِ نقول: إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهذه الحقيقة في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً[1].

2 . البصمات وتحديدها لهوية الإنسان:

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ *﴾ [القيامة: 3 . 4] لقد توصَّل العلمُ إلى سرِّ البصمةِ في القرن التاسع عشر، وبيّنَ أنَّ البصمةَ تتكوَّن من خطوطٍ بارزةٍ في بَشْرَةِ الجلدِ، تجاورها منخفضاتٌ، وتعلو الخطوطَ البارزةَ فتحاتُ المسامِّ العرقية، تتمادى هذه الخطوطُ وتتلوّى، وتتفرّعُ عنها تَغَضُّناتٍ وفروع، لتأخذَ في النهاية وفي كلِّ شخص شكلاً مميّزاً، وقد ثبتَ أنّه لا يمكِنُ للبصمة أن تتطابقَ وتتماثَل في شخصين في العالم، حتّى في التوائمِ المتماثلةِ التي أصلُها مِنْ بويضةٍ واحدةٍ، يتمُّ تكوّن البنان في الجنين في الشهر الرابع، وتظلُّ ثابتةً ومميّزةً له طوالَ حياته، ويمكن أن تتقاربَ بصمتان في الشكل تقارباً شديداً، ولكنّهما لا تتطابقان البتةَ، ولذلك فإنَّ البصمةَ تعدُّ دليلاً قاطعاً ومميزاً لشخصية الإنسان، معمول بها في كلِّ بلاد العالم، ويعتمَدُ عليها في تحقيق القضايا الجنائية، لكشف المجرمين واللصوص، وقد يكونُ هذا هو السرُّ في أنَّ الله سبحانه وتعالى خَصَّ البنانَ بالذكر، ليبيّنَ للإنسان هذين الأمرين:

1 . السرَّ المختفي في البنان، الذي لم يُعْلَمْ أمرُه إلا في عصر الكشوف العلمية.

2 . القدرةَ الفائقةَ على إعادةِ خلق الإنسان بصورته وخِلقته التي كان عليها[2].

---

[1] تأملات في العلم والإيمان ص: (180).

[2] تأملات في العلم والإيمان.

والدعوة مفتوحةٌ للإنسان إلى التفكر في أجهزته العضوية، كالجهاز الهضمي، والتنفسي، والدموي، وغيرها في جسمه، وفي التأمل في عالم المشاعر والأحاسيس والأفكار والعقائد.

خامساً . دليل الهداية:

قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى *الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى *وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى *﴾ [الأعلى :1 . 3] وقال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى *﴾ [طه:50]، والمقصودُ بالهداية المرادةِ في هذه الآيات إعطاءُ كلِّ مخلوقٍ من الخلق والتصوير ما يصلحُ به لما خُلِقَ له، وإرشادُه إلى ما يُصْلِحُه في معيشته ومطعمه، ومشربه، ومنكحه، وتقلبه، وتصرفه[1].

ومن أسماء الله الحسنى (الهادي) سبحانه وتعالى، الذي يُبصِّرُ عبادَه ويعرّفهم طريقَ الإيمان به، والإقرارَ بألوهيته، ومعرفة طريق بناء الحياة، ومعرفة نواميسها وسننها، حتى هدى الطيورَ والحيواناتِ والهوّام والوحوش إلى ما فيه مصالحها وعيشها، ومحاذرة ما يضرُّها أو يُعْطِبُها.

وقد جاء اسم (الهادي) في القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا *﴾ [الفرقان :31] وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ [الحج: 54] .

إنّها أولاً: هدايةُ المعارِفِ الفطريةِ الضروريةِ لكلِّ مخلوق ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى *﴾ [طه :50] .

---

[1] مفتاح دار السعادة (109/1) ، شفاء العليل ص: (78) كلاهما لابن قيم الجوزية.

وهي ثانياً: هداية الإرشاد والبيان التي بَعَثَ بها أنبياءه، وأنزل بها كتبه ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة :24] .

وهي ثالثاً: الأخذُ بالقلوب والعقول إلى مواضع رضاه بالتوفيق والإلهام والحفظ، كما وعد سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس :9] ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت :69].

وهو منزل الكتاب، الذي مَنْ تركه ضاعَ في بيداءِ الحياةِ، ومن ابتغى الهُدى في غيره أضلّه الله[1].

وقد نبّه العلماء على كثيرٍ من هداية الله لمخلوقاته، وكتبوا في ذلك كُتباً نافعاً، فتحدّثوا عن هداية الله للنملِ وللهدهدِ والنحلِ وغيرِها من مخلوقات الله الكثيرة، وهذا بابٌ واسعٌ يكفي فيه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ *﴾ [الانعام :38] وهذه الأمم تعبدُ الله وتسبّحه وتحمده، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء :44] وقال أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَآفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور :41] .

وتأمل معي في كل من:

1 . النحل: قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ *ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *﴾ [النحل :68 . 69] فانظر إليها وإلى اجتهادِها في صنع العسل، وبنائها البيوت المسدّسة، التي

---

[1] مع الله ، الاسم الأعظم ص: (280).

هي من أتمّ الأشكالِ، وأحسنِها استدارةً، وأحكمِها صنعاً، وتلك مِنْ أثرِ صنع الله وإلهامه إياها، وإيحائه إليها.

ثم انظر إلى حسنِ الامتثال، اتخذتِ البيوتَ أولاً، فإذا استقرّ لها بيتٌ خرجت منه، فرعت وأكلت من الثمار، ثم اوت إلى بيوتها، لأنَّ ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولاً، ثم بالأكل بعد ذلك، ثم إذا سلكتْ سُبُلَ ربها مذلّلةً، لا يستوعِرُ عليها شيءٌ، ثم ترعى، ثم تعود.

ومن عجيبِ شأنها: أنَّ لها أميراً يسمّى «اليعسوب» لا يتمُّ لها رواحٌ ولا إيابٌ، ولا عملٌ ولا مرعًى إلا به، فهي مؤتمِرةٌ لأمره، سامعةٌ له مطيعةٌ، وله عليها تكليفٌ وأمرٌ ونهيٌ، وهي منقادةٌ لأمره، متبعةٌ لرأيه، يدبّرها كما يدبّرُ الملِكُ أمرَ رعيتهِ، حتى إنّها إذا أوت إلى بيوتها، وقف على بابِ البيتِ، فلا يدعُ واحدةً تزحم الأُخرى، لا تتقدّم عليها في العبور، بل تعبرُ بيوتها واحدةً بعدَ واحدةٍ بغير تزاحمٍ، ولا تصآدم ولا تراكمٍ، كما يفعلُ الأميرُ إذا انتهى بعسكره إلى معبرٍ ضيّقٍ، لا يجوز إلا واحدٌ واحدٌ.

ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها، واجتماعَ شملها، وانتظامَ أمرِها، وتدبيرَ مُلكها، وتفويضَ كلِّ عملٍ إلى واحدٍ منها: يتعجَّب منها كلَّ العجب، ويعلمُ أنّ هذا ليسَ في مقدورِها، ولا هو من ذاتها، فإنَّ هذه أعمالٌ محكمةٌ متقنةٌ في غايةِ الإحكام والإتقان، فمنِ الذي أوحى إليها أمرَها، وجعل ما جعل في طباعها؟! ومن الذي هداها لشأنها؟! ومَنِ الذي أنزلَ لها من الطَّلِّ ما إذا جنتْهُ ردّتْهُ عسلاً صافياً، مختلفاً

ألوانُه، في غايةِ الحلاوة واللذاذة والمنفعة[1]؟! إنه ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: 50] .

2 ـ الهدهد: ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أنْ قال لنبيِّ الله سليمان عليه السلام، وقد فقده وتوعده، فلمّا جاء بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطاباً هيّجه به على الإصغاء إليه، والقبول منه: وفي ضمن هذا: إنّي أتيتُك بأمرٍ قد عرفتُه حقَّ ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾، بحيث أحطتُ به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: 22] .

و(النبأُ) هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه (نبأ يقين) لا شكّ فيه ولا ريب، فهذه مقدّمةٌ بين يدي إخباره لنبيِّ الله سليمان بذلك النبأ، استفرغتْ قلب المخبَر لتلقّي الخبر، وأوجبتْ له التشويقَ التامَّ إلى سماعهِ ومعرفتهِ، وهذا نوعٌ من براعةِ الاستهلالِ، وخطابِ التهييجِ.

ثم كشفَ عن حقيقةِ الخبرِ كشفاً مؤكداً بأدلّةِ التأكيد فقال: ثم أخبر عن شأنِ تلك ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾، وأنها من أجلِّ الملوكِ، بحيث أوتيت من كل شيء يَصْلُحُ أن يُؤتاه الملوك، ثم زادَ في تعظيم شأنها بذكر عرشها التي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم.

ثم أخبرَه بما يدعوه إلى قصدِهم وغزوهم في عُقرِ دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: 24]، وحذفَ أداةَ العطفِ من هذه الجملةِ، وأتى بها مستقلّةً غيرَ معطوفةٍ على ما قبلَها، إيذاناً بأنّها المقصودةُ، وما قبلَها توطئةٌ لها.

---

[1] مفتاح دار السعادة (1/309 ـ 310).

ثم أخبر عن المغوي لهم، الحامل لهم على ذلك، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل :24] المستقيم، وهو السجود لله وحده.

ثم أخبر أنّ ذلك الصدَّ حالَ بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له ﴿فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ *﴾ [النمل :24] ثم ذكرَ مِنْ أفعاله سبحانه إخراجَ الخِبْءِ في السماواتِ والأرض، وهو المخبوءُ فيهما من المطر، والنبات، والمعادن، وأنواع ما ينزل من السماء، وما يخرجُ من الأرض.

وفي ذكر الهدهدِ هذا الشأنَ من أفعال الربِّ تعالى بخصوصهِ إشعارٌ بما خصّه اللهُ به من إخراجِ الماءِ المخبوءِ تحتَ الأرضِ، قال صاحب «الكشاف»: وفي إخراجِ الخِبْءِ إمارةٌ على أنّه من كلامِ الهدهدِ لهندسته، ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النمل :25]، جلّت قدرتُ، ولطفَ علمُه، ولا يكادُ يخفى على ذي الفراسة، الناظرِ بنورِ الله مخايلَ كلِّ شخصٍ بصناعةٍ أو فَنٍّ منَ العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عَمِلَ آدميٌّ عملاً إلا ألقى الله عليه رداءَ عمله[1].

سادساً: دليل انتظام الكون وعدم فساده:

وانتظامُ أمرِ العالم، العلوي والسفلي، وارتباطُ بعضِه ببعضٍ، وجريانُه على نظام مُحْكَمٍ، لا يختلف؛ ولا يفسد: أدلُّ دليلٍ على أنَّ مدبّره واحدٌ لا إله غيره[2].

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ *﴾ [الانبياء :22] لو كان في السماواتِ والأرض آلهةٌ تصلحُ لها العبادةُ سوى الله

(1) العقيدة في الله ص: (116).

(2) الصواعق المرسلة لابن القيم (464/3).

الذي هو خالقُ الأشياءِ، وله العبادةُ والألوهيّةُ التي لا تصلحُ إلا له أي: لفسدَ أهلُ السماواتِ والأرضِ.

وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ *﴾ [المؤمنون: 91] يقول تعالى ذكره: ماللهِ مِنْ ولدٍ، ولا كانَ معه في القديم؛ أو عندَ خلقِهِ الأشياءَ مَنْ تصلحُ عبادتُه، إذاً لاعتزلَ كلُّ إلهٍ منهم بما خلقَ مِنْ شيءٍ، فانفردَ به، ولتغالبوا، ولعلا بعضهم على بعض، وغلبَ القويُّ منهم الضعيفَ، لأنَّ القويَ لا يرضى أن يعلوه الضعيفُ، والضعيفُ لا يصلحُ أن يكون إلهاً، فسبحان اللهِ ما أبلغها مِنْ حُجّةٍ، وما أوجزها لمن عقلَ وتدبّر[1]؟!

وهكذا، فإنَّ دليلَ انتظامِ الكونِ، وعدم فسادِهِ دليلٌ عقلي قويٌ على وحدانيةِ الله، لا تملكُ العقولُ السويّةُ ردَّه، وهي ترى انتظامَ أمرِ السماواتِ والأرض وما فيهنّ، ممّا يدلُّ على وجودِ إلهٍ واحدٍ متفرّدٍ بالخلقِ والتدبيرِ، مما يستوجبُ صرفَ العبادةِ له دونَ سواه[2].

سابعاً ـ دليل التقدير:

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا *﴾ [الفرقان: 2] وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ *﴾ [القمر: 49] وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ *﴾ [الرعد: 8] وظاهرةُ التقديرِ تبدو في كلّ ما خلقَ اللهُ عزّ وجلّ في الأرض والسماءِ والإنسان

---

[1] تفسير الطبري (13/17).
[2] تفسير الطبري (49/18).

والنبات، والحيوان، فقد نظّم اللهُ أجزاءَ هذا الوجودِ على أحسنِ نظامٍ، وأدلِّه على كمالِ قدرةِ خالقِهِ، وكمالِ عملِهِ، وكمال حكمتِهِ، وكمالِ لطفِهِ[1].

ثامناً ـ دليل التسوية:

قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا *رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا *﴾ [النازعات: 27، 28] وقال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 88] وقال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ *﴾ [السجدة: 7] .

والتسوية: إحسانُ الخَلْقِ، وإكمالُ الصنعةِ، بحيث يكونُ المخلوقُ مهيّئاً لأداءِ وظيفته، وبلوغِ كماله، المقدَّر عنه، وجعله مستوياً معتدلاً متناسبَ الأجزاء، بحيث لا يحصلُ تفاوتٌ يخلُّ بالمقصودِ منها[2].

وإذا تأمّلنا مظاهرَ التسوية في الإنسان رأيناها تبدو في كل عضو من أعضائه، فقد أحسنَ اللهُ خلقَه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ *﴾ [التين: 4] منتصبَ القامة، سويَّ الأعضاءَ حسنَها[3]، كما قال سبحانه في موضع آخر ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ *فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ *﴾ [الانفطار: 7-8] وإنَّ الجمالَ والسواءَ والاعتدالَ ليبدو في تكوين الإنسان الجسدي والعقلي والروحي، وكلُّ ذلك يتناسَقُ في كيانه في جمالٍ واستواءٍ، والأجهزةُ العامّةُ لتكوين الإنسان الجسدي، كالجهاز العظمي، والجهاز العضلي، والجهاز الهضمي، والجهاز التنفّسي.. إلى غير ذلك من أجهزة الجسم المتعدّدة كلٌّ منها عجيبةٌ، لا تقاسُ إليها كلُّ العجائب

---

[1] الدلالة العقلية في القران ص: (314).

[2] مفتاح دار السعادة (259/1).

[3] المدخل إلى الثقافة الإسلامية ، أحمد جلي ص: (75).

الصناعية التي يقفُ الإنسانُ مدهوشاً أمامها، وينسى عجائب ذاته، وهي أضخمُ وأعمقُ وأدقُّ بما لا يقاس[1]، وخلقُ الإنسانِ على هذه الصورة السويّة المعتدلة أمرٌ يستحقُّ التدبَر الطويلَ، لأنَّه خلقٌ لا يملك العقل حياله إلا الإقرار بعظمة الله، والشكر له، بأنْ أكرمه بهذه الخِلْقة، وقد كان قادراً أن يركّبه في أيِّ صورةٍ أخرى يشاؤها[2].

* * *

[1] تفسير ابن كثير (396/4).

[2] الدلالة العقلية في القران ص: (294).

المبحث الثالث

توحيد الربوبية

1 . معنى توحيد الربوبية

2 . توحيد الألوهية (توحيد العبادة) من لوازم توحيد الربوبية

3 . السنن العامة

4 . السنن الخاصة

5 . سمات السنن الإلهية.

6 . توحيد الربوبية أعظم برهان على توحيد الألوهية (توحيد العبادة).

المبحث الثالث : توحيد الربوبية

1 . معنى توحيد الربوبية:

معنى توحيدُ الربوبية هو الاعتقادُ الجازِمُ بأنّ اللهَ جلَّ جلاله ربُّ كلِّ شيءٍ ومالكُه وخالقُه، ومدبِّرُ أمرِه ورازقُه، وأنّه وحدَه الذي ينفعُ ويضرُّ، ويحيي ويميت، وأنّه سبحانه وحدَه المتصرِّفُ بهذا الكون، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا مانعَ لما أعطى، ولا معطيَ لما منعَ، بيده الخير، وإليه ترجع الأمور، وهو على كلِّ شيءٍ قدير[1].

2 . توحيد الألوهية من لوازم توحيد الربوبية:

توحيد الربوبية لا يكفي وحده في حصولِ الإسلام، بل لا بدَّ أن يأتيَ العبدُ مع ذلك بلازمه من توحيد العبادة، لأنّ الله تعالى حكى عن المشركين أنّهم مقرّون بتوحيد الربوبية لله وحده، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ *﴾ [الزمر: 38] وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُون قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُون قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُون بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُون مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ *﴾ [المؤمنون: 84 . 92]

---

[1] المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (348/1).

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: 106] وغير ذلك من الآيات في القرآن الكريم، مما يدلُّ على اعتراف الكفّار بخالقهم، وإقرارهم به[1]، وإنّما عبدوا من دون الله ما عبدوا ليجعلوهم وسائط وشفعاء بينهم وبين الله، ومع ذلك يتخلَّون عنهم إذا نزلت بهم الشدائد، ووقت الاضطرار، وهذا الإقرار لم يغنِ عنهم شيئاً، ولم ينتفعوا به، إذ لم يصبحوا به مسلمين، ولم يَعْصِمْ أموالهم، ولا دماؤهم، ولا أعراضهم، لأنَّهم أنكروا توحيد الألوهية (توحيد العبادة)، وأشركوا بربهم، ولم يلتزموا بلازمِ ما أقرّوا به، إذ إنَّ توحيد الربوبية يلزم منه توحيد الألوهية[2]. وهو إفراد اللهِ عزّ وجلّ بجميع أنواع العبادات.

إنَّ المؤمنَ يشعرُ بطمأنينةٍ كبيرةٍ وهو يتأمَّلُ في ملكوتِ الله تبارك وتعالى، فيرى عظمةَ اللهِ في خلقه، وحكمتَه البالغةَ في تدبيره ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: 22] .

والحديثُ عن عظمةِ الله يملأُ القلبَ سكينةً، والتدبّرُ في ملكوته يملؤه إيماناً، فَحَقَّ للشاعرِ أن يتساءل بعد جولةِ تأمُّلٍ في مخلوقاتِ الله سبحانه، فيقول (من الكامل):

قُلْ للوليدِ بكى وأجْهَشَ بالبكا ... ءِ لدى الولادةِ ما الذي أبكاكا

وإذا ترى الثعبانَ يَنْفُثُ سُمَّه ... فاسألْه مَنْ ذا بالسُّموم حَشَاكا

واسألْه كيفَ تعيشُ يا ثعبانُ أو ... تحيا وهذا السُّمُّ يملأُ فاكا

واسألْ بطونَ النَّحْلِ كيف تَقَاطَرَتْ ... شَهْداً، وقُلْ للشهدِ مَنْ حَلاَّكا

بل سائلِ اللَّبنَ المصَفَّى كا ... نَ بَيْنَ دمٍ وَفَرْثٍ ما الّذي صَفَّاكا

---

[1] المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (353/1).

[2] اقتضاء الصراط المستقيم ص: (460).

واسألْ شُعاعَ الشَّمْسِ يدنو وهي أبـ عـدُ كـلِّ شـيْءٍ مـا الَّـذي أدناكـا
يا أيُّهـا الإنسـانُ مهـلاً مـا الـذي باللهِ جـــلَّ جلالُـــه أغراكـــا؟

إن التأمُّل في خلق الله عز وجل وملكوته يقودُ إلى رسوخ الإيمان بالله سبحانه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ *﴾ [آل عمران: 190 . 191] فتأمَّلْ وسبح وتعبّدْ لمن خلقَك وذرأك وإليه المصير[1].

إنَّ من أبرز صفاتِ الله عزّ وجلّ الدّالةِ على ربوبيته صفة الخلق، وما تميّزتْ به من إتقانٍ، وبديعِ صُنعٍ، لا يكونُ إلاَّ من ربِّ العالمين[2]، فاللهُ عزَّ وجلَّ هو الذي خلقَ المخلوقاتِ، ومن عظيم إتقانه أنْ سنَّ لها قوانين وسنناً ثابتةً، منها العام، ومنها الخاص، عليها مدارُ انضباطها، وهذه السنن لا يمكنُ إضافتها لغير الله سبحانه وتعالى، لأنَّه هو المتفرّدُ بالربوبية وحدَه لا شريكَ له[3].

3 . السنن العامة:

فالسنن العامة تخضَعُ لها جميعُ الكائناتِ في وجودِها المادي، وما يمرُّ بها مِنْ حوادثَ مادية، كنموِّ الإنسان، وحركتِهِ، ومرضِهِ، وما شابه ذلك، وما تقعُ مِنْ حوادثَ كونية، كنزول المطر، وتعاقبِ الليل والنهارِ وغيرِها من متعلّقات الوجود المادي لمخلوقات الله عز وجل.

---

[1] مع الله الاسم الأعظم ص: (79).
[2] المصدر نفسه ص: (79).
[3] منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القراني ص: (29).

ولقد وجّه الأنبياءُ والرسلُ أقوامَهم إلى المشاهدةِ والنظرِ، والتأمّل والتفكّر: في مثل هذه السنن التي تتضمّن دلالاتٍ كبيرةٍ على عظمةِ الخالق، وحُسن تدبيره، وبديع خلقه لأمره، وتدبيره عز وجل، وفق سننه ونظامه وقوانينه، التي وضعها بقدرته وحده لا شريك له، ومن ذلك قول نوح عليه السلام لقومه، قال تعالى: [1]﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا *وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا *وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا *ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا *وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا *لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا *﴾ [نوح :15. 20] .

4 . السنن الخاصة:

وأما السنن الخاصة، فهي تتعلّق بخضوع البشر لها باعتبارهم أفراداً وأمماً وجماعات خضوعاً يتعلّق بتصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم في الحياة، وما يكونون عليه من أحوالٍ، وما يترتّب على ذلك من نتائج كالسعادة والشقاء، والعزّ والذل، والقوّة والضعف، والنصر والهزيمة، ونحوِ ذلك من الأمور الاجتماعية في الدنيا، وما يترتّب عليها من جزاءٍ في الآخرة، سواء كان عذاباً أو نعيماً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ*﴾ [الاعراف :128] أي الخاتمة المحمودةُ، أو النهاية في الدنيا والآخرة لمن أتقى[2]، وكذلك ما ورد في القرآن الكريم حول غزوة أحد مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران :160] .

---

[1] المصدر نفسه ص: (29).

[2] منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني ص: (30).

5. سمات السنن الإلهية:

من سماتِ هذه السنن بنوعيها: الثباتِ والاطرادِ والعمومِ، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الاحزاب: 62]، أي لن تجدَ لها تحويلاً وتغييراً، بل هي ثابتةٌ دائمةٌ[1]، فما من نبيٍّ إلا أرشدَ قومه إلى هذه السنن، بُغيةَ توحيدِ الخالق، وخاصّةً النوع الثاني منها، التي تتعلّق بالأحوال الاجتماعية، ففي الاعتبار والاتعاظ بها تتحقّق الاستقامة المطلوبةُ في سلوكِ البشر، وتتحقق الضوابطُ المرجوّة في سبيل تحقيق العبودية الخالصة لله عزّ وجلّ، لذا كان من أهداف إيراد القصص في القرآن الكريم الاتعاظُ بما جاء فيها من ذكر لهذه السنن، كسنّة الأخذ بالأسباب، وسنّة التدافع، وسنّة في نصر المؤمنين، وسنّة الله في الفتنة والابتلاء، وسنة الله في الظلم والطغيان[2]وغيرها.

6. توحيد الربوبية أعظم برهان على توحيد الألوهية:

إنّ توحيدَ الربوبيةِ هو أعظمُ برهانٍ ودليلٍ على توحيدِ الألوهية، وهو بالنسبة له كالمقدّمة بالنسبة للنتيجة، فمن اعتقدَ أنّ لهذا الكونِ العظيم الواسعِ خالقاً، ومدبراً، وقاهراً، ومتصرفاً فيه، يفعلُ ما يشاء، وله القدرةُ الكاملُة على تبديله وتغييره، وأنّه الرازقُ لجميع المخلوقاتِ بيدِه النفعُ والضرُّ، ويمنع ويعطي، ويميت ويحيي، وينجّي عند الشدائد والكربات، ويجيبُ المضطر عند اضطراره، من اعتقدَ ذلك صِدْقاً تولّدَ في قلبه حُبُّ ذلك الخالق العظيم.

---

[1] زبدة التفسير ، محمد سليمان الأشقر ص: (560).

[2] منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القراني ص: (30 إلى 36).

وهذه المحبةُ لابدَّ أن تثمِرَ خضوعاً وانكسِاراً وتذللاً، وانقياداً وطاعةً وعبوديةً ورِقاً لمالك هذا الكون.

وكثيراً ما يذكِّرُ الله سبحانه في كتابه الناسَ جميعَهم بأنّه هو المنعم عليهم، والمتفضل عليهم بالخلق والرزق وجميع النعم، فيرشدهم بذلك لعبادته وحده لا شريك له[1]، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ *﴾ [فاطر:3] .

* * *

[1] المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (431/1 إلى 435).

المبحث الرابع

توحيد الأسماء والصفات

أولاً . الأسس التي يقوم عليها توحيد الأسماء والصفات

ثانياً . أدلة هذا النوع من التوحيد

ثالثاً . أسماء الله الحسنى

رابعاً . الصفات الإلهية.

خامساً . أثر الصفات الإلهية على الأخلاق

سادساً . وصف الله تعالى نفسه بالمغفرة لا يعني الإغراء بالمعاصي

المبحث الرابع : توحيد الأسماء والصفات

ومعناه: الإيمانُ بما أثبته الله تعالى لنفسِه في كتابه، وأثبته له رسولُه صلى الله عليه وسلم في سنّته من الأسماء الحسنى، والصفات العُلى، من غيرِ تحريفِ ألفاظها أو معانيها، ولا تعطيلها بنفيها، أو نفي بعضِها عن اللهِ عزّ وجلّ، ولا تكييفها بتحديدِ كُنهها، وإثبات كيفيّةٍ معينةٍ لها، ولا تشبيهها بصفات المخلوقين[1].

أولاً ـ الأسس التي يقوم عليها توحيد الأسماء والصفات:

إنّ توحيدَ الله سبحانه وتعالى في أسمائه وصفاته يتطلّبُ التقيُّدَ في ذلك بكتاب ربنا وبسنّة رسولنا صلى الله عليه وسلم، فلا نصنعُ له اسماً أو صفةً ليست واردةً في الوحيين، ولا نشبِّهه بأحدٍ من خلقه، فهو سبحانه متّصفٌ بكلِّ كمالٍ، منزَّهٌ عن كلِّ نقصٍ. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *﴾ [الشورى :11] .

وعلى ذلك فيمكِنُ أن نذكرُ هذه الأسس:

1 ـ إنّ أسماءَ الله تعالى وصفاته توقيفيةٌ، فلا نُثْبِتُ للهِ تعالى ولا ننفي عنه إلا بدليلٍ من الكتاب أو السنة، إذ لا سبيلَ إلى ذلك إلا من هذا الطريق.

2 ـ إنَّ الإيمان بأن الله تعالى لا يشبهُ أحداً من خلقِهِ لا في أسمائه ولا صفاته، كما لا يشبهه أحد من خلقه، وإنْ سمّى أو وصفَ أحداً من المخلوقين بتلك الأسماء والصفات فذلك اشتراك في اللفظ، لا يوجِبُ مماثلَة المخلوقين له فيما دلت عليه هذه الأسماء والصفات.

[1] الإيمان د. محمد نعيم ياسين ص: (27).

فأسماءُ الله تعالى وصفاتُه على ما يليقُ به سبحانه وتعالى، وما يسمّى به من المخلوقين أو يوصف من ذلك فعلى ما يليق بالمخلوق نفسه، فكلٌّ بما يليقُ به، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *﴾ [الشورى: 11] .

3 ـ إنَّ صفاتِ الله كلَّها صفاتُ كمالٍ، فله سبحانه الكمالُ المطلقُ، وهو المنزّهُ عن كلِّ نقص.

ومما ينبغي معرفته في الإيمان بأسماءِ الله وصفاتِهِ أن يقطعَ الإنسان الطمعَ في معرفة كيفيتها، وألاّ يسأل عن ذلك، إذ لا يُسْأل عن صفاتِ الله تعالى بكيفٍ.

وأن يعلمَ مع ذلك ويعتقدَ أنَّ هذه الصفات معلومةُ المعنى، فلم يخاطِبِ الله تعالى عبادَه ويتعبّدهم بأمورٍ لا يعلمون معناها، ولهذا قال الإمام مالك وغيرُه من علماء لأمة لمن سأله عن كيفية استواء الله تعالى على عرشه: الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمان به واجبٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ[1].

وقال ربيعةُ الرأي شيخُ مالك قبله: «الاستواء معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، ومِنَ اللهِ البيانُ، وعلى الرسولِ البلاغُ، وعلينا الإيمان»[2].

ثانياً ـ أدلّةُ هذا النوع من التوحيد:

لا تخلو سورةٌ من سور القرآن الكريم من ذكرِ اسمٍ من أسماء الله تعالى، أو صفةٍ من صفاته، ومن ذلك سورةُ الإخلاص فهي بكاملها أسماء الله وصفاته قال تعالى: ﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾ ففي هذه السورة وصف الله سبحانه وتعالى نفسَه بأنّه (أحدٌ صمدٌ) فهذان الوصفان يدلاّن

---

[1] فتاوى ابن تيمية (58/3).

[2] المصدر نفسه (58/3) ، حماية الرسول حمى التوحيد ص: (255).

على اتصافِ الله بغايةِ الكمال المطلق ومعنى (الصمد): المستغني عن كلِّ أحدٍ، والمحتاجُ إليه كُلُّ أحدٍ، وهذا المعنى يدلُّ على الإثباتِ والتنزيه.

فالإثباتُ: وصفهِ سبحانه بأنه هو الذي يُصْمَدُ إليه، أي يُرْجَعُ إليه في كلِّ أمرٍ، وذلك لأنّه هو المتصفُ بجميع صفاتِ الكمالِ، فهو القادِرُ على كلِّ شيءٍ، والفعّال لما يريدُ، بيدِهِ الخَلْقُ والأمرُ والجزاءُ، وما من قوّةٍ لغيره تعالى إلا بهيمنةٍ منه، إذا شاءَ أبقاها، ومتى شاء سلبها، فالمرجِعُ والمرادُ إليه سبحانه[1].

وأما التنزيه: فبوصفِهِ تعالى بأنّه غنيٌّ عن كلِّ شيءٍ، فلا افتقارَ فيه بوجهٍ من الوجوه: لا في وجودهِ، فإنَّه الأوّلُ الذي ليس قبلَه شيءٌ، وهو الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ *﴾ [الإخلاص :3] ولا في بقاءه، فإنه الذي يُطعِمُ ولا يُطعَمُ. ولا في أفعاله، فلا شريكَ له ولا ظهير[2].

كما أنَّ وصفه سبحانه بأنّه (أحد صمد) يدلُّ على اتصافه بالكمالِ المطلق، فكذلك يدلان على معنىً آخر، وهونفي الولادة والتوليد عن الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [الانعام :14] .

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ *إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ *﴾ [الذاريات :56 ـ 58] .

فإنَّ الأحدَ هو الذي لا كفؤَ له ولا نظيرَ، فيمتنعُ أن تكونَ له صاحبةٌ ولا ولدٌ، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ

---

[1] علو الله على خلقه بتصرف ص: (28).
[2] المصدر نفسه ص: (28 ـ 29).

شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *﴾ [الانعام :101] وفي هذا نفيٌ عن المخلوقاتِ مكافأتِها أو مماثلتَها للخالق.

ومثل ذلك قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ *﴾ [الانعام :1] أي: يعدلون به غيره، فيجعلون له من خلقه عِدْلاً ونظيراً[1].

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا *﴾ [مريم :65] أي لا شيءَ يساميه، لا ندَّ، ولا عِدلَ، ولا نظيرَ له يساويه، فأنكر التشبيه والتمثيل.

وبهذا يتبيّن لنا أنّ تنزيهه سبحانه عن العيوبِ والنقائصِ واجبٌ لذاته، كما دلّت على ذلك سورةُ الإخلاص[2].

ثالثاً ـ أسماء الله الحسنى:

لربنا تبارك وتعالى أسماءٌ سمّى بها نفسه، منها ما أنزله في كتابه، كالأسماء الموجودةِ في القرآن الكريم، ومنها ما علّمه الله تعالى بعضَ خلقه من الأنبياء والمرسلين، أو الملائكة المقربين، أو مَنْ شاءَ الله تبارك وتعالى. ومن أسمائه سبحانه ما استأثر به في علم الغيب عنده، فلا يعلمه أحد.

وذلك أنَّ لله تعالى من معاني العظمة ما لا تستطيعُ المخلوقاتُ إدراكه، لأنّه الإلهُ الحقُّ المبين، له الجمالُ المطلقُ، والكمالُ المطلقُ، والجلالُ المطلقُ، والعظمةُ التامّةُ، والقدرةُ الكامِلَةُ، فلله تعالى أسماءٌ وصفاتٌ لا يحيطُ بها إلا هو سبحانه وتعالى.

---

[1] المصدر نفسه ص: (28 ـ 29).

[2] من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للصلابي ص: (62).

1 ـ أسماء الله تبارك وتعالى كثيرة: بل كما قال ربنا عز وجل: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا *﴾ [الكهف :109] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *﴾ [لقمان :27] فلله عزّ وجل من معاني الحَمدِ والمجدِ، والكمالِ والعظمةِ، والقوةِ والقدرةِ والسلطانِ، ما لا يحيطُ به بشرٌ، ولا يدركُهُ عقلٌ، ولا يقف عند منتهى كُنههِ إدراكٌ، وحديث التسعة والتسعين[1] لا يعني قصر الأسماء الحسنى عليها، بل إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال في الحديث الصحيح ـ الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه ـ مناجياً وداعياً ربّه تبارك وتعالى: «أسألُكَ بكلِّ اسمٍ هوَ لكَ، سمَّيْتَ بهِ نفسَكَ، أو أنزلتَهُ في كتابِكَ، أو علّمتَهُ أحداً منْ خَلْقِكَ، أو استأثرتَ بهِ في عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَك»[2]. وذكر في حديث الشفاعة أنّه يسجدُ صلى الله عليه وسلم تحت العرش، فيفتَحُ اللّهُ عليه بمحامدَ يعلّمُها له، لم يكن يَعْلَمُها مِنْ قبلُ[3].

2 ـ أسماء الله تبارك وتعالى توقيفية: فلا يحقُّ لأحدٍ مِنَ الناس أن يخترعَ لله تعالى اسماً، وإنّما أسماؤه سبحانه هي ما جاء في القرآن الكريم أو السنة بصفة الاسم، مثل:

---

(1) سيأتي تخريجه ص (47).

(2) أخرجه أحمد في مسنده (391/1). والحاكم في مستدركه ، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر (69/1) رقم (1877) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (136/10): رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والبزار ، والطبراني ، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني ، وقد وثقه ابن حبان.

(3) حديث الشفاعة أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القران، باب: {} [الإسراء: 3] (4435)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (194) من حديث أبي هريرة وسيأتي الحديث ص {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا *}

الخالق، البارئ، المصوِّر، الملك، القدّوس، السّلام، العزيز، الحكيم، العليّ، العظيم، المؤمن، المهيمن... إلخ

3 . من أسماء الله الحسنى ما يختصُّ به سبحانه: فلا يجوزُ أن يُسمَّى بها غيرُه، وهي: (الله) و(الرَّحمنَ)، ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ﴾ [الإسراء: 110] ولهذا لا يتسمّى أحدٌ بهذين الاسمين من المخلوقين قطّ إلا قصمه الله تعالى، فالله والرَّحْمَنُ من الأسماء التي لا يُسمَّى بها أحدٌ إلا الله عز وجل[1].

4 . من أسماء الله عز وجل ما يجوزُ أن يُذْكَرَ وحدَه منفرداً: كالعزيزِ، والحميدِ، والحكيم، والرحيمِ، والعليمِ، والخبيرِ، والبصيرِ.. وما أشبه ذلك، فتناديه بها، وتدعوه بها، وتعرفُه سبحانه.

5 . من أسماء الله عزّ وجلّ ما لا يُذكر إلا مع نظيره:

وذلك بأن تصفَ الله تبارك وتعالى بأنّه هو (الضار النافع) و (القابض الباسط) وما أشبه ذلك من الأسماء التي تكونُ متقابلةً، فلو وصفت ربَّك تبارك وتعالى بأنه الضار فحسب، أو القابض فحسب لكان هذا مُوهِماً لمعنًى لا يليقُ بمجدِ اللهِ وكرمِهِ، وعظمتِهِ وكمالِهِ وقدسيته، لهذا لا تُذْكَرُ هذه الأسماءُ منفردةً، وإنّما تذكَرُ مع نظيرها ومقابلها.

6 . معنى الإحصاء في قوله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ للهِ تسعةً وتسعينَ اسماً، مئة إلا واحداً، مَنْ أحصاها دخلَ الجنَّة»[2] يشمل أموراً منها:

---

[1] مع الله ص: (24).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الشروط ، باب: ما يجوز من الاشتراط والثنا في الإقرار والشروط التي يتعارفها الناس بينهم ، وإذا قال: مئة إلا واحدة أو ثنتين (2585) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: في أسماء الله تعالى ، وفضل من أحصاها (2677).

أ ـ معرفة هذه الأسماء وحفظها: بحيث يستطيعُ الإنسانُ أن يعدّها عداً، وقد اعتنى جماعةٌ من أهل العلم بعدِّ هذه الأسماء، كالزَّجَّاج، وابن مِنْدَة، وابنِ حزم، وأبي حامد الغزالي، وابن العربي، والقرطبي، وغيرِهم من المصنّفين والعلماء، الذين اعتنوا بذكر هذه الأسماء وتعدادها، واستخراجها من القرآن والسنة النبوية الصحيحة، وهذا داخلٌ في معنى إحصاء أسماء الله الحسنى.

وفضلٌ عظيم للإنسان أن يكونَ عندَه إلمامٌ ومعرفةٌ بأسماء الله عز وجل، وأن يتلوها، وأن يدعوَ الله بها[1].

ب ـ من معاني إحصائها معرفة معانيها: فإنَّ هذه الأسماء ليست أسماءً رمزيةً، ولا وهميةً، ولا جامدةً، ولا غامضةَ المعنى، وإنّما هي بلسانٍ عربي مبينٍ، أُريدَ من الإنسان أن يتفهّم معانيها، حتى تكونَ تلاوتُنا لها ذاتَ معنًى، وليس مجرّدَ ترديدٍ لألفاظٍ لا نفقه ما وراءها، وهذا بحدِّ ذاته مكسبٌ عظيمٌ، يبارِكُ النفسَ ويزكّيها، ويرتقي بالقلب والعقل والروح.

ج ـ الإلحاح بالدعاء لله عز وجل بهذه الأسماء، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الاعراف :180] .

إنَّ الله تبارك يحبُّ أن يُدعَى بها، ولهذا قيل (من الكامل):

لا تســـألنَّ بُــــنيَّ آدم حاجــــةً	وسَـلِ الـذي أبوابُـهُ لا تُحْجَـبُ
اللهُ يَغْضَـــبُ إنْ تَرَكْـــتَ سُـــؤَالَهُ	وبُـنيُّ آدم حِـيْن يُسْـأَل يَغْضَـبُ

فادعو الله بأسمائه الحسنى باعتدالٍ، وذلك بأن تدعوه وتسأله وترجوه فيما ألَمَّ بكَ مِنْ أمرِ دنياك وآخرتِكَ مما تحبُّ وترجو، أو ممّا تخافُ وتكره، أو تدعوه بهذه الأسماء

[1] مع الله ص : (26).

باستحضار معانيها، وتأمُّلها وتدبُّرِها، والتعبد بمقتضياتها، والتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، والصلاة، والذكر، والاستحضار[1].

ح ـ استحضار معاني تلك الأسماء: فإنّ شرَّ ما يُبتلى به الناسُ الغفلة، والاستغراق في ماديات الحياة، والانسياق وراء صوارفها، وخيرُ دواءٍ للقلوب هو استحضارُ عظمةِ علاَّم الغيوب، والتدرّجُ بالنفس في مراقي معرفته، والإيمان به سبحانه، حتَّى تصلَ درجةَ: «أن تعبدَ الله كأنَّكَ تراه»[2]، فهذا يزيدُ المرءُ إقبالاً على الطاعة، وحفاوةً ونشاطاً، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ *وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ *﴾ **[الشعراء :218 . 219]** .

كما أنَّ استشعارَ معاني هذه الأسماء يزيدُ المؤمنَ إعراضاً عن المعصية، وزهداً فيها، وإسراعاً في الإقلاع عنها، وقوة في التوبة والأوبة، لما يحسُّ به من وحشة القلب، والبعد عن الربِّ، ولما يحاذره ويستشعره من غضبه أو عتبه أو مؤاخذته سبحانه للعبد على إقامته على الذنب[3].

إنَّ مِنْ خيرِ ما تورثه هذه الأسماءِ الصفاءَ والسكينةَ والوئامَ، والإحجامَ عن الناس، والتواضعَ لذي الجلال، إلى سعةِ العقلِ والفهمِ والإدراكِ، ولعلَّ من إحصائها ألا

---

[1] المصدر السابق ص: (27).

[2] وهذه الجملة هي جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان باب: سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (50)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان (8).

[3] مع الله ص: (28).

تتحوّل إلى مادةٍ للخصام أو الجدل العقيم، الذي لا يثمِرُ معرفةً قلبية، على أنَّ البحث العلمي الهادئ مطلبٌ لا بدَّ منه لمن أراد سلوكَ الطريق[1].

رابعاً. الصفات الإلهية:

تنقسمُ الصفاتُ الإلهيّةُ إلى عقليةٍ وخبريةٍ، وإلى ذاتيةٍ وفعليةٍ اختياريةٍ، فالصفاتُ العقليةُ والخبريةُ جاء بها القرآن الكريم وتحدّثت بها السنة.

1. **الصفات العقلية:** وهي التي يمكِنُ أن يُسْتَدَلَّ عليها بالعقل: كالعلم، والقدرة، والإرادة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، والرحمة، والحكمة، والعلوّ، ونحوها[2].

2. **الصفات الخبرية:** وهي التي لا يستطيعُ العقلُ إدراكَها مِنْ غير طريق النصوص، فطريقُ إثباتها ورودُ خبرِ الصادقِ بها فقط، وذلك كالوجه، واليدين، والعين، والاستواء على العرش، ونحو ذلك[3]، فهذه الصفاتُ يجب الإيمانُ بها كالصفات العقلية من غير تمثيلٍ، ولا تعطيل، ولا تحريفٍ، ولا تكييف[4]، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى :11] .

كما تقسم إلى:

1. **الصفات الذاتية:** وهي التي لا تنفكُّ عنها الذاتُ، بل هي لازمةٌ لها أزلاً وأبداً، وذلك كالحياةِ، والعلمِ، والقدرةِ، والقُوّة، والمِلْك، والعظمة، والكبرياء، والمجد، والعلو، والجلال، والوجه، وغيرها[5].

---

(1) المصدر السابق ص: (28).

(2) علو الله على خلقه ص: (59، 60، 61).

(3) المصدر السابق ص: (60).

(4) المصدر نفسه ص: (61).

(5) المصدر نفسه ص: (65).

- **بعضُ الصفاتِ الذاتيّة:**

أ ـ صفةُ الحياةِ: إنّ الله تعالى له الحياةُ الدائمةُ التامّةُ، التي لا يعتريها نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، ولهذا قال: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255] .

وصفةُ الحياة ثابتةٌ بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية:

فالآيات منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255] وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [غافر: 65] وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾ [الفرقان: 58] .

أما الأحاديث، فمنها حديثُ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقولُ: «اللهمَّ لكَ أسلمتُ، وبِكَ آمنتُ، وعليكَ توكّلتُ، وإليكَ أنبتُ، وبكَ خاصمتُ، اللهم إني أعوذ بعزّتِك لا إلهَ إلاَّ أنتَ أنْ تُضِلَّني، أنتَ الحيُّ الذي لا يموتُ، والجنُّ والإنسُ يموتون»[1].

ومن معاني (الحي) أنَّ حياته صفةٌ ذاتيةٌ، بخلاف المخلوقين، فإنَّ حياتهم من فضلِ الله عزّ وجلّ عليهم، ومعيشتُهم من عطائه وجودِهِ وكرمِهِ، فاللهُ تعالى متّصفٌ بالحياةِ، وهي صفةٌ لذاته جلّ وعلا.

ومن معانيها أيضاً أنّه يمنحُ الحياةَ للأحياء في الدنيا، ويمنحُ أهلَ الجنّةِ حياتهم الأبدية الأزلية السرمدية التي لا زوال لها، بل هي خلودٌ أبديٌّ بلا موتٍ ولا فناءٍ[2].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: التعوّذ من شرّ ما عمل ، ومن شر ما لم يعمل (2717) ، وانظر صحيح البخاري ، كتاب: الجمعة ، باب: التهجد بالليل (1069).

[2] مع الله ص: (216).

ب . صفةُ العلمِ: والعلمُ يقتضي نفيَ الجهلِ، وعلمُه سبحانه علمٌ شاملٌ كاملٌ، محيطٌ بالماضي والحاضر والمستقبل، وعلمٌ مطابِقٌ للواقع، قال تعالى: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ *﴾[الملك: 14] قال تعالى: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾[البقرة: 255] وقال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾[النساء: 166] .

فالله سبحانه وتعالى أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً، ووسعَ كلَّ شيْءٍ رحمةً وحكمةً ﴿لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ *﴾ [آل عمران: 5] ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *﴾ [الانعام:59].

كما أنَّ علمه لا يسبقُه جهل، فلا يلحقه أيضاً نسيان ﴿لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى *﴾ [طه: 52] وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ *﴾ [الاعراف: 7] .

هو يعلمُ دقائقَ التفاصيل، والظواهر، والبواطن، والكليات، والجزئيات، والمعنويات، والماديات، ولقد كتبَ مقاديرَ كلِّ شيءٍ في كتابٍ عنده، ولذا يقول سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً *﴾ [الإسراء: 85] .

فهذا العلمُ:

يوجِبُ الخشيةَ منه وتعظيمه، ولذا قيل: مَنْ كانَ باللهِ أعرفَ كان منه أخوفَ.

ويوجبُ مراقبته، لأنَّ كلَّ شيءٍ بعلمه، وسمعه، وبصره، وتحت سلطانه.

ويوجبُ محبته، لأنَّ كمالَ العلمِ محبوبٌ للنفوس الشريفةِ التّواقة.

ويوجبُ محبَّةَ العلم والسعيَ فيه، وتحصيله، والتلذذ به، لأنَّ الله يحبُّ العلمَ والعلماءَ، ويكرهُ الجهلَ والجُهلاءَ، ويوجِبُ الصبرَ على التعلّم وذلِّه، لأنه عبادةٌ.

وكذلك علمُ الدنيا والكونِ والإنسانِ وألوانِ المعارف الإنسانية محبوبةٌ، وعلمُ الشريعةِ والوحيِ والآخرة محبوبٌ، لأنّه يثمِرُ معرفةَ الله، والقربَ منه، ومعرفةَ ما يريدُ وما يحبُّ، وما يكره سبحانه وتعالى.

وكذلك علمُ الدنيا والكون والإنسان وألوان المعارف الإنسانية هي محبوبةٌ، لأنّها تزيدُ العبدَ بصيرةً بِخَلْقِ اللهِ وقدرتِهِ وحكمتِهِ وعظمتِهِ، وتيسّرُ الانتفاعِ بهذا الكونِ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: 13] .

إنَّ صفة العلم مستمدّةٌ من اسمه العليم، وهذا الاسمُ الشريفُ العظيمُ يولّدُ في النفس تسليماً لما يفعله الله في كونه، وأن ذلك حاصل بعلمِهِ وإرادتِهِ وحكمتِهِ، فالحكمةُ هي العلم، والقدرةُ هي قرينُ العلم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *﴾ [التحريم: 2] ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ *﴾ [الروم: 54] فكلُّ شيءٍ بقدرٍ، وكلُّ قَدَرٍ بحكمةٍ ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *﴾ [التغابن:11] .

إنّ الإيمانَ بالربِّ (العليم) ليجعلُ العبدَ أقربَ إلى ربِّه، وأكثرَ استشعاراً لمعيّته.

قال الشاعر (من الكامل):

وهُـوَ العلـيمُ أحـاطَ عِلْمـاً بالّـذي ... في الكـونِ مِـنْ سَـرٍّ ومِـنْ إعـلانِ

وبكــلِّ شـــيءٍ علمُـــه ســـبحانَهُ ... قاصـي الأمـورِ لديـه قبـلَ الـدَّاني

لا جَهْـلَ يَسْـبِقُ عِلْمَـهُ كـلا ولا ... يُنْسَـى كَمَا الإنسانُ ذو نِسْيانِ[1]

ج ـ **صفةُ القدرة:** القديرُ سبحانه هو كاملُ القدرةِ، فبقدرته أوجدَ الموجودات، وبقدرته دبّرَها، وبقدرته سوَّاها وأحكمَها، وبقدرته يحيي ويميتُ، ويبعثُ العبادَ للجزاءِ،

---

[1] مع الله ص (121) والأبيات من نونية ابن القيم المشهورة.

وبقدرته سبحانه يقلِّبُ القلوب على ما يشاءُ ويريد[1]. قال تعالى: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ *﴾ [القيامة :4] وقال: ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ *﴾ [المؤمنون :95] .

ومن السنة المطهرة حديثُ جابرٍ بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا الاستخارةَ في الأمور كلِّها، كما يعلِّمُنا السورةَ من القرآن، يقول: «إذا هَمَّ أحدُكُم بالأمرِ فليركعْ ركعتينِ مِنْ غيرِ الفريضة، ثم لِيَقُلْ: اللهمَّ إنِّي أستخيرُكَ بعلمِكَ، وأسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ...»[2].

د . صفةُ الإرادةِ: الإرادةُ والمشيئةُ بمعنًى واحد، فالإرادةُ التي تعني المشيئةَ هي الإرادةُ الكونية، وأمّا الإرادةُ الشرعية فتختلِفُ عن الإرادةِ الكونية، وسيأتي الحديث عنها مفصّلاً بإذن الله.

والآيات والأحاديث في بيان الإرادة الكونية كثيرةٌ جداً، منها قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ*﴾ [المائدة :6] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة :185] .

وأما الأحاديث فمنها حديثُ معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ في الدِّيْن»[3].

---

[1] المصدر السابق ص (235).

[2] البخاري في صحيحه ، كتاب الجمعة ، باب: ما جاء في التطوع مثنى مثنى (1113).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: العلم ، باب: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين (71) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الزكاة ، باب: النهي عن المسألة (1037).

هـ إثباتُ صفةِ السمع والبصر: والمعلومُ والمقدّرُ عند أهلِ السنَّةِ أنَّ السميعَ لا يكونُ إلا بسمعٍ، والبصير لا يكونُ إلا ببصرٍ، كما لا يكونُ القديرُ والحكيمُ إلا بقدرةٍ وحكمةٍ[1].

والآيات في إثبات صفتي السمع والبصر كثيرةٌ، وكذلك الأحاديثُ أيضاً، ولذلك سنستدل ببعض الآيات قال تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *﴾ [غافر:56] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا *﴾ [النساء :134] .

و ـ إثباتُ صفة الكلام: أهلُ السنّةِ متّفقون على أنَّ اللهَ يتكلّم بمشيئته، وأنَّه لم يزل متكلّماً إذا شاء، وكيف شاء[2]، قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة :253] وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا *﴾ [النساء :164] .

فالله عزّ وجلّ من صفاته صفةُ الكلامِ، وهي صفةٌ قائمةٌ به، غيرُ بائنةٍ عنه، لا ابتداءَ لاتّصافه بها ولا انتهاء، يتكلَّم بها بمشيئته واختياره، وكلامُه تعالى أحسنُ الكلام، ولا يشابِهُ كلامَ المخلوقين، إذ الخالقُ لا يقاسُ بالمخلوق، ويكلِّم به مَنْ شاء، ويسمِعُه على الحقيقةِ مَنْ شاء من ملائكته ورسله، ويسمِعُه عبادَه في الدار الآخرة بصوتِ نفسِه، كما كلّم موسى وناداه حين أتى الشجرةَ بصوتِ نفسِه، فسمعَه موسى، كما أنَّ كلامه تعالى لا يشبِهُهُ كلامُ المخلوقين، فإنَّ صوته لا يشبِهُ أصواتهم، وكلماتُه تعالى لا نهايةَ لها، ومن كلامِهِ: القرآن والتوراةُ والإنجيلُ، فالقرآن كلامُه، سورهُ، وآياتهُ، وكلماتهُ[3].

---

[1] من عقيدة المسلمين ص (72) .

[2] المصدر نفسه ص (73).

[3] من كتاب العقيدة السلفية في كلامه رب البرية ص (63).

والقرآن الكريم كلام الله، منه بدأ، وإليه يعود، فهو كلامُ الله، حروفهُ: ومعانيه، والدليل أنّه مِنْ كلام الله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ﴾ [التوبة :6] .

والقرآن منزلٌ من عند الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:1].

والقرآن غيرُ مخلوقٍ، والدليل قوله تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الاعراف :54] فجعل الأمرَ غيرَ الخلقِ، والقرآن من الأمرِ، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى :52] وقوله: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق :5] .

ز ـ علو الله على خلقه: إنّ الله تعالى وصفَ نفسَه بالعلوِّ في السماء، ووصفه بذلك محمَّدٌ خاتمُ الأنبياء، وأجمعَ على ذلك جميعُ العلماء من الصحابة الأتقياء، والأئمة الفقهاء، وتواترت الأخبار بذلك على وجه حصل به اليقين، وجمعَ اللهُ عليه قلوبَ المسلمين، وجعله مغروزاً في طِباع الخلقِ أجمعين، فتراهم عندَ نزولِ الكربِ بهم يلحظون السماءَ بأعينِهم، ويرفعونَ نحوَها للدعاءِ أيديهم، وينتظرونَ مجيءَ الفرجِ مِنْ ربِّهم، وينطقون ذلك بألسنتهم، لا ينكِرُ ذلك إلا مبتدعُ غالٍ في بدعته، أو مفتونٍ بتقليدِهِ واتباعه على ضلالته[1]، قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:4] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الانعام :18] ومعاني العلوِّ جميعُها ثابتةٌ له سبحانه: علوُّ الذاتِ، وعلوُّ القدرةِ، وعلوُّ القهرِ والغلبةِ، وعلوّ الحُجَّةِ.

فهو علوُّ ذاتٍ، وعلوُّ صفاتٍ، ولذا وصفَ نفسَه بأنه ﴿الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى *﴾ [طه :5] فالعلوُّ الكامِلُ له وحدَه سبحانه، والعلوُّ الدائم له وحده سبحانه،

---

[1] إثبات صفة العلو للمقدسي ص (63).

ولهذا قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «حَقٌّ على اللهِ أنْ لا يرتفِعَ شيءٌ مِنَ الدُّنيا إلا وَضَعَهُ»[1].

ومن علوّهِ أنْ جعلَ الرفعةَ لكتابِهِ ولدينِهِ ولأوليائِهِ الصادقين، كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى *﴾ [طه :68] وقال: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ *﴾ [الزخرف :4] وقال صلى الله عليه وسلم: «إنَّ اللهَ يرفَعُ بهذا الكتابِ أقواماً، ويضعُ به آخرين»[2].

ومع علوّهِ سبحانَه، فهو قريبٌ مجيبٌ سميعٌ، ولذا يناديه العبدُ نداءً خفياً ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا *﴾ [مريم :3] .

ويخبِرُ عن نفسِه أنَّه يسمعُ السِّرَّ وأخفى، والسرُّ ضدُّ الجهرِ، وما هو أخفى من السرِّ هو الخطراتُ التي لا يعيها صاحبُها، ولا يدرِكُها، والمعاني المكنونة التي لا يحيطُ المرءُ بها حتى عن نفسِه وذاته، فهناك عالَمُ الأسرار، وهناك عالَمُ اللاشعور واللاوعي، وهناك الخفايا الخَلْقية، التي لم يصل إليها العلمُ، وهناك الخفايا المستقبلية، فهو مع علوّهِ واستوائه على عرشِهِ محيطٌ بذلك كله، لا تخفى عليه خافيةٌ، ولذا سمَّى نفسَه بذي المعارج ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ *﴾ [المعارج :3] وفسَّره بقوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج :4] .

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجهاد والسير ، باب: ناقة النبي (2717).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها ، باب: فضل من يقوم بالقران ويعلِّمه ، وفضل من تعلم حكمةً من فقهٍ أو غيره فعمل بها وعلّمها (817).

وذكر نزولَ الملائكةِ والروحِ ونزولَ الوحي، كما ذكر ارتفاعَ الأشياءِ وصعودَها إليه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10] ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: 158] .

قال الشاعر: (من الوافر):

إذا ضاقتْ بكَ الأحوالُ يوماً	فَثِقْ بالواحِدِ الصَّمَدِ العَلِيِّ[1]

ح - إثباتُ صفةِ الوَجْهِ: نثبتُ للهِ صفةَ الوجهِ دونَ تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ، ولا تمثيلٍ، وهو وجهٌ يليقُ به سبحانه، قال تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ *﴾ [الرحمن: 27] وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *﴾ [القصص: 88] وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نفقةً تبتغي بها وَجْهَ اللهِ إلاّ أُجِرْتَ عليها»[2].

ط - إثباتُ صفةِ اليدين: قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64] وقال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ المقسطينَ عند الله على منابرَ مِنْ نورٍ، عن يمينِ الرحمنِ عزّ وجلَّ، وكلتا يديهِ يمينٌ، الذين يَعْدِلُون في حُكْمِهِم وأهليهم وما ولوا»[3].

---

[1] مع الله ص (150).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية الحسنة ولكل امرىء ما نوى (56)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الوصية، باب: الوصية بالثلث (1628).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم (1827).

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى صفة اليدِ بالإفرادِ والتثنيةِ والجمعِ: فبالإفرادِ مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: 1] وبالتثنية كقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64] وبالجمع كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: 71] .

والتوفيقُ بين هذه الوجوهِ أن نقولَ:

الوجهُ الأوّلُ مفرَدٌ مضافٌ، فيشمَلُ كلَّ ما ثبتَ للهِ من يدٍ، ولا ينافي التثنية.

وأمّا الجمعُ فهو للتعظيمِ، لا لحقيقةِ العددِ الذي هو ثلاثةٌ فأكثر، وحينئذٍ لا ينافي التثنية، على أنّه قد قيل: إنّ الجمعَ اثنان، فإذا حُمِلَ الجمعُ على أقلّه فلا معارضةَ بينه وبين التثنية أصلاً[1].

ي ـ إثباتُ صفةِ العينِ: وإثباتُ صفة العينِ على ما يليقُ باللهِ تعالى، ولا يُفْهَمُ منها أنَّ لله عينٌ جارحةٌ كأعيننا، بل له سبحانه وتعالى عينٌ حقيقيةٌ تليقُ بعظمتِهِ وجلالِهِ، وللمخلوقِ عينٌ حقيقةٌ تناسِبُ حالَه وحدوثَه وضعفَه، وهذا شأنُ جميعِ الصفاتِ التي فيها المشاركةُ اللفظيةُ مع صفاتِ المخلوق[2].

والعينُ صفةٌ لله تعالى بلا كيفٍ، وهي من الصفاتِ الخبريةِ الذاتية، قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: 39] وذكرُ العينِ مفردةً لا يدلُّ على أنّها عينٌ واحدةٌ فقط، لأنَّ المفردَ المضاف يرادُ بِهِ أكثر من واحدٍ، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ

---

(1) لمعة الاعتقاد ص(50).

(2) الصفات الإلهية ص (319).

اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [ابراهيم :34] وقال تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر :14]، وهنا ذكرت بصيغةِ الجمع مضافةً إلى ضمير الجمع[1].

ك . إثباتُ صفةِ النفس: قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:54] وقال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:116] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقولُ الله تعالى: أنا عندَ ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإنْ ذكرني في نفسِهِ ذكرتُهُ في نفسِي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرتهُ في ملأٍ خيرٍ منهم»[2].

فالله جلّ وعلا أثبتَ في كتابه أنَّ له نفساً، وكذلك قد بيّنَ على لسانِ نبيّه صلى الله عليه وسلم أنّ له نفساً، كما أثبتَ النفسَ في كتابه، ونثبِتُها له على الوجه اللائق به[3].

2. الصفات الفعلية: وهي التي تتعلّق بها مشيئته وقدرتُه كلَّ وقتٍ وان، وتحتَ مشيئتِهِ وقدرتِهِ احادُ تلك الصفات من الأفعال، وإنْ كانَ هو سبحانه لم يزلْ موصوفاً بالفعل بمعنى أنَّ نوعَ الأفعالِ قديمٌ، وأفرادها حادثةٌ، فهو سبحانه لم يزلْ فعّالاً لما يريدُ، ولم يزلْ ولا يزالُ يقولُ ويتكلّم، ويخلقُ، ويدبّر الأمور، وأفعالُه تقعُ شيئاً فشيئاً تبعاً لحكمتِهِ وإرادتِهِ.

ومثلُ هذا الاستواءُ على العرش، والمجيءُ، والإتيانُ، والنزولُ إلى السماء الدنيا، والضحكُ، والرضا، والغضب، والكراهية، والمحبة، والخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، وأنواعُ التدبير[1].

---

[1] من عقيدة المسلمين ص (82).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: التوحيد ، باب: قول الله تعالى: { } [ال عمران: 28] {نَفْسَهُ} ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: الحث على ذكر الله تعالى (2675).

[3] لمعة الاعتقاد لابن قدامة ص (51).

وأفعالهُ سبحانه وتعالى منها اللازمُ، ومنها المتعدي.

فالاستواءُ والمجيءُ والنزولُ ونحو ذلك أفعالٌ لازمةٌ لا تتعدّى إلى مفعولٍ، بل هي قائمةٌ بالفاعلِ.

والخلقُ، والرزقُ، والإماتةُ، والإحياء، والإعطاء، والمنع، ونحو ذلك، تتعدّى إلى مفعولٍ[2].

وقد جمع الله بينهما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا *﴾ [الفرقان: 59] فذكر الفعلينِ المتعدّي واللازم وكلاهما حاصلٌ بمشيئته وقدرته، وهو متّصفٌ بهما سبحانه، كما يجب التنبيه أيضاً إلى أنَّ من صفاته سبحانه وتعالى ما يأتي صفةَ ذاتٍ، وصفةَ فعلٍ،وذلك مثل صفة الكلام، والخلق، والرحمة[3].

وقد دلّتِ الآيات والأحاديث على اتّصاف اللهِ بالصفات الذاتية والفعلية، قال تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ *﴾ [الرحمن: 27] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدم فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ *﴾ [الاعراف: 11] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدم خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *﴾ [آل عمران: 59] وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ *﴾ [محمد: 28] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [آل عمران: 31]

---

[1] شرح العقيدة الواسطية ص: (105 . 106).

[2] علو الله على خلقه ص: (66).

[3] المصدر نفسه ص: (66).

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُتِي رسول الله صلى الله عليه وسلم بِلَحْمٍ، فرفعَ إليه الذراعَ، وكانتْ تُعْجِبُه، فنهسَ منها نهسةً، ثم قال: «أنا سيّدُ الناسِ يومَ القيامةِ.. إلى أن قال: فيأتونَ آدم عليه السلام، فيقولونَ له: أنتَ أبو البشرِ، خلقَكَ اللهُ بيدِهِ، ونفخَ فيكَ مِنْ روحِهِ، وأمَرَ الملائكةَ فسجدوا لكَ، اشفعْ لنا إلى ربِّكَ، ألا ترى إلى ما نحنُ فيه؟! ألا ترى إلى ما قدْ بلغنا؟! فيقولُ آدم: إنَّ ربِّي غضبَ اليوم غضباً لم يَغْضَبْ قبلَه مثله، ولن يغضَب بعدَه مثلَه...»[1].

وعلينا إثباتُ جميع ما وردَ بالكتاب والسنة من الصفاتِ بلا تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، وبلا تشبيهٍ، ولا تمثيلٍ[2].

- **بعض الصفات الفعلية:**

أ . إثباتُ استواءِ الله على عرشه: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ*﴾ [الاعراف :54] وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا *الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا *﴾ [الفرقان :58. 59] .

ويجب إثباتُ استواءِ الله على عرشه من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ، وهو استواءٌ حقيقيٌّ، معناه العلو والاستقرار على وجهٍ يليقُ بالله تعالى[3].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: تفسير القران ، باب: {} [الإسراء: 3] {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا *} ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (194).

[2] علو الله على خلقه ص: (69).

[3] لمعة الاعتقاد ص (62).

ولما سُئِل مالكُ بنُ أنس عن قوله: ﴿الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى *﴾ [طه: 5] قال: «الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ، وما أراكَ إلاّ ضالاًّ» وأمرَ أن يُخْرَجَ السائلُ من المجلس[1].وأكثرُ مَنْ صرّح بأنّ الله مستوٍ بذاته على عرشه أئمةُ المالكية، فصرّح أبو محمد بن أبي زيد القيرواني في ثلاثةِ مواضع من كتبه وأشهرها «الرسالة» وفي كتاب «جامع النوادر» وفي كتاب «الاداب»، وصرّح بذلك القاضي أبو بكر الباقلاني، وكان مالكياً، وصرّح به أبو عبد الله القرطبي المفسّر في كتاب «الأسماء الحسنى» وكذلك أبو عمر بن عبد البر، والطلمنكي، وغيرهما من الأندلسيين، وغير ذلك من السادّة المالكية[2].

إنّ كتابَ الله عزّ وجلّ من أوله إلى آخره، وسنةَ رسولهِ صلى الله عليه وسلم وكلام عامة الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة، مملوءٌ بما هو نصٌّ أو ظاهِرٌ في أنَّ الله سبحانه وتعالى فوقَ كلِّ شيءٍ، وأنّه فوقَ العرشِ، وفوقَ السماواتِ مستوٍ على عرشه[3].

ب ـ صفة المجيء: قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا *﴾ [الفجر: 22] قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 210] .

ويجبُ إثباتُ المجيء من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ، وهو مجيءٌ حقيقةً، يليقُ بالله تعالى[4].

ج ـ صفة الرضا: قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: 119] .

---

[1] شرح حديث النزول لابن تيمية ، عقيدة المسلمين ص (86).
[2] الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (2 / 134).
[3] اجتماع الجيوش الإسلامية ص (96).
[4] لمعة الاعتقاد ص (52).

د . صفة المحبة: قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة :54] .

هـ صفة الغضب: قال تعالى: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء :93] .

و . صفة السخط: قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ [محمد :28].

ز . صفة الكراهة: قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة :46] .

فصفةُ الرضا، والمحبةِ، والغضبِ، والسخطِ، والكراهةِ: صفاتٌ ثابتةٌ لله عزّ وجلّ، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ولا تكييف ولا تمثيلٍ، فهي على ما يليقُ به عزّ وجلّ، وكذلك صفةُ الغيرةِ، والفرحِ، والضحكِ، فقد جاء ذكرُها في أحاديثَ نبويةٍ صحيحةٍ.

3 . بعضُ الصفاتِ التي تُطْلَقُ من بابِ المقابلةِ:

وردَتَ في القرآن الكريمِ أفعالٌ أطلقها الله عزّ وجلّ على نفسِه على سبيلِ الجزاءِ والعدلِ والمقابلةِ، وهي فيما سيقت فيه مدحٌ وكمالٌ، ولكن لا يجوزُ أن يشتقَّ للهِ تعالى منها أسماءٌ، ولا تطلقُ عليه في غيرِ ما سيقتْ فيه من الآيات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء :142] وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران :54] وقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة :67] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة :14 . 15] .

فلا يطلَقُ على اللهِ لفظُ (مخادعٍ، ماكرٍ، ناسٍ، مستهزئٍ)، ونحو ذلك . تعالى الله عنه علواً كبيراً . ولا يقال: (اللهُ يستهزِئٌ، ويخادِعُ، ويمكرُ، وينسى)، على سبيل الإطلاقِ، وقد أخطأَ الذين عدُّوا ذلك من أسمائه الحسنى خطأً كبيراً، لأنَّ الخداعَ

والمكرَ يكونُ مدحاً ويكون ذمّاً، فلا يجوزُ أن يطلقَ على الله إلا مقيّداً بما يزيلُ الاحتمالَ المذمومَ منه، كما ورد مقيّداً في الآيات[1].

4. الله منزهٌ عن كلِّ صفة نقص:

- يُنَزَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ عن الغفلةِ والنسيانِ بأي وجهٍ من الوجوه، لأنّه عالمُ الغيبِ والشهادةِ، وعلمُه محيطٌ بكلِّ شيءٍ، فلا يعرضُ له ما يعرِضُ لعلم المخلوقِ من خطأٍ بعضِ المعلومات، أو نسيانها، أو الذهول عنها، قال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى *﴾ [طه: 52] .
- ومنَّزهٌ عن الاحتياج إلى الرزق والطعام، لأنه هو الرزاقُ لجميع الخلقِ، الغنيُّ عنهم، وكلُّهم فقراءُ إليه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ *إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ *﴾ [الذاريات:56. 58] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾ [الانعام: 14] .
- والله مُنَزَّهٌ عن ظُلْمِ العبادِ، بأن يزيدَ في سيئاتهم، أو ينقصَ من حسناتهم، أو يعاقبهم على ما لم يفعلوا، فإنَّ الظلمَ لا يفعله إلا مَنْ هو محتاجٌ إليه، أو مَنْ هو موصوفٌ بالجَوْرِ، أمّا الله فهو الغنيُّ عن خلقه من جميعِ الوجوهِ، الحكمُ العدلُ الحميدُ، فما له وظلم العباد؟ قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ *﴾ [فصلت: 46] .
- والله منزَّهٌ عن العبث في الخلق والأمر، فلم يخلق سبحانه وتعالى شيئاً عبثاً ولا باطلاً، ولا شرعَ إلا حكمةً عظيمةً، لأنه حكيمٌ حميدٌ، من تمام حكمته وحمده إتقانُ المصنوعاتِ وإحكامُها، وإحكامُ الشرائع على أكملِ وجهٍ وأتمّه[2].

---

[1] معارج القبول (1 / 76).

[2] الحق الواضح المبين لابن سعدي ص (10).

5 . صفاتُ الله كلُّها صفاتُ كمالٍ: لا نقصَ فيها بوجهٍ من الوجوه، كالحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة، والعزة، والحكمة، والعلو، والعظمة، وغير ذلك، ولله عزَّ وجلَّ المثل الأعلى قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لاَ يؤْمِنُونَ بِالآخرة مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [النحل :60] وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [الروم :27] والمثل الأعلى هو الوصفُ الأعلى، إنّ الخلقَ مضطرون إلى العلم بأنَّ الخالقَ سبحانه وتعالى أجلُّ وأكبرُ وأعلى وأعلمُ وأعظمُ وأكملُ من كلِّ شيء، فهذا مستقرٌّ في فطر الناس، وهو علم ضروري في حقّ من سَلِمَتْ فطرته، فدلالةُ الفطرةِ على الصفات واضحةٌ وبينةٌ، فإنَّ كلَّ حادثٍ لابدَّ له من محدث، وهذا المحدِثُ لابدَّ أن يكونَ قادراً، عالماً، مريداً، حكيماً، فالفعل يستلزمُ القدرةَ، والإحكامُ يستلزم العلم، والتخصيصُ يستلزِم الإرادةَ، وحُسْنُ العاقبةِ يستلزم الحكمةَ.

وفي الفطرةِ الإقرارُ لله تعالى بالكمال المطلق، الذي لا نقص فيه بوجهٍ من الوجوه. وكذلك في الفطرة تنزيه الله عن النقائص والعيوب، ومن القضايا البدهية المستقرة في الفطرة أنّ الذي يعلمُ، والذي قدّر، والذي يتكلَّم ويبصر: أكملُ من الفاقد لذلك، ولهذا يذكر الله تعالى هذه المسألة بخطابِ الاستفهام الإنكاري، ليبيِّن أنها مستقِرَّةٌ في الفطرةِ، وأنّ النافي لها قال قولاً منكراً في الفطرة، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ *﴾ [النحل :17] . فالتسويةُ منكرَةٌ في الفطرة، ويُنْكَرُ ذلك على مَنْ سوَّى بينهما، فالذي ليست لديه صفاتُ كمالٍ، لا يمكِنُ أن يكون ربّاً، ولا معبوداً،

وأنَّ العلم بذلك فطري[1]، كما قال الخليل قال تعالى ﴿يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا *﴾ [مريم :42] وقال تعالى عَنْ عجلِ بني إسرائيل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ *﴾ [الاعراف :148] .

6 . من لوازم استحقاقِ الله تعالى لصفاتِ الكمال تفرُّدُه بالحُكْمِ: فمن الآيات القرآنية التي أوضحَ تعالى بها صفاتِ مَنْ له الحُكم والتشريع قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى :10] ثم قال مبيّناً صفاتِ مَنْ له الحُكم: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ*﴾ [الشورى :10 . 12] ذكر سبحانه وتعالى صفاتِ الربِّ الذي تفوَّضُ إليه الأمور، ويُتَوَكَّلُ عليه، وإنّه فاطر السماوات والأرض وخالقها، على غير مثالٍ سابقٍ، وأنّه هو الذي خلقَ للبشر أزواجاً، وخلقَ لهم أزواج الأنعام الثمانية المذكورة[2]. وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *﴾ [الشورى :11] وأنه: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الشورى :12] وأنه سبحانه وتعالى: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى :12] و(يَقْدِر) أي يضيقه على مَنْ يشاء، وهو بكلِّ شيءٍ عليم، فعلى المسلمِ أن يتفقَّه صفاتِ مَنْ يستحقُّ أن يشرّعَ ويحلّل ويحرّمَ[3].

---

[1] عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين ص (102).
[2] أضواء البيان بتصرف (7 / 163).
[3] من عقيدة المسلمين ص (141).

7 . نفيُ معاني أسمائه الحسنى مِنْ أعظمِ الإلحاد فيها: قال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [الاعراف :180] لأنّها لو لم تكن تدلُّ على معانيَ وأوصاف لم يَجُزْ أن يُخْبَرَ عنها بمصادرِها، ويُوْصَفَ بها، ولكنّ الله أخبرَ عن نفسِه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ *﴾ [الذاريات :58] فعُلِمَ أنَّ القوي من أسمائه، ومعناه الموصوفُ بالقوة. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر :10] فالعزيزُ مَنْ له العزّةُ، فلولا ثبوتُ القوة والعزةِ لم يسمَّ قوياً ولا عزيزاً، وهكذا في سائر أسمائه.

وحقيقةُ الإلحادِ فيها . أي في أسمائه تعالى . العدولُ عن الصوابِ فيها، وإدخالُ ما ليس من معانيها فيها:

أ . كأن تسمّى بعضُ المعبوداتِ باسمٍ من أسماء الله تعالى، أو يقتبَسَ لها اسمٌ من بعض أسمائه تعالى: كتسمية المشركين بعضَ أصنامهم «اللات» أخذاً من «الإله» و«العُزّى» أخذاً من «العزيز» وتسميتهم الأصنامَ أحياناً «الهة» وهذا إلحادٌ واضحٌ كما ترى، لأنّهم عدلوا بأسمائه تعالى إلى معبوداتهم الباطلة.

ب . وكتسمية تعالى بما لا يليق به، كتسمية النصارى له «أب»، وإطلاقِ الفلاسفةِ عليه «موجباً لذاته» أو «علّة فاعلةً بالطبع» ونحو ذلك.

ج . وكوصف الله تعالى بما يُنَزَّهُ عنه سبحانه، كقولِ اليهود (ولعنوا بما قالوا): إنّه فقيرٌ، وقولهم: إنَّه استراحَ بعدَ أن خلقَ خلقه، وقولهم: أيضاً (غلت أيديهم): يدُ اللهِ مغلولةٌ، وغير ذلك من الألفاظ التي يطلقها أعداءُ الله قديماً وحديثاً.

د ـ وكتعطيل أسمائه تعالى عن معانيها، وهي الصفاتُ، وجحدِ حقائقها، كما فعل بعضُ الفرق المبتدعةِ، حيث جعلوا أسماءَ اللهِ ألفاظاً مجرّدةً، لا تدل على الصفات، كقولهم: سميعٌ بلا سمعٍ، وعليمٌ بلا علمٍ.

هـ وكتشبيه الله تعالى بصفات خلقه[1].

8 ـ آثار الصفات الإلهية في النفس والكون والحياة: ومشهدُ الأسماء والصفات من أجلِّ المشاهدِ، والمطَّلِعُ على هذا المشهدِ يعرِفُ أنَّ الوجودَ متعلِّقٌ خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى، والصفات العلى، ومرتبِطٌ بها، وإنَّ العالمَ بما فيه من بعض اثارِها ومقتضياتها. فاسمه «الحميد، المجيد» يمنعُ تركَ الإنسان سدًى مهمَلاً معطَّلاً، لا يؤمَرُ ولا يُنْهَى، ولا يُثاب ولا يُعاقب. وكذلك اسمه «الحكيم» يأبى ذلك، فكلُّ اسمٍ من أسمائه له موجباتٌ، وله صفاتٌ، فلا ينبغي تعطيلُها عن كمالها ومقتضياتها.

والربُّ تعالى يُحِبُّ ذاتَه وأوصافَه وأسماءه، فهو عفوٌّ يحبُّ العفوَ، ويحبُّ المغفرةَ، ويحبُّ التوبةَ، ويفرحُ بتوبةِ عبدِهِ حينَ يتوبُ إليه فرحاً لا يخطرُ بالبال، وكان تقدير ما يغفره، ويعفو عن فاعله، ويحلمُ عنه، ويتوبُ عليه، ويسامحه بموجب أسمائه وصفاته، وحصولِ ما يحبُّه ويرضاه من ذلك.

وما يحمد به نفسَه، ويحمده به أهلُ سماواته وأهل أرضه، وما هو من موجباتِ كماله، ومقتضى حمده، وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمدهُ ومجدُه يقتضيان اثارهما:

ومن آثارهما: مغفرةُ الزلات، وإقالةُ العثراتِ، والعفو عن السيئاتِ، والمسامحةُ على الجنآيات، مع كمالِ القدرةِ على استيفاءِ الحق، والعلم منه سبحانه بالجناية، ومقدار

---

[1] بدائع الفوائد لابن القيم (1 / 169).

عقوبتها، فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد قوته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته[1].

كما قال الله على لسان عيسى عليه السلام في القرآن: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [النساء :118] أي: فمغفرتُك عن كمالِ قدرتك، وحكمتُك ليست كمن يغفرُ عَجْزاً، ويسامِحُ جهلاً بقدر الحق، بل أنتَ عليمٌ بحقك، قادِرٌ على استيفائه، حكيمٌ في الأخذِ منه.

فمن تأمّلَ سريانَ اثار الأسماء والصفات في العالم وفي الأمر، تبيّنَ له أنّ مصدرَ قضاء هذه الجنآيات من العبيد، وتقديرها: هو مِنْ كمالِ الأسماء والصفات والأفعال، وغايتها أيضاً مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته، فلله في كلِّ ما قضاه وقدّره الحكمةُ البالغةُ والآيات الباهرةُ.

والله سبحانه دعا عبادَه إلى معرفته بأسمائه وصفاته، وأمرهم بشكره ومحبته وذكره، وتعبّدهم بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، لأنّ كلَّ اسمٍ له تعبُّدٌ مختصٌّ به، علماً، ومعرفة، وحالاً.

وأكملُ الناسِ عبوديةً المتعبّدُ بجميع الأسماءِ والصفاتِ، التي يطّلعُ عليها البشرُ، فلا تحجبُه عبوديةُ اسمٍ عن اسمٍ آخر، كما لا يحجبُه التعبُّدُ باسمه «القدير» عن التعبُّدِ باسمه «الحليم الرحيم»، أو تحجبُه عبوديةُ اسمه «المعطي» عن عبودية اسمه «المانع»، أو عبودية اسمه «الرحيم والعفو والغفور» عن اسم «المنتقم»، أو التعبد بأسماءِ «البر والإحسان واللطف» عن أسماء «العدل والجبروت والعظمة والكبرياء» وهذه طريقةُ الكمال من السائرينَ إلى الله، وهي طريقةٌ مشتقةٌ من قلب القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الاعراف :180] والدعاء بها يتناولُ دعاءَ المسألةِ،

[1] مدارج السالكين ص (417 ، 418).

ودعاءَ الثناء، ودعاءَ التعبُّدِ[1]. وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظّهم من عبوديتها.

فالله سبحانه وتعالى يُحبُّ موجِبَ أسمائه وصفاته، فهو «عليمٌ» يحبُّ العلمٍ، وهو «جَوَادٌ» يحبُّ الجود، «وترٌ» يحبُّ الوتر، «جميل» يحبُّ الجمال، «عفوٌّ» يحب العفوَ وأهلَه، «حييٌّ» يحبُّ الحياءَ وأهلَه، «بَرٌّ» يحبُّ الأبرار، «شكور» يحبُّ الشاكرين، «صبورٌ» يحبُّ الصابرين، «حليمٌ» يحبُّ الحلمِ.

فلمحبته سبحانه للتوبةِ والمغفرةِ، والعفوِ، والصفحِ: خلقَ مَنْ يغفِرُ لهم، ويتوبُ عليهم، ويعفو عنهم، وقدّر عليهم ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له، ليترتّب عليه المحبوبُ له، المرضي له[2].

وظهور أسماء الله وصفاته في هذه الحياة، وفي النفس البشرية، وفي الكون كله: واضحٌ، لايحتاجَ إلى دليل، إلا أنّ الاهتداء إلى تلك الاثار، أو الانتباه لها، يتوقّفُ على توفيق الله تعالى، بل إنّ التوفيقَ نفسَه من اثارِ رحمته التي وسعتْ كلَّ شيءٍ.

فلو فكّر الإنسانُ في هذا الكونِ الفسيحِ وفي نفسِه لرجعَ من هذه الجولة الفكرية بعجائب، واستفاد منها فوائد، ما كان يحلُمُ بها، ولو تأملنا هذه الآية الكريمة لرأينا أموراً يعجز الإنسان عن التعبير عنها، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ *فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ *﴾ **[طه:115. 116]** .

---

[1] مدارج السالكين (2 / 419).

[2] المصدر نفسه (2 / 420).

ومما يؤكد أهمية هذا التوحيد هو ما تثمره أسماءُ الله وصفاتُه في قلب المؤمن من زيادةٍ في الإيمانِ، ورسوخٍ في اليقين، وما تجلبه له من النورِ والبصيرةِ التي تحصّنه من الشبهاتِ المضلّة والشهواتِ المحرّمة[1].

فهذا العلم إذا رسخَ في القلب أوجبَ خشيةَ الله لا محالةَ، فكلُّ اسمٍ من أسماء الله له تأثيرٌ في القلبِ والسلوكِ، فإذا أدركَ القلبُ معنى الاسم، وما يتضمنه، واستشعر ذلك، تجاوبَ مع هذه المعاني، وانعكست هذه المعرفةُ على تفكيره وسلوكه.

ولكلِّ صفة عبوديةٌ خاصّةٌ، هي من موجباتها ومقتضياتها، فالأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضاها بثمارها من العبودية، وهذا مطرِّدٌ في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فمثلاً:

عِلْمُ العبد بتفرّد الربِّ تعالى بالضرّ والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة، يثمِرُ له عبوديةَ التوكّل عليه باطناً، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً.

وعلمُه بسمعه وبصره، وعلمه أنّه لا يخفى عليه مثقالُ ذرّةٍ في السماوات ولا في الأرض، وأنّه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنةَ الأعين وما تخفي الصدور، يثمِرُ له حفظَ لسانِهِ وجوارحِهِ، وخطراتِ قلبه عن كلِّ ما لا يرضي الله، وأن يجعلَ تعلّق هذه الأعضاء بما يحبُّه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياءَ باطناً، ويثمِرُ له الحياءُ اجتنابَ المحرّمات والقبائح.

---

[1] انظر: دراسات في مباحث الأسماء والصفات ص (14 ، 15).

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره، وإحسانه ورحمته توجب له سعةَ الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواعِ العبودية[1] الظاهرةِ والباطنةِ بحسب معرفته وعلمه.

وكذلك معرفته بجلال الله وعزِّه تثمر له الخضوعَ والاستكانةَ والمحبةَ، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها.

وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبَّةً خاصةً بمنزلة أنواع العبودية، فرجعت تلك العبوديةُ كلُّها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها[2].

وهذه الأحوال التي تتّصف بها القلوب هي أكمل الأحوال، وأجلّ وصف يتصف به القلب وينصبغ به، ولا يزالُ العبدُ يمرّن نفسَه عليها، حتى تنجذبَ نفسُه وروحُه بدواعيه منقادةً راغبةً، وبهذه الأعمال القلبية تَكْمُلُ الأعمالُ البدنيةُ، فنسألُ الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته، والإنابة إليه، فإنّه أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين[3].

خامساً . أثر الصفات الإلهية على الأخلاق:

تحدّث الشيخ عز الدين بن عبد السلام في كتابه «شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال» على صفات الله، وكيفية توحيده وتنزيهه، والوجه الأسلم في ذلك، وكيفية التخلّق بصفات الله عز وجل، فقال:

1 . التخلّق بالقدوس:

القدُّوس هو الطاهر من كل عيب ونقصان، وثمرة معرفته: التعظيمُ، والإجلالُ.

---

[1] مفتاح دار السعادة (2 / 90).

[2] مفتاح دار السعادة (2 / 90).

[3] القواعد الحسان لتفسير القران للسعدي ص (130).

والتخلق به: بالتطهر من كلّ حرامٍ ومكروهٍ وشبهةٍ، وفضلِ مباحٍ شاغلٍ عن مولاك.

2 . التخلّق بالسلام:

إنْ أُخذَ من تسليمه على عبادِهِ فعليك بإفشاء السلام، فإنّه من أفضل خصالِ الإسلامِ.

وإنْ أُخِذَ من السلامة من العيوبِ، فهو كالقدُّوس.

وإن أُخِذَ من الذي سَلِمَ عبادُه من ظلمه، فليسلمِ الناسُ من غِشِّك وظُلْمِكَ وضرِّك وشرِّكَ، فإنَّ «المسلمَ مَنْ سلمَ المسلمونَ مِنْ لسانِهِ ويدِه»[1].

3 . التخلّق بالإيمان: «المؤمن»:

إن أُخِذَ من تصديقِ الله نفسَه، فعليك بالإيمانِ بكلِّ ما أنزله الرحمن.

وإن أُخِذَ من أمنِ العبادَ من ظلمِهِ، فأظهِرْ مِنْ برِّك وخيرك ما يُؤمِّنْ الناسَ من شرِّكَ وضَيْرِكَ.

وإن أُخِذَ من خالقِ كلِّ أَمْنٍ، فاسعَ لعبادِ اللهِ مِنْ كلِّ أمنٍ[2].

4 . التخلّق بالهيمنة:

«المهيمن»، هو الشهيدُ، فإنْ أُخِذَ من مشاهدته لعباده واطلاعه عليهم في القيامة. فثمرة معرفته خوفك وحياؤك من شهادته عليك إنْ عصيتَه، ورجاؤك شهادته لكَ إنْ أطعتَه.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (10) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان تفاضل الإسلام ، وأيُّ أموره أفضل (41).

[2] شجرة المعارف ص (39).

والتخلّق به أن تقوم بالشهادةِ في كلِّ ما نفعٍ وضرّ، وظاهر وسرّ، ولو على نفسِكَ أو الوالدين والأقربين.

5 . التخلّق بالعزة:

«العزيز»، إنْ أُخِذَ من الغلبة، فهو كالقهّار، وثمرة معرفته: الخوفُ.

وإنْ أُخِذَ من الامتناع من الضيّم، فلا تخلّقَ به إلا في بعض الضُيوم، كضيم الكفّار الفجّار.

وإن أُخِذَ من الذي يعزُّ وجودهُ مثلِه، فهو سالبٌ للنظير، فلا تخلُّقَ به إلا بالتوحُّدِ بالطاعة والعرفان على حسب الإمكان، بالنسبة إلى أبناء الزمان[1].

6 . التخلّق بالجبر «الجبار»:

إنْ أُخِذَ من جبروت العَظْمِ والفقير إذ أصلحتهما، فثمرت معرفته رجاء جبره وإصلاحه. والتخّلق به بأن تعامل عباده بكل خير وإصلاح تقدرُ عليه، أو تصلُ إليه.

وإن أخِذَ من العلو فهو كالعلي، وثمرة معرفته كثمرات معارف جميع الصفات.

وإن أخذ من الإجبار، فهو كالقهار[2].

7 . التخلّق بالتكبر عن الرذائل:

«المتكبر»:

إنْ أُخِذَ من تكبره عن النقائص فهو كالقدُّوس، فتكبَّر عن كلِّ خلق دنيءٍ.

وإنْ جُعِلَ شاملاً لجميع الأوصاف، فثمرة معرفته الإجلالُ والمهابةُ في جميع الأحوال الحادثاتِ مِنْ سائر الصفاتِ، وكذلك العظيم والجليل والعلي والأعلى[1].

---

(1) المصدر نفسه ص (39).

(2) شجرة المعارف ص (39).

8 . التخلّق بالحلم: «الحليم»: هو الذي لا يعجّلُ بعقوبةِ المذنبين، فاحلمْ عن كلِّ مَنْ اذاك وظلمك وسبّك، وشتمك، فإنَّ مولاك صبورٌ حليمٌ، بَرٌّ كريمٌ، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ *﴾ [الشورى: 25] .

9 . التخلّق بالصبر: «الصبور»: هو الذي يعامِلُ عبادهَ معاملةَ الصابرين، فعليك بالصبر على أذية المؤذين، وإساءة المسيئين، فإنّ الله يحبُّ الصابرين[2].

10 . التخلّق بالإعزاز: «المعز»: خالق العِزِّ، وثمرةُ معرفته الطمَعُ في إعزازه بالمعارف والطاعات، والتخلق به بإعزاز الدين، ومن تبعه من عباد الله المؤمنين.

11 . التخلّق بالإذلال: «المذل» خالِقُ الذُّل، وثمرة معرفته خوفُ الإذلالِ بالمعاصي والمخالفات، والمعاملة به بإذلالِ الباطلِ وأشياعِهِ، وإخمالِ العُدوان وأتباعه[3].

12 . التخّق بالانتقام: «المنتقم»: هو المعذِّبُ لما يشاء من عباده عَدْلاً، وثمرة معرفته: الخوفُ من انتقامه. والتخلق به لمن ابتُلي بشيءٍ من الولآيات بالانتقامِ من الجنَاةِ بالحدود والتعزيزات والعقوبات المشروعات[4].

13 . التخلّق باللطف: «اللطيف» إن أُخِذَ من معرفة الدقائق، فثمرة معرفته خوفك ومهابتك وحياؤك من معرفته بدقائق أحوالك، وخفايا أقوالك وأعمالك، إذ لا يعزُبُ عن خالق الأشياء مثقالُ ذرّةٍ في الأرض ولا في السماء ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ *﴾ [الملك: 14] .

---

(1) المصدر نفسه ص (39).

(2) المصدر نفسه ص (39).

(3) المصدر نفسه ص (41).

(4) المصدر نفسه ص (43).

14 . الخلّق بالشكر: «الشكور»: إن أُخِذَ من ثنائه على عباده، فثمرة معرفته رجاؤك الدخولَ في مدحته بطاعته ومعرفته، والتخلق به بشكر مولاك، وشكر أبويك، وشكر كلِّ مَنْ أحسنَ إليك[1]، «من لا يشكرِ الناسَ لا يشكرِ الله»[2].

15 . التخلّق بالحفظ: «الحفيظ»:

إن أُخِذَ من العلم، فقد سبق. وإن أخذ من ضبط الأشياء وحفظها، فثمرة معرفته: رجاؤك حفظه في أُولاك وأُخراك.

والتخلّق به بحفظ ما أمرتَ به من الطاعات والأمانات، فإنَّ الله قد مدح الحافظين لحدوده، وبشَّرَهُم بإنجاز وعودِه، فقال: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ *﴾ [ق:32] .

16 . التخَلُّق بالتقديم والتأخير: «المقِّدم والمؤخِّر»، ثمرة معرفتها المهابة والإجلال، والاعتماد عليه في تقديمه وتأخيره، ورجاء أن يُقدِّمَك بطاعته، وخوف أن يؤخِّرك بمعصيته، والتخلق بهما: بتقديم ما أُمِرْتَ بتقديمه، وتأخير ما أُمِرَت بتأخيره، بأن تقدم الأماثل على الأراذل، وأن تقدِّمَ أوجبَ الطاعاتِ على واجبها، وأفضلها على فاضلها، ومضيَّقَها على موسَّعها، وبأنْ تقدِّمَ القُربات والطاعات إلى أوائل الأوقات، فإنَّ الله مدح الذين يسارعون في الخيرات[3].

---

[1] شجرة المعارف والأحوال ص (45).

[2] أخرجه الترمذي في جامعه ، كتاب: البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب: ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه أبو داود بلفظ «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» ، كتاب: الأدب ، باب في شكر المعروف (4811).

[3] شجرة المعارف ص (45).

17 . التخلّق بالبَرّ: (البَّر): هو المنعم، وثمرة معرفته رجاءُ أنواع برّه، والتخلق به بأنْ تبَرَّ كُلَّ مَنْ تقدِرُ على بِرّه بأحبِّ أموالك إليك، وأنفسِها لديك، فإنَّ مولاك يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92] .

18 . التخلّق بالتوبة: «التّواب»:

إن جُعِلَ بمعنى الموفِّق للتوبة، فثمرة معرفته: رجاءُ توبته عليك، والتخلق به: بأن تَحُثَّ المسيءَ على التوبة، وتحرِّضهُ على الأوْبَة.

وإن جُعِلَ بمعنى قابل التوبة، فاقبل عذر مَنْ أساءَ إليك، ونَدِمَ على جرأته عليك[1].

19 . التخلّق بمعنى المغني: والتخلّقُ به بأن تُغني كلَّ محتاجٍ بما تقدر عليه من عِلْمٍ وغيره، فتذكِّرَ الغافل، وتُعلِّمَ الجاهل، وتُقيمَ المائل، وتُغنيَ العائلَ.

20 . التخلّق بالضُّر والنَّفع: «الضار والنافع»: ثمرة معرفتهما: خوفُ الضَّرر، ورجاءُ النفع، والتخلق بهما:

بنفعِ كلِّ مَنْ أُمرتَ بنفعِهِ، وضرِّ كلِّ مَنْ أُمرت بضّره بحدٍّ أو قتلٍ أو غيره، والخَلقُ عيالُ الله، فأحبّهم إليه أنفعُهم لعياله، فعليكَ ببذل المنافع لكلّ دانٍ وشاسعٍ[2].

21 . التخلّق بهداية الضال: «النورُ» الهادي، ثمرة معرفته: رجاؤك أن ينوِّر جَنَانك بمعرفته، ويزيّنَ أركانك باثار هدايته، والتخلّق به: بأن تكون نوراً من أنوار الله، هادياً

---

[1] شجرة المعارف ص (47).

[2] المصدر نفسه ص (48).

إلى صراطِ الله. «فوالله لأن يهدي الله بكَ رجلاً واحداً خيرٌ لك مِنْ أن يكونَ لكَ حُمْرُ النَّعم»[1].

22 . التخلّق بالقبض والبسط: «القابض الباسط»: ثمرة معرفتهما: الخوفُ من قبضِ منافع الدنيا والآخرة، ورجاءُ بسطِ الخيرات العاجلة والآجلة.

والتخلّقُ بالبسط: بأنْ تبسطَ برّك، ومعروفك على كلِّ محتاجٍ، حتى على الدواب والكلاب والذرِّ، إذ «في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ»[2].

والتخلق بالقبض بأن تقبِضَ عن كلِّ أحدٍ ما ليس له أهلاً، من مالٍ، وولايةٍ، وعلمٍ، وحكمةٍ، فلا تؤتوا السفهاء أموالكم فيتلفوها[3].

23 . التخلّق ببذل الهبات: «الوهّاب»: ثمرة معرفته: رجاءُ أنواع هباته وصِلاته، والتخلّق به: بكثرة الهباتِ والصلاتِ، مقدِّماً للاباء والأمهات، والبنين والبنات.

24 . التخلّق بالجود والكرم: «الجواد الكريم» ثمرةُ معرفتهما: الطمعُ في اثار جوده وكرمه، والتخلق بهما: لمن أرادَ الوصولَ إليه بأن يجودَ بكلِّ ما يقدِرُ عليه مِنْ مالٍ، وجاهٍ، وعلمٍ، وحكمةٍ، وبرٍّ، ومساعدةٍ.

25 . التخلّق بالإجابة: «المجيب» ثمرةُ معرفته: رجاءُ إجابةِ دعائك، لعلمه بافتقارك إليه، واعتمادك عليه، وأنّه سامعٌ لدعائك، عالمٌ ببلائك، خابرٌ لسرّائِك

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: المناقب ، باب: مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي (3498). ومسلم في صحيحه كتاب: فضائل الصحابة ، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (2406).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: المساقاة ، باب: فضل سقي الماء (2234) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: السلام ، باب: فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها (2244).

[3] شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال ص (49).

وضرّائِك، والتخلّق به: بإجابة مولاك فيما دعاك إليه من قُرُباته، وبإجابة كلِّ داعٍ إلى ما يُرضي مولاك في طاعاته وعباداته[1].

26 . التخلّق بالمجد: «المجيد» الذي كثر شرفُه، وتمّ كمالهُ وجلالُه في ذاته وصفاته، وثمرة معرفته: المهابة والإجلال. والتخلق به: يمكن التخلّقُ به مما سبق ذكره، فإنه شاملٌ لجميعِ الصفات، كما شملها ذو الجلال والإكرام.

فهذه إشاراتٌ إلى كيفية التخلّق بالصّفات، ولا يحصل التخلّق بالصفات إلا لِمَنْ واظبَ على التحديق إليها، والإقبال عليها، ولذلك أمرنا الله تعالى بإكثار ذكره لنُلابس ما يثمره ذكره من الأحوال والأقوال والأعمال[2].

سادساً . وصف الله نفسه بالمغفرة لا يعني الإغراء بالمعاصي:

وصف الله سبحانه نفسَه بأنه غفّار وغفور للذنوب والخطايا والسيئات لصغيرها وكبيرها، وحتى الشرك إذا تاب منه الإنسان، واستغفر ربه، قِبل الله توبته، وغفر له ذنبه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *﴾ [الإسراء: 53] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا *﴾ [النساء: 110] ومهما كبرتْ ذنوبُ هذا الإنسان فإنَّ مغفرة اللهِ ورحمتَه أعظمُ من ذنوبه التي ارتكبها، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: 32] .

---

[1] المصدر نفسه.

[2] المصدر نفسه ص (50).

وقد تكفّل الله سبحانه بالمغفرة لمن تاب وآمن، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى *﴾ [طه :82] ومن فضله وجوده وكرمه تعهده أن يبدِّلَ سيئاتِ المذنبين حسناتٍ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *﴾ [النساء :96] .

ولكن لا يجوزُ للمسلمِ أن يُسْرِفَ في الخطايا والمعاصي والفواحش بحجّة أنّ الله غفور رحيم، فالمغفرةُ إنّما تكون للتائبين الأوابين، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا *﴾ [الإسراء :25] وقال سبحانه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [النمل :11] فاشترط تبدُّلَ الحال من عمل المعاصي والسيئات إلى الصالحات والحسنات، لكي تتحقّقَ المغفرةُ والرحمةُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء :48] يبين الله أنَّ المقيمَ على الشرك حتى الوفاة لا غفرانَ لذنوبه، لأنّه لم يبدّل حسناً بعد سوءٍ، وكذلك قوله تعالى عن المنافقين: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون:6] لأنهم لم يخلصوا دينهم لله، ولم يصلحوا من أحوالهم.

وأمّا إذا حصل ذلك فإنَّ المغفرةَ تحصلُ لهم مع المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا *﴾ [النساء :146] فلابدَّ من الأخذِ بالأسبابِ المؤدية إلى المغفرة، وأمّا إنْ مات وهو مقيمٌ على الكبائر مِنْ غيرِ أن يتوبَ، فإنّه ليسَ له عهدٌ عند الله بالمغفرة والرحمة، بل إنْ شاءَ غفر له وعفا عنه لفضله، وإن شاء عذبه في النار لعدله، ثم يخرجه برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يدخله الجنَّة، وذلك للموحّدين خاصّةً[1].

* * *

[1] النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ص (150 ، 151) شرح الطحاوية ص (416 . 421).

المبحث الخامس

توحيد العبادة

أولاً . تعريفه ومكانته الخاصة.

ثانياً . الطريقة القرآنية في الدعوة إلى توحيد العبادة.

ثالثاً . معنى العبادة وشروط قبولها.

رابعاً . حقيقة العبادة.

خامساً . أنواع العبادة.

سادساً . أقسام العبادات.

سابعاً . أفضل العبادات.

ثامناً . تحكيم الشريعة، وارتباطها بالتوحيد.

تاسعاً . الاثار الحسنة للحكم بما أنزل الله.

عاشراً . الاثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله.

حادي عشر . حماية الرسول صلى الله عليه وسلم لتوحيد العبادة.

المبحث الخامس : توحيد العبادة

أولاً . تعريفه ومكانته خاصة[1]:

هو إفرادُ الله عزّ وجل بجميع أنواع العبادات، وإخلاصُهَا له وحده لا شريك له، ظاهراً وباطناً، وهو توحيدُ الله تعالى بأفعال العباد، ويسمّى ايضاً توحيد الأولوهية، لأنّ العبودية والألوهية بمعنًى واحداً، إذ معنى الإله: المعبود[2]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين[3].

وهذا التوحيدُ أعظمُ أنواعِ التوحيدِ وأهمُّها، والمتضمّنُ لها جميعاً، ولا يصيرُ العبدُ مؤمناً إلا بتحقيقه، وهو الذي لأجله خلقَ الله عبادَه، وأنزلَ كتبه، وبعثَ أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام[4]، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *﴾ [الذاريات: 56] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ﴾ [النحل: 36] وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: 5] .

وهذا التوحيدُ هو معنى قول: (لا إله إلا الله) والتي معناها: لا معبود بحقّ إلا الله[5].

---

[1] المنهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ص (150 ، 151) ، شرح الطحاوية ص (416 . 421).

[2] حماية الرسول حمى التوحيد ص (234).

[3] دعوة التوحيد ، خليل الهراس ص (37) ، وتفسير الطبري (1/ 123) وقال أحمد شاكر: إسناده ضعيف.

[4] حماية الرسول حمى التوحيد ص (234).

[5] منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل (1 / 261).

ومما يدلُّ على أهمية توحيد العبادة أنّه هو التوحيدُ الذي أَرْسَلَ الله به الرُّسلَ من أولهم إلى آخرهم، واتفقتْ دعوةُ الرسلِ من أوّل رسولٍ بعثه الله إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، اتفقتْ دعوتهم إلى البَدْءِ بدعوة أقوامهم إلى إخلاص العبادةِ لله، ونبذ الشرك بكل صوره وأسبابه ووسائله المؤدية إليه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ *﴾[الأنبياء: 25] .

وقال تعالى عن نبيّه نوح عليه السلام أنّه قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *﴾ [الاعراف: 59] .

وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام أنّه قال لقومه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *﴾ [العنكبوت: 16] .

وقال تعالى عن كليمه موسى عليه السلام أنّه قال لقومه: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا *﴾ [طه: 98] .

وقال تعالى عن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام أنّه قال لقومه: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ *﴾ [الزخرف: 63. 64] .

وأول ما بدأَ به خاتمهم محمّد صلى الله عليه وسلم دعوتَه إلى الله عز وجل دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله، ونبذ الشرك بأنواعه ووسائله وأسبابه بالقول والفعل، فحمى رسول الله صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد، ودعا إليه، وأنذر الشركَ غايةَ الإنذار، واستمرّ على هذا المنهج حتى لحقَ بالرفيق الأعلى صلى الله عليه وسلم.

واقتدى به أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، وكلُّ مَنْ اتّبع طريقته، واستنّ بسنته، فطريقتُه في الدعوة هي: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي

وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: 108] وفي هذه الآية أمرَ اللهُ رسولَه صلى الله عليه وسلم أن يخبِرَ الناسَ أنّ هذه سبيلُه أي: طريقتُه ومسلكُه وسنّته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا اله وحدَه لا شريكَ له، يدعو بها على بصيرةٍ من ذلك ويقين وبرهان، وكلُّ من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على بصيرةٍ وبرهانٍ عقلي وشرعي[1].

وقد بيّنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنَّ توحيد العبادة أساسُ الإسلام، وأنّه أول ما يبدأ به في الدعوة إلى الله، ويدل على ذلك رسائِلُه صلى الله عليه وسلم، ومبايعته، وجهاده، ووصاياه لقواده، وغير ذلك من الأمور.

ومن الأمثلة الدالة على هذا:

1 ـ إرساله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن لدعوة قوم من أهل الكتاب إلى توحيد الله عز وجل، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لما بعثَ معاذاً إلى اليمن قال له: «إنّكَ تأتي قوماً مِنْ أهلِ الكتابِ، فليكنْ أوّلُ ما تدعوهم إليه شهادةَ أنْ لا إلهَ إلا الله»، وفي رواية: «إلى أن يوحّدوا الله، فإنْ هُمْ أطاعوكَ على ذلك، فأَعْلِمُهم أنَّ الله افترضَ عليهم خمس صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ»[2].

فبيّن له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّ أولَ ما يَبْدَأُ به في الدعوة إلى الله تعالى شهادةُ أن لا إله إلا الله، وإخلاصُ العبادةِ له جلا وعلا[3].

---

[1] تفسير ابن كثير (2 / 513 ـ 514).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: المغازي ، باب: بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع (4090) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (19).

[3] منهج السلف والمتكلمين (1 / 267).

2 . وكذلك أمره صلى الله عليه وسلم عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوم خيبر بدعوة اليهود إلى التوحيد أولاً: حيث أعطاه صلى الله عليه وسلم الراية، وقال: «انفذْ على رِسْلِكَ، حتّى تنزلَ بساحتِهم، ثم ادعُهم إلى الإسلامِ، وأخبِرْهُم بما يجبُ عليهم مِنْ حقّ الله تعالى فيه، فواللهِ لأنْ يهدِيَ اللهُ بكَ رَجُلاً واحداً خيرٌ لكَ من أن يكون لك حُمْرُ النّعم»[1]

وفي رواية أخرى: فسار عليٌّ رضي الله عنه، ثم وقفَ، ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله! على ماذا أقاتل الناس؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «قاتلهم حتّى يشهدوا أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ، فإذا فعلوا ذلك، فقد منعوا مِنْكَ دماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّها وحسابُهم على الله»[2].

3 . وكذلك مبايعاته صلى الله عليه وسلم تدلُّ على أنَّ أولَ ما يُبْدَأُ به في الدعوة إلى الله إخلاصُ العبادةِ لله الذي هو التوحيدُ:

ومن الأمثلة على ذلك حديثُ عبادةَ بن الصامت رضي الله عنه قال: قال لنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ونحنُ في مجلسٍ: «تبايعوني على أَنْ لا تشركوا باللهِ شيئاً»[3]: وحديثُ أم عطية رضي الله عنها قالت: بايعنا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا: ﴿أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ [الممتحنة :12][4].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب: المناقب ، باب: مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن رضي الله عنه (3701) ، ومسلم في صحيحه ،كتاب: فضائل الصحابة ، باب من فضائل علي بن أبي طالب (2406).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ،كتاب: فضائل الصحابة ، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (2045).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الأحكام ، باب: بيعة النساء (6787) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الحدود: باب: الحدود كفارات لأهلها (1709).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب: تفسير القران ، باب: {} [الممتحنة: 12] {إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ}

4 . وكذلك جهادُ النبيّ صلى الله عليه وسلم وقتالُه، إنّما كان مِنْ أجلِ دعوةِ الناسِ إلى إخلاصِ العبادةِ لله عز ودجل، والبراءةِ من الشركِ وأهلِه، والدفاعِ عن رايةِ التوحيدِ: فعن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أُمِرْتُ أن أقاتلَ الناسَ حتّى يشهدوا أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ، ويقيموا الصلاةَ، ويؤتوا الزكاةَ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقِّ الإسلامِ، وحسابهم على الله عز وجل»[1].

ثانياً: الطريقةُ القرآنيّة في الدعوةِ إلى توحيد العبادة:

تعددت الأساليب القرآنية في الدعوة إلى توحيد العبادة:

1 . منها بيان آيات ربوبيته سبحانه التي يراها الناس ويقرون بها، وأنّه سبحانه هو خالقها، ثم يختمها بالدعوة إلى إفراده سبحانه بالعبادة، فكما أنّه المتفرّد بهذا الخلق، فيجب أن يكونَ وحدَه سبحانه المتفرّد بالعبادة، لا شريك له، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ *﴾ [البقرة: 21 . 22] وقوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ *أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ *أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: {} [التوبة: 5] {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله... (22).

خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ *أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ *أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ *أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *﴾ [النمل: 59. 64]، يقول الله تعالى في آخر كلِّ اية أي أإله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهامُ ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *﴾، يتضمَّن نفيَ ذلك، وهم كانوا مقّرين بأنّه لم يفعل ذلك غيرُ الله[1].

2 . ومنها شهادةُ الله سبحانه على توحيدِ العبادة: فقد شهد الله لنفسهِ بهذا التوحيدِ، وشهدتْ له به ملائكته وأنبياؤه ورسلُه، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ *﴾ [آل عمران: 18. 19] .

3 . ومنها بيانُ عجزِ الآلهة التي يدعونها من دونِ الله تعالى: وأنّها لا تملكُ لنفسِها كما لا تملك لغيرها نفعاً ولا ضراً من دون الله، وجاء ذلك في آيات كثيرة من كتابِ الله، فعلى سبيل المثال، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ

---

[1] المنحة الإلهية في تهذيب شرح الطحاوية ص (55 ، 56).

وَالْمَطْلُوبُ *﴾ [الحج :73] . والآيات في هذا كثيرة تبيّن عجزَ هذه الالهة التي اتخذوها من دون الله تعالى، وأنها لا تملِكُ لنفسِها ولا لغيرِها نفعاً ولا ضراً.

4 . ومنها بيان ضلال عبّاد هذه الآلهة والتنديد بهم، والتشنيع عليهم، ووصفهم بالغي والعمى، والبعد عن الهدى والرشاد: قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ *وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ *﴾ [الاحقاف :5 . 6] وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *﴾ [العنكبوت :41] وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا *﴾ [الفرقان :3] والآيات في هذا البابِ كثيرةٌ.

5 . ومنها بيان ما يقع يوم القيامة بين هؤلاء المشركين وآلهتهم من براءة بعضهم من بعض، وتخليهم عن عابديهم، وتنكرهم لاتباعهم، في حالٍ هُمْ أحوجُ ما يكونون إلى من يشفع لهم، ويدافع عنهم: ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: 28 -29] .

6 . ومنها ما جاء في قصص الأنبياء والرسل صلى الله عليه وسلم في دعوتهم أممهم إلى توحيدِ اللهِ، وإفرادِهِ وحدَه بالعبادة، وكان ذلك مفتاحَ دعوة كلِّ نبي ورسولِ، وما جرى بينهم وبين أقوامهم لأجله من خصومة، وما دارت بسببه من معارك عظيمة بالبيان والسنان، وما كان مِنْ ذلّةٍ وهلاكٍ لأعداء الله وأعداءِ رسلِهِ، ونصرٍ ومنعةٍ وغلبةٍ

للرسل وأتباعهم، وتلك سنةُ اللهِ في خلقه: وهو الذي يقول بعد ما قصَّ دعوةَ عددٍ من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ *﴾ [هود :83] والآيات عن قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم كثيرةٌ جداً، نكتفي بمثالٍ واحدٍ لذلك وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ *وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ *وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ *﴾ [ابراهيم :9 .14] .

والحديثُ عن قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم في دعوتهم يوضّحُ أنَّ توحيدَ الله وإفرادَه بالعبادةِ وحدَه، لا شريكَ له، هو المهمّةُ الأولى للرسل عليهم الصلاة والسلام.

ومما تقدّم يتبيّن أهمية توحيد العبادة المتضمِّنَ لأنواع التوحيد جميعاً، والمطلوبِ من الناس كافة[1].

ثالثاً ـ معنى العبادة وشروط قبولها:

أ ـ معنى العبادة:

مدارُ العبادةِ في اللغة والشرع على التذلّلِ والخضوعِ والانقيادِ.

والعبادةُ في اللغة من الذلة، يقال: طريقٌ معبّدٌ، وبعيرٌ معبَّد، أي: مذّلل.

وفي الشرع عبارةٌ عمّا يجمعُ كمالَ المحبّةِ، والخضوعِ، والخوفِ[2].

والعبادة في تعريفها الشامل هي: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمالِ الباطنةِ والظاهرةِ، فالصلاةُ، والزكاةُ، والصيامُ، والحج، وصدقُ الحديث، وأداءُ الأمانة، وبرُّ الوالدين، وصلةُ الأرحام، والوفاءُ بالعهود، والأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر، وجهادُ الكفّارِ والمنافقينِ، والإحسانُ إلى الجار واليتيمِ والمسكينِ وابنِ السبيل والمملوكِ من الآدميين والبهائمِ، والدعاءِ، والذكرِ، وقراءةِ القرآن الكريم، وأمثال ذلك هي من العبادة، وكذلك حبُّ اللهِ ورسوله صلى الله عليه وسلم، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاصُ الدين له، والصبرُ لحكمه، والشكرُ لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكلُ عليه، والرجاءُ لرحمته، والخوفُ من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله.

---

[1] حماية الرسول حمى التوحيد ص (249).

[2] تفسير ابن كثير (1 / 26) ، تفسير الطبري (1 /160).

وذلك أنَّ العبادةَ هي الغايةُ المحبوبةُ له، والمرضيةُ له، التي خَلقَ الخلقَ لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *﴾ [الذاريات: 56] وبها أرسل جميع الرسل[1].

والعبادةُ تتضمّنُ كمالَ الحُبِّ ونهايته، وكمالَ الذُّلِّ ونهايته، فالمحبوبُ الذي لا يعظَّمُ، ولا يُذَلُّ له، لا يكون معبوداً، والمعظَّم الذي لا يُحَبُّ لا يكون معبوداً[2].

ب . شروط قبول العبادة:

الشرط الأول . الإخلاص: وهذا الشرطُ متعلِّقٌ بالإرادةِ والقصدِ والنيّة، والمقصود به إفرادُ الحقِّ سبحانه وتعالى بالقصد والطاعة[3].

والنيةُ تقع في كلام العلماء بمعنيين: أحداهما: تمييزُ العبادات بعضِها عن بعضٍ، كتمييز صلاةِ الظهرِ عن صلاة العصر مثلاً. إلى أنْ قال: والمعنى الثاني: بمعنى تمييز المقصود بالعملِ: هل هو لله وحده لا شريك له، أم لله وغيره؟ وهذه النيةُ هي التي يتكلّم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه[4].

والأدلةُ على هذا الأصل في القرآن والسنة وكلام علماءِ الأمة ومن سارَ على نهجهم كثيرةٌ، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ *أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي

---

[1] مجموع الفتاوى (10 / 149 . 150).
[2] التحفة العراقية ص (63) ، مجموع الفتاوى (20 / 6).
[3] مدارج السالكين (2 / 91).
[4] جامع العلوم والحكم لابن رجب ص(8).

مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ *﴾ [الزمر :2 . 3] أي لا يقبلُ الله من العملِ إلا ما أخلصَ فيه العاملُ للهِ وحده، لا شريك له[1].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ *﴾ [الاعراف :29] .

ومن الأحاديث النبوية قوله صلى الله عليه وسلم: «إنّما الأعمالُ بالنيّاتِ، وإنّما لكلِّ امرىءٍ ما نوى، فمن كانتْ هجرتهُ إلى اللهِ ورسولِهِ، فهجرتُه إلى اللهِ ورسولِهِ، ومَنْ كانتْ هجرتُه لدنيا يصيبها، أو امرأةٍ ينكحُها فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه»[2].

وفي حديث أبي هريرة قال: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقولُ: «إنَّ أوَّل الناسِ يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد، فأتي به، فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيكَ حتى استشهدتُ، قال: كذبتَ، ولكنّكَ قاتلتَ لأن يقال جريءُ فقد قيل. ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقي في النار.

ورجلُ تعلّمَ العلمَ، وعلّمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرّفه نعمَه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلّمتُ العلمَ وعلَّمتُه، وقرأتُ فيكَ القرآن، قال: كذبتَ، ولكنّك تعلّمتَ العلمَ ليقالَ: عالمٌ، وقرأتَ القرآن ليقالَ: هو قارئ، فقد قيل. ثم أُمِرَ به، فسُحِبَ على وجهه، حتى أُلقي في النار.

---

[1] تفسير ابن كثير (3 / 158).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، باب بدء الوحي (1). وأخرجه أيضاً في كتاب: الإيمان ، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية الحسنة ، وأن لكل امرىء ما نوى (54) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإمارة ، باب: قوله: إنما الأعمال بالنية ، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره (1907) ولفظه (بالنية) بدل (بالنيات). .[210] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإمارة ، باب: من قال للرياء والسمعة استحق النار (1905).

ورجلٌ وسّعَ الله عليه، وأعطاه من أصنافِ المالِ كله، فأُتِيَ به، فعرّفه نعمَه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ مِنْ سبيلٍ تحبُّ أن ينفقَ فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبتَ، ولكنّك فعلتَ ليقالَ: هو جوادٌ، وقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه، حتى أُلقي في النار[1].

الشرط الثاني الموافقة للشرع:

وأما الأدلة من القرآن فكثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *﴾ [الانعام: 153] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: 125].

أما الأدلة بين السنة النبوية فكثيرة منها:

وقوله صلى الله عليه وسلم: «تركتُ فيكم أمرينِ لن تضلّوا ما تمسّكتُم بهما، كتابَ الله وسنّةَ رسولِهِ»[2]. وقوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أحدثَ في أمرِنا هذا ما ليسَ مِنْهُ فهو رَدٌّ»[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد تركتُكم على مِثْلِ البيضاءِ، ليلِها كنهارِها، لا يزيغُ عنها إلاّ هالكٌ»[4].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: من قال للرياء والسمعة استحق النار (1905).

[2] أخرجه مالك في موطئه بلاغاً ، كتاب: الجامع ، باب: النهي عن القول بالقدر (1661). قال الألباني في مشكاة المصابيح (186): حسن.

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الأقضية ، باب: نقض الأحكام الباطلة ، ورد محدثات الأمور (1718). وأخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الصلح ، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور. فالصلح مردود (2550) بلفظ: «ما ليس فيه».

[4] أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة (48) باب: ذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم تركتكم على مثل البيضاء. قال

وعن مطرّف بن عبد الله يقول: سمعتُ مالكَ بنَ أنسٍ إذا ذُكِرَ عنده الزائغين في الدين يقول: قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: سَنَّ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وولاةُ الأمر بعدَه سُنناً، الأخذُ بها اتّباعٌ لكتابِ اللهِ عزّ وجلّ، واستكمالٌ لطاعةِ اللهِ عزّ وجلّ، وقوةٌ على دينِ الله تبارك وتعالى، ليسَ لأحدٍ مِنَ الخَلْقِ تغييرُها ولا تبديلُها، ولا النظرُ في شيءٍ خلافها، مَنِ اهتدى بها فهو مهتدٍ، ومن استنصرَ بها فهو منصورٌ، ومن تركَها واتّبعَ غيرَ سبيلِ المؤمنين ولاّه اللهُ تعالى ما تولَّى، وأصلاه جهنّم، وساءت مصيراً[1].

ومما روي عن الفُضيل بن عياض أنّه تلا قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: 2] فقال: أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إذا كان العملُ خالصاً ولم يكن صواباً، لم يُقْبَلْ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقْبَلْ، حتى يكونَ خالصاً صواباً، والخالصُ إذا كان لله عزّ وجلّ، والصوابُ إذا كان على السنّة[2].

وبعد ذكر شَرْطَي العبادةِ المقبولةِ عند الله سبحانه وتعالى يتبيّنُ أنَّ دينَ الإسلام مبنيٌّ على أصلين:

الأصل الأول: أن نعبد الله وحده لا شريك له.

الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (59): إسناد حسن. وأخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب: المقدمة ، باب: اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (44) بلفظ: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي لا هالك». وأخرجه ابن ماجه في سننه (5) بلفظ: «لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء» قال الألباني في السلسلة الصحيحة (628): حسن.

[1] الشريعة للآجري ص (48).

[2] مدارج السالكين (2 / 89).

والأصل الثاني: أن نعبده بما شرع من الدين، وهو ما أمرت به الرسل[1].

إنّ الغاية من خلق الإنسانِ وكتابةِ الموتِ والحياةِ عليه واضحٌ في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: 2] والأحسنُ عملاً يتضمّن أمرين: كما فسر ذلك الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: عندما قال: أحسنه أي: أخلصَه وأصوبَه[2]. فأخلصه: هو «لا إله إلا الله»، وأصوبه: هو «محمد رسول الله»، وهو الذي أشارت إليه سورةُ الفاتحة ـ أم القرآن الكريم ـ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ *﴾ [الفاتحة: 6 ـ 7] . والذين أنعمَ اللهُ عليهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، ومنهم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وصحابته ـ رضوان الله عليهم ـ والذين ساروا على هذا الصِّرَاطَ المستَقِيم أي: الصوابِ الموصلِ للغاية، وهذا الطريقُ وسطٌ بين طرفين[3].

رابعاً ـ حقيقة العبادة:

إنّ دائرةَ العبادةَ التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته في الحياة، ومهمته في الأرض دائرةٌ رحبةٌ واسعةٌ، إنها تشمل شؤون الإنسان كلها، وتستوعبُ حياته جميعاً، وتستغرقُ مناشطه، وأعماله كافة[4]، ومن التعريف السابق للعبادة عندما ذكرنا بأنّه: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ـ لا يمكنُ أن يخرجَ شيءٌ من نشاطات الإنسان وأعماله، سواء أكان ذلك في العباداتِ المحضة،

---

[1] مجموع الفتاوى (1 / 189).

[2] تفسير البغوي ، معالم التنزيل (4 / 269).

[3] الوسطية في القران الكريم ص (389).

[4] العبادة في الإسلام للقرضاوي ص (53).

أو في المعاملاتِ المشروعة، أو في العاداتِ التي طُبِعَ الإنسانُ على فعلها من دائرة العبادة.

وهنا ينبغي لنا الإشارةُ إلى أنَّ الأصلَ في العباداتِ المحضةِ المنعُ، حتى يردَ ما يدلُّ على مشروعيتها، وأنّ الأصلَ في العاداتِ العفوُ، حتى يردَ ما يدلُّ على منعها، وذلك مبني على أنّ تصرّفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عباداتٌ يَصْلُحُ بها دينه، وعاداتٌ يحتاجون إليها في دنياهم، فباستقراء أصولِ الشريعة نعلمُ أنَّ العباداتِ التي أوجبها الله أو أحبَّها لا يثبتُ الأمرُ بها إلاّ بالشرع وحده.

وأمّا العاداتُ: فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصلُ فيها عدم الحظر، فلا يحظر منها إلاّ ما حظره الله سبحانه وتعالى، وذلك لأنّ الأمرَ والنهيَ هنا شرعُ الله.

والعبادةُ لا بدَّ أن يكونَ مأموراً بها[1]، فما لم يثبتْ من العباداتِ أنّه مأمور به، كيف يحكم عليه بأنه عبادة؟ وما لم يثبت من العبادات أنّه منهيٌّ عنه كيف يحكم عليه أنه محظور؟

والعادات الأصلُ فيها العفوُ، ولا يُحْظَرُ منها إلاّ ما حرّم الله[2].

وهذا التقسيم في الحظر والإباحة لا يخرِجُ شيئاً من أفعال الإنسان العادية من دائرةِ العبادةِ لله، ولكنّ ذلك يختلِفُ في درجته ما بينَ عبادةٍ محضةٍ، وعادةٍ مَشُوْبَةٍ بالعبادة،

---

[1] الوسطية في القران الكريم ص (38).

[2] مجموع الفتاوى (29 / 116 ، 117).

وعادةٍ تتحوَّل بالنيةِ والقصدِ إلى عبادةٍ، لأنَّ المباحاتِ يؤجَرُ عليها بالنيّةِ والقصدِ الحسنِ، إذا صارت وسائلَ للمقاصد الواجبة، أو المندوبة، أو تكميلاً لشيءٍ منها[1].

قال النووي في شرحه لحديث «وفي بِضعِ أحَدِكُم صدقةٌ»[2]: وفي هذا دليلٌ على أنَّ المباحاتِ تصيرُ طاعاتٍ بالنّيةِ الصادقة[3].

ومن ذلك يتّضح: أنَّ الدِّينَ كلَّه داخلٌ في العبادةِ، والدِّينُ منهجُ الله، جاءَ ليسعَ الحياةَ كلَّها، وينظِّمَ جميعَ أمورِها من أدبِ الأكلِ والشربِ وقضاءِ الحاجةِ إلى بناءِ الدولةِ، وسياسةِ المالِ، وشؤونِ المعاملاتِ والعقوباتِ، وأصولِ العلاقاتِ الدوليةِ في السلم والحرب.

إنَّ الشعائرَ التعبّدية من صلاةٍ، وصومٍ، وزكاةٍ، لها أهميتُها ومكانتُها، ولكنَّها ليست العبادةَ كلَّها، بل هي جزءٌ من العبادةِ التي يريدُها الله تعالى.

إنّ مقتضى العبادةِ المطالبِ بها الإنسانُ أن يجعل المسلمُ أقوالَه وأفعالَه وتصرفاتِه وسلوكَه وعلاقاتِه مع الناس وفقَ المناهج والأوضاعِ التي جاءتْ بها الشريعةُ الإسلاميةُ، يفعلُ ذلك طاعةً لله، واستسلاماً لأمره[4].

والدليل على المفهومِ الشاملِ للعبادةِ الكتابُ والسنةُ وفعلُ الصحابةِ رضوان الله عليهم.

فأمّا القرآن الكريمُ فقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *﴾ [الانعام: 162 . 163] .

---

[1] حقيقة البدعة وأحكامها للغامدي (1/ 19).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الزكاة ، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (1006).

[3] شرح النووي (7/ 92).

[4] مقاصد المكلفين د. عمر الأشقر ص (460 . 47).

وأمّا السنةُ: فقوله صلى الله عليه وسلم: «إنّ المسلمَ إذا أنفقَ على أهلِهِ نفقةً، وهو يَحْتَسِبُها كانتْ له صدقةً»[1]. وقوله صلى الله عليه وسلم: «دخلتِ امرأةٌ النارَ في هِرَّةٍ ربطَتها، فلم تُطْعِمْهَا، ولم تَدَعْهَا تأكلُ مِنْ خِشَاشِ الأرضِ حتّى ماتت»[2].

وأما الاستدال على عموم العبادة وشمولها لحياة الإنسان بفعل الصحابة ففي قصة بعثِ أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، وفي آخره قال أبو موسى لمعاذٍ: فكيفَ تقرأُ أنتَ يا معاذ؟ قال: أنامُ أوّل الليل فأقومُ، وقد قضيتُ جزئي من النوم، فأقرأُ ما كَتَبَ اللهُ لي، فَأَحْتَسِبْ نومتي، كما أَحْتَسِبُ قومتي[3]، وفي كلام معاذ رضي الله عنه دليلٌ على أنّ المباحاتِ يؤجَرُ عليها بالقصدِ والنيّةِ.

خامساً . أنواع العبادات:

إنَّ أنواعَ العباداتِ كثيرةٌ، نذكر منها:

النوع الأول . الدعاء:

وهو لغةً: الرغبةُ إلى الله، وجاء في نصوص القرآن والسنة بمعنى العبادة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ*﴾ [غافر: 60] وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ*﴾ [غافر: 54] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الزكاة ، باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين (1002) وأخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية الحسنة ، ولكل امرىء ما نوى (55) بلفظ «إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة».

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: بدء الخلق ، باب: خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم (3318).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المغازي ، باب: بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع (4342).

الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ *﴾ [البقرة :186] وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ *وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ *﴾ [الاعراف :55 . 56] وقال تعالى: ﴿فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ *﴾ [الشعراء :213] .

ومن أسباب قَبولِ الدّعاءِ: المطعمُ الحلالُ، وألاّ يستبطىءَ الإجابةَ، وألاّ يدعو بإثمٍ ولا قطيعةِ رحمٍ، والأمرُ بالمعروفِ، والنهيُ عن المنكر، والجَزْمُ في الدّعاء، وحضورُ القلبِ وسلامتُه من الغفلةِ والخشوعِ، والابتعاد عن المعاصي، والإخلاص في الدعاء لله عز وجل[1].

ويمكن أن يقترنَ الدعاءُ بتوسُّلٍ مشروع، كالتوسّلِ بأسماء الله الحسنى، أو بصفةٍ من صفاته العُلى، أو أنْ يتوسّل العبدُ إلى اللهِ بأعماله الصالحة التي يرجو قبولها عند الله، أو يطلبَ الدعاءَ ممّن يظنُّ صلاحهم، أو بالتوسّل بهم بشرط أن يكونوا أحياء أي: يُتَوَسَّل بدعائهم.

وقد تحدّث العلماءُ عن أنواع التوسل المشروعة ومنها:

أ . التوسُّل إلى الله بأسمائه الحسنى، أو بصفةٍ من صفاته العُلَى:

والدليلُ على هذا النوع من أنواع التوسُّلِ قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [الاعراف:180]

.

كأنْ يقولَ المسلمُ في دعائه: اللهمَّ إنِّي أسألُكَ بأنَّكَ أنتَ الرحمنُ الرحيمُ، اللطيفُ الخبيرُ، أن تعافيني.

---

[1] الدعاء والعلاج بالرقى من الكتاب والسنة ، للقحطاني ص (122).

أو يقول: أسألُكَ برحمتِكَ التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ أنْ ترحَمَني، وتغفرَ لي[1].

ولقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الاعراف :180]، أي: ادعوا الله تعالى متوسّلين إليه بأسمائه الحسنى، ولا شكَّ أنَّ صفاته العُلى داخلةٌ في هذا الطلب، لأنّ أسماءَ الله عزّ وجلّ الحسنى صفاتٌ له، خُصَّتْ به تبارك وتعالى[2].

ومن الأدلةِ كذلك دعاءُ سليمان عليه السلام حيث قال: ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ *﴾ [النمل :19] .

ب . التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة التي يقومُ بهاالعبد:

كأنْ يتوسَّلَ إلى الله تعالى بالإيمانِ به وطاعتهِ، واتباع رسولِهِ صلى الله عليه وسلم ومحبَّته.

ومن هذا النوع قولُ الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ *﴾ [آل عمران: 16] فيمكِنُ للعبدِ أن يقولَ: اللهمَّ بإيماني بكَ، أو محبّتي لكَ، أو اتبّاعي لرسولكَ صلى الله عليه وسلم اغفر لي، أو يقول:اللهمّ إنِّي أسألُكَ بمحبَّتي لمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وإيماني به أنْ تفرّجَ عنِّي.

ومن ذلك أنْ يذكرَ الداعي عملاً صالحاً ذا بالٍ، فيه خوفُه مِنَ اللهِ سبحانه وتقواه إياه، وإيثارُه رضاه على كلِّ شيءٍ، وطاعتُه له جلَّ شأنه، ثم يتوسَّلُ به إلى الله في دعائه، ليكونَ أرجى لقبوله وإجابته[3].

---

[1] المصدر السابق ص (99).

[2] الذكر والدعاء والعلاج بالرقى ص (99) انظر: منهج القران في الدعوة إلى الله ص (165 . 166).

[3] الذكر والدعاء والعلاج بالرقى ص (100).

ج ـ التوسُّل إلى الله تعالى بدعاءِ الصالحين الأحياء:

بأنْ يَطْلُبَ المسلمُ من أخيه الحيِّ الحاضرِ أن يدعوَ الله له، فهذا النوعُ من التوسُّلِ مشروعٌ، لثبوته عن بعض الصحابةِ مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم، حيثُ كان بعضُهم يأتي النبي صلى الله عليه وسلم، فيطلب منه الدعاءَ له أو لعموم المسلمين، ومن ذلك ما ثبت في «الصحيحين» عن أنسِ بنِ مالك رضي الله عنه أنَّ أعرابياً قامَ يومَ الجمعة والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يخطبُ فقال: يا رسول الله: هلكَ المالُ، وجاعَ العيالُ، فادعُ اللهَ لنا.

فرفع صلى الله عليه وسلم يديه ـ وما نرى في السماءِ قزعةً ـ فوالذي نفسي بيدِهِ ما وضعَها حتى ثارَ السحابُ أمثالَ الجبالِ، ثم لم ينزلْ عن منبرهِ حتّى رأيتُ المطرَ يتحادرُ على لحيتِهِ صلى الله عليه وسلم[1] إلى آخر الحديث.

ومثله كذلك توسُّلِ الصحابةِ رضي الله عنهم بدعاءِ العبّاس رضي الله عنه، وهو في «صحيح البخاري» من حديثِ أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحَطُوا استسقى بالعباسِ بنِ عبدِ المطلب، فقال: اللهمَّ إنّا كنّا نتوسُّل إليكَ بنبيّنا صلى الله عليه وسلم فتسقِيَنا، وإنَّا نتوسَّلُ إليك بعمّ نبيّنا فاسْقِنا، قال: فيُسْقَون[2] والمراد بقوله: إنّا نتوسَّل إليك بعمِّ نبِيّنا، أي: بدعائه.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجمعة ، باب: الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة (1933) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: صلاة الاستسقاء ، باب: الدعاء في الاستسقاء (897).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجمعة ، باب: سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا (1010).

فهذه الأنواعُ الثلاثةُ من التوسُّلِ كلُّها مشروعةٌ، لدلالةِ نصوصِ الشرعِ عليها، وأمّا ما سوى ذلك ممّا لا أصلَ له، ولا دليلَ على مشروعيته فينبغي على المسلم أن يجتنبه[1].

النوع الثاني ـ النذر:

تعريفه: هو التزامُ قربةٍ غيرِ لازمةٍ في أصلِ الشرعِ بلفظٍ يُشْعِرُ بذلك، مثل أَنْ يقولَ: للهِ عليَّ أنْ أصومَ ثلاثةَ أيام[2].

حكمه: حكمُ النذرِ الكراهةُ، بل حرّمه بعضُ العلماء، لعدم تحمُّل المسلم ما قَدْ يعجزُ عن الوفاءِ به، ولكنْ إذا نذرَ المسلمُ وجبَ عليه الوفاءُ بهذا النذر، وذلك ما لم يكنْ في معصيةِ الله، فأصبحَ هذا النذرُ معلّقاً في رقبته، ودَيْناً عليه، حتى يوفّيه[3]. قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا *﴾ [الإنسان: 7] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ *﴾ [البقرة: 270] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ*﴾ [الحج: 29] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ نذَرَ أَنْ يطيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، ومَنْ نَذَرَ أَنْ يعصيَ اللهَ فلا يَعْصِه»[4].

شروطه:

---

[1] فقه الأدعية والأذكار ص (341).

[2] اللباب في شرح العقيدة على ضوء السنة والكتاب ص (54).

[3] العقيدة الصافية ص (274).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الأيمان والنذور ، باب: النذور في الطاعة (6696).

أ ـ أن يكونَ طاعةً لله: لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا نذرَ في معصيةِ الربِّ، أو في قطيعةِ رَحِمٍ، وفيما لا يملك»[1].

ب ـ أن يكون مما يطيقه العبد: فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا النبيُّ صلى الله عليه وسلم يخطُبُ، إذ هو برجلٍ قائمٍ، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل، نذرَ أَنْ يقومَ ولا يقعدَ، ولا يستظلَّ، ولا يتكّلمَ، ويصومَ. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مره فليتكلّمْ، وليستظلَّ، وليقعدْ، وليتمَّ صومَه»[2].

ج ـ أن يكونَ فيما يملكُ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا وفاءَ لنذرٍ في معصية اللهِ، ولا فيما لا يَمْلِكُ ابنُ آدم»[3].

د ـ ألاّ يعتقدَ الناذِرُ تأثيرَ النذر في حصولِ الشيءِ وعدمِهِ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ النذرَ لا يقدِّمُ شيئاً، ولا يؤخِّرُهُ، وإنَّما يُسْتَخْرَجُ بالنذرِ مِنَ البخيلِ»[4].

وإذا كان النذرُ للهِ تعالى عبادةً ونوعاً من أنواعِ التقرّب إلى الله، فإنَّ صرفه لغير اللهِ تعالى شِرْكٌ أكبرُ، يخرجُ من الملّة، ويوجِبُ لصاحبه النار، لأنَّ كلَّ ما شأنُه عبادةً لا يجوزُ بحالٍ من الأحوالِ أن يُصرَفَ لغير الله تعالى.

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب: الأيمان والنذور ، باب: اليمين في قطيعة الرحم (3272). (3274). قال الألباني صحيح. انظر حديث رقم (7793) في صحيح الجامع.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الأيمان والنذور ، باب: النذر فيما لا يملك وفي معصيته (6704).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: النذر ، باب: لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك العبد (1641) بلفظ: «... العبد». وأخرجه بلفظه أبو داود في سننه ، كتاب: الأيمان والنذور ، باب: ما يؤمر به من الوفاء بالنذر (3313).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الأيمان والنذور ، باب الوفاء بالنذر لقوله: {} [الإنسان: 7] {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ} ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: النذر ، باب: النهي عن النذر ، وأنه لا يرد شيئاً (1639).

ومن المؤسفِ حقّاً أن نرى مثلَ هذه العباداتِ تُصْرَفُ لغيرِ الله تعالى[1]، وهذا جهلٌ عظيمٌ بالإسلام، ولا علاجَ له إلا نشرُ العلمِ وإحياءُ الإيمانِ بالله عزّ وجلّ في القلوب.

النوع الثالث . الذبح:

معنى الذبح هنا: هو كُلُّ ما ذُبِحَ هَدْياً أو عقيقةً وغيرها لله تعالى، بقصدِ التعبّدِ للهِ والتقرّبِ إليه[2]، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ *فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ *﴾ [الكوثر :1-2]، أي: أخلص له صلاتَك وذبْحَك[3]، وقال تعالى: ﴿ قل إن صلاتي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ﴾ [الانعام: 162 . 163]، والنسك: الذبح[4].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدّثني رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بأربع كلماتٍ: «لعنَ اللهُ مَنْ ذبحَ لغيرِ اللهِ، ولعنَ اللهُ مَنْ لعنَ والديه، ولَعَنَ اللهُ مَنْ اوى مُحْدِثاً، ولعنَ اللهُ مَنْ غيَّر منارَ الأرضِ»[5].

أمّا لعنُ الوالدِ والوالدةِ فهو من الكبائر، وأمّا الذبحُ لغير الله، فالمرادُ به أن يذبحَ باسمٍ غيرِ اسم الله تعالى، كمن ذبحَ للصنم، أو الصليبِ، أو لموسى، أو لعيسى عليه

---

[1] العقيدة الصافية ص (278).

[2] العقيدة الصافية ص (280).

[3] المصدر نفسه ص (281) ، نقلاً عن تفسير ابن كثير.

[4] المصدر نفسه ص (281).

[5] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الأضاحي ، باب: تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله (1978) بلفظ: حدثني بكلمات أربع قال: «لعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من اوى محدثاً ، ولعن الله من غير منار الأرض».مسلم (3 / 1567).

السلام، أو للكعبة، ونحو ذلك، فكلُّ هذا حرامٌ، ولا تحلُّ هذه الذبيحةُ سواءٌ كان الذابحُ مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً[1].

إنَّ الذَّبحَ قربةٌ وعبادةٌ يُتقرَّبُ بها إلى اللهِ تعالى، ويتعبّد بها، ولذلك وجبَ صرفُها لله تعالى.

النوع الرابع ـ التوكل:

وهو الثقةُ بما عندَ اللهِ، واليأسُ عمّا في أيدي الناس، وقيل: هو اعتمادُ القلبِ على اللهِ، وثقتُه به، وأنّه كفايةٌ[2].

والتوكّلُ عبادةٌ، ويجبُ صرفُها لله تعالى، حتّى يتمَّ توحيدُ العبدِ، ويخلو مِنْ شوائبِ الشركِ وأدرانِ الجاهليةِ، والله سبحانه وتعالى يأمرُنا بالتوكّل عليه وحدَه لا على غيره.

قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا *﴾ [الفرقان: 58] وقال تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ [هود: 56] وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ *وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ *إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *﴾ [الشعراء: 217 ـ 220] وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً *﴾ [الاحزاب: 48] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أنَّكُم تتوكّلونَ على اللهِ حَقَّ توكُّلِهِ لرزقَكُم كما يَرْزُقُ الطيرَ، تغدو خِمَاصاً، وتروحُ بِطاناً»[3].

---

[1] شرح النووي على صحيح مسلم (4 / 656).

[2] اللباب ص (57).

[3] أخرجه بهذا اللفظ أحمد في مسنده، (1 / 30). وأخرجه بلفظ قريب الترمذي في جامعه، كتاب: الزهد، باب: في التوكل على الله (2344) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في سننه، كتاب: الزهد، باب: التوكل واليقين (4164).

النوع الخامس ـ الاستعانة:

وهي طلبُ العونِ من الله تعالى على سبيلِ التعبُّد للهِ، وهي من أنواع العبادة، ولذلك يجبُ الاستعانة بالله وحدَه. قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ *﴾ [الفاتحة :5] أي: لا نعبدُ إلاّ إيّاك، ولا نستعينُ إلاّ بكَ، ونبرأُ مِنْ كلِّ معبودٍ دونك ومن عابديه، ونبرأُ مِنَ الحولِ والقوّةِ إلا بك، فلا حولَ لأحدٍ عن معصيتك، ولا قوَّة على طاعتِكَ إلا بتوفيقك ومعونتك[1]. وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَانُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ *﴾ [الانبياء :112] .

وفي حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنتُ خلفَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يوماً فقالَ: «يا غلامُ، إنِّي أعلِّمُكَ كلماتٍ، احفظِ اللهَ يحفظْكَ، احفظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعنْ باللهِ، واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أنْ ينفعوكَ بشيءٍ، لم ينفعوكَ إلاّ بشيءٍ قد كتبهَ اللهُ لكَ، وإنِ اجتمعوا على أنْ يضرّوكَ بشيءٍ لم يضروك إلاّ بشيءٍ قد كتَبه الله عليكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ، وجَفَّتِ الصحفُ[2].

النوع السادس ـ الاستغاثة:

وهي طلبُ الغوثِ، وهو إزالةُ الشدّةِ، كالاستنصار طلب النصرة، والاستغاثة، طلب الغوث.

---

[1] معارج القبول (2 / 452).

[2] أخرجه الترمذي في جامعه ، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب: منه (2516) وقال: هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه أحمد (1/ 293) بلفظ قريب منه.

والفرق بين الاستغاثة والدعاء أنّ الاستغاثة لا تكونُ إلاّ من المكروبِ، والدعاءُ أعمُّ، فيكونُ من المكروبِ وغيرِه[1].

فالاستغاثةُ نوعٌ من العبادةِ يجبُ صرفُها لله تعالى، فلا يُستغاثُ إلاّ بالله عز وجل، ولقد ذكر الله تعالى الاستغاثة في كتابه العزيز، فلم تصرفْ إلا له سبحانه قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ *﴾ [الانفال:9] وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل :62] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى :28] .

وكان من دعاءِ النبيّ صلى الله عليه وسلم: «يا حيُّ يا قيومُ برحمتِكَ أستغيثُ»[2].

وعن ثابتِ بن الضحّاك: أنّه كان في زمنِ النبيّ صلى الله عليه وسلم منافِقٌ يُؤذي المؤمنين، فقال بعضُهم: قوموا بنا نستغيثُ برسولِ اللهِ من هذا المنافق. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «إنّه لا يستغاثُ بي، وإنّما يستغاثُ بالله»[3].

النوع السابع ـ الخشية:

الخشية التعبُّد، وهي خضوعُ القلبِ والجوارحِ لله تعالى طاعةً وخشوعاً وخوفاً من مقامه ووعيده، على سبيل التعبُّد لله تعالى[4] قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ

---

(1) اللباب ص (57).

(2) أخرجه الترمذي في جامعه ، كتاب: الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب: منه (3524) بلفظ «يا حي يا قيوم ، برحمتك أستغيث». قال الحافظ ابن حجر نتائج الأفكار (2 ؛ 386): في سنده يزيد بن أبان الرقاشي وهو ضعيف.

(3) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (10/ 159): رواه الطبراني [عن عبادة بن الصامت] ورجاله رجال الصحيح ، غير ابن لهيعة ، وهو حسن الحديث. .[256] العقيدة الصافية ص (309).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: النكاح ، باب: الترغيب في النكاح (4776).

النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ *﴾ [آل عمران: 173] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا *﴾ [الاحزاب: 39] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ *﴾ [المؤمنون: 57] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... أَمَا واللهِ، إنِّي لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنِّي أصومُ وأفطِرُ، وأصلِّي وأرقدُ، وأتزوُّج النساءَ، فَمَنْ رغب عَنْ سُنَّتي فليسَ مِنِّي».

والخشيةُ نوع من أنواعِ العبادةِ التي يجبُ ألاّ تصرفَ إلا للهِ تعالى، وصرفُها لغير الله يُعدُّ شركاً ينقضُ ويهدِمُ الإيمان، وكلّما زادَ إيمانُ العبدِ بربّه وخلصَ، كلّما زادتْ خشيتهُ منه[1].

النوع الثامن ـ الخوف:

وهو اضطراب القلبِ وحركتُه من تذكُّر المخوف[2]، وهو أفضلُ مقاماتِ الدين وأجلُّها، وأجمعُ أنواعِ العبادة التي يجبُ إخلاصُها لله تعالى[3] قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *﴾ [آل عمران: 175] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ *وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ *﴾ [ابراهيم: 13 ـ 14] وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ *﴾

---

[1] العقيدة الصافية ص (312).
[2] مدارج السالكين (1 ؛ 512).
[3] اللباب ص (65).

[الرحمن :46] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى *فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى *﴾ [النازعات :40. 41] .

وعن عديّ بن حاتم رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «اتقّوا النارَ ولو بشِقّ تمرةٍ»[1]. فالنافعُ والضارُّ هو الله، فلا خوفَ إلاّ منه وحدَه سبحانه وتعالى.

النوع التاسع . المحبة:

يعدُّ خُلُقُ المحبّةِ من أجلِّ الأخلاق الإيمانية، لأنّها أصلُ كلِّ فعلٍ ومبدؤه، فلا يكونُ الفعلُ إلاّ عن محبةٍ وإرادةٍ، وكذلك التَّرْكُ، لا يكونُ إلا عنها، ولهذا كانَ رأسُ الإيمانِ الحبُّ في الله والبغضُ في الله، وكانَ مِنْ أحبَّ للهِ، ومَنْ أبغضَ للهِ، وأعطى لله، ومنعَ لله، قد استكمل الإيمان[2]. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *﴾ [التوبة :24] . فإنّ هذه الآية تحمِلُ وعيداً شديداً على تقديم محبّةِ أيّ شيءٍ من أمورِ الدنيا على محبّةِ الله تعالى ورسولِهِ صلى الله عليه وسلم، وأنّه يجبُ إيثارُهما في المحبّةِ على مَنْ سواهما، وهذه المحبّةُ تقتضي إيثارَ طاعتهما واتّباع أمرِهما على إيثارِ مَنْ ذَكَرَ اللهُ مِنَ الأقاربِ والأموالِ وغيرِهما ممّا قد تريدُ النفسُ تقديمها[3].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الزكاة ، باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة ، والقليل من الصدقة (1351) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الزكاة ، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (1016).

[2] أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في القران والسنة د. أحمد الحداد (1 / 204).

[3] المصدر نفسه (1/ 205).

وهذه المحبةُ يقتضيها الإيمانُ، فمَنْ كان مؤمناً أوجبَ عليه إيمانُهُ أن يتحلّى بها كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة :165] .

وقد بيّنَ القرآن الكريمُ علامات المحبّة لله تعالى، فجعلَ من ذلك اتباعَ نبيّه صلى الله عليه وسلم، والذِّلةِ للمؤمنين، والعزّةِ على الكافرين، والجهادِ في سبيله، وعدم الخوفِ مِنْ لَوْمِ لائمٍ، ومعاداةِ أعدائه.

وأمّا الاتباعُ لنبيه صلى الله عليه وسلم، فقد دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31] فإنّ هذه الآية تسمّى ايةَ المحبّة[1]، فهذه الآية الكريمةُ حاكمةٌ على كلِّ مَنِ ادّعى محبّةَ الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنّه كاذبٌ في دعواه في نفس الأمر، حتّى يتبعَ الشرعَ المحمدي والدينَ النبويَّ في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في «الصحيح» عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ عَمِلَ عملاً ليسَ عليه أمرُنا فهو رَدٌّ»[2].

وأمّا العلامات الأخرى فقد دلّ عليها قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *﴾ [المائدة: 54] .

---

[1] المصدر نفسه (1 /207).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الأقضية ، باب: نقض الأحكام الباطلة ، ورد محدثات الأمور (1718). وأخرجه البخاري في صحيحه معلقاً ، كتاب: البيوع ، باب: النجش ومن قال: لا يجوز ذلك البيع.

سادساً ـ أقسام العباداتِ:

قسّم العلماءُ العبادات التي لا يجوزُ أن يقصدَ بها غيرُ الله إلى الأقسام التالية:

1 ـ **عبادات اعتقادية:** وهذه أساسُ العباداتِ كلِّها، وهي أن يعتقدَ العبدُ أنَّ الله هو الربُّ الواحدُ الأحدُ، الذي له الخلقُ والأمرُ، وبيدِهِ النفعُ والضرُّ، الذي لا شريكَ له، ولا يَشْفَعُ عنده أحدٌ إلاّ بإذنه، وأنه لا معبودَ بحقٍّ غيرهُ.

2 ـ **عبادات قلبية:** والعبادتُ القلبيّة التي لا يجوزُ أن يُقْصَدَ بها إلا الله وحده وصرفُها لغيرِ اللهِ شركٌ كثيرةٌ: كالخوفِ، والرجاءِ، والرغبةِ، والرهبةِ، والخشوعِ، والخشيةِ، والحُبِّ، والإنابةِ، والتوكُّلِ، والخضوع، والاستغاثة... إلخ.

3 ـ **عبادات قولية:** كالنطق بكلمةِ التوحيد، إذ لا يكفي اعتقادُ معناها، بل لابدَّ من النطقِ بها، وكالاستعاذةِ بالله، والاستعانةِ به، والدعاءِ له، وتسبيحهِ، وتمجيدهِ، وتلاوةِ القرآن الكريم.

4 ـ **عبادات بدنية:** كالصلاة، والصوم، والحج، والذبح، والنذر[1]، وغير ذلك.

5 ـ **عبادات مالية:** كالزكاة، وأنواع الصدقات، والكفارات، والأضحية، والنفقة[2].

---

[1] الحجُّ والذبحُ والنذرُ عبادات بدنية مالية معاً.

[2] العقيدة في الله ص (236).

سابعاً . أفضل العبادات:

إنّ أفضلَ العبادة العملُ على مرضاة الرب في كلِّ وقت، وبما هو مقتضى ذلك الوقت. ووظيفته.

فأفضلُ العباداتِ في وقتِ الجهادِ الجهادُ، وإنْ آلَ إلى تركِ الأورادِ من صلاةِ الليلِ وصيامِ النهارِ.

والأفضلُ في وقتِ حضور الضيفِ مثلاً القيامُ بحقه، والاشتغالُ به عن الوردِ المستحبِّ، وكذلك في أداء حقِّ الزوجة والأهل.

والأفضلُ في أوقاتِ السَّحرِ. الاشتغالُ بالصلاةِ، والقرآن، والدعاءِ، والذكرِ، والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل الإقبالُ على تعليمه، والاشتغال به.

والأفضلُ في أوقات الأذان، تركُ ما هو فيه من وردِهِ، والاشتغالُ بإجابةِ المؤذِّن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجدُّ والنُّصحُ في إيقاعها على أكملِ الوجوهِ، والمبادرةِ إليها في أول الوقت، والخروجِ إلى المسجدِ، وإنْ بَعُدَ كان أفضلَ.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال الاشتغالُ بمساعدته، وإغاثةُ لهفته، وإيثارُ ذلك على أورادِك وخلوتِكَ.

الأفضل في وقت قراءة القرآن جمعُ القلبِ والهمّةِ على تدبّره وتفهّمه، حتّى كأنَّ الله تعالى يُخاطِبُكَ به، فتجمعُ قلبَك على فهمِهِ وتدبُّرِهِ، والعزمِ على تنفيذِ أوامرِه، أعظمَ مِنْ جمعيّةِ قلبِ مَنْ جاءَه كتابٌ من السلطانِ على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهادُ في التضرّع، والدعاءِ، والذكرِ، دون الصومِ، المضعِفِ عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثارُ من التعبد، لا سيَّما التكبيرُ والتهليلُ والتحميدُ، فهو أفضل من الجهادِ غير المتعيَّن.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان لزومُ المسجدِ فيه، والخلوةِ، والاعتكافِ، دون التصدّي لمخالطةِ الناس، والاشتغالِ بهم، حتى إنَّه أفضلُ من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن عندَ كثيرٍ من العلماء[1].

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادتُهُ، وحضورُ جنازتِهِ وتشييع.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاةِ الناسِ لك: أداءُ واجب الصبر مع خلطتك بهم، دونَ الهربِ منهم، فإنَّ المؤمنَ الذي يخالِطُ الناسَ، ويصبرَ على أذاهم أفضلُ من الذي لا يخالِطُهم ولا يُؤذونه. والأفضلُ خلطتُهم في الخيرِ، فهي خيرٌ من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشرِّ، فهو أفضلُ من خلطتهم فيه، فإنْ علمَ أنّه إذا خالطهم أزاله أو قلله، فخلطتُهم حينئذٍ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال إيثارُ مرضاةِ الله في ذلك الوقتِ والحالِ، والاشتغالُ بواجبِ ذلك الوقتِ ووظيفتِهِ ومقتضاه[2].

---

[1] تهذيب مدارج السالكين (1 / 103).

[2] تهذيب مدارج السالكين (1 / 103 . 104).

ثامناً ـ تحكيمُ الشريعة وارتباطُها بالتوحيد:

1 ـ ربطها بتوحيد العبادة:

قال تعالى في قصة يوسف ودعوته إلى الله في السجن: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾ [يوسف :40] .

وقال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *﴾ [البقرة:256] .

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ *﴾ [التوبة :31] .

2 ـ ربطها بتوحيد الربوبية:

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ *﴾ [الاعراف :54] .

3 ـ ربطها بتوحيد الأسماء والصفات:

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ *﴾ [الأنعام: 114] وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *﴾ [الممتحنة: 10] وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ *﴾ [الرعد: 41] وقال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ *﴾ [الأنعام: 57] .

إنّ مِنْ أسماءِ ربنا جل جلاله التي عرّف بها نفسَه إلى عباده، وذكرها في كتابه، وعلى ألسنة رسله وأنبيائه «الحكيم»، وقد وردَ هذا الاسمُ أربعاً وتسعينَ مرّةً في القرآن الكريم، كما في قوله عز وجل: ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *﴾ [البقرة: 32] ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [البقرة: 129] ﴿الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ *﴾ [الانعام: 18] ﴿وَاسِعًا حَكِيمًا *﴾ [النساء: 130] ويقول تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الانعام: 114] فهذا دليل على أنَّ اسمه أيضاً «الحكم». وبمعناه «الحاكم» وقد جاءَ في خمسة مواضعَ بصيغة الجمع منها ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ *﴾ [الاعراف: 87] ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ *﴾ [هود: 45] ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ *﴾ [التين: 8] .

والحكيمُ هو الذي يُحْكِمُ الأشياء ويتقِنُها، ويضعُها في موضِعها، كما قال سبحانه: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 88] فالحكيم هو الذي يضع الشيءَ في موضعه بقدره، فلا يتقدّمُ الحِكَمَ البالغةَ العظيمةَ، التي لا يأتي عليها الوصفُ، ولا يدركُها الوَهْمُ.

- ومن معاني الحكمة حكمتُه في خلقه: ومِنْ ذلكَ ما تراه في جسدِ الإنسانِ وعقلِهِ وروحِهِ من حكمته عزّ وجلّ، حيثُ خَلَقَ الإنسانَ في أحسن تقويم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ *﴾ [التين: 4] ولو نظرتَ للإنسانِ في هيئته وصورته، أو نظرتَ في قُدراتِهِ وإمكاناته، أو نظرتَ في عقلِهِ وروحِه، لوجدتَ الحكمةَ البالغةَ العظيمةَ[1].

- ومن معاني حكمة الله تبارك وتعالى الشرعُ الذي أنزله في كتابه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذا وصف الله تعالى القرآن بأنّه حكيمٌ، كما في قوله:

---

[1] مع الله ص (184).

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيات وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ *﴾[آل عمران: 58] وقوله: ﴿وَالْقرآن الْحَكِيمِ *﴾[يس: 2] فتشريعاته حكمةٌ في مقاصدِها وأسرارِها ومالاتها، فشريعته حكمةٌ، وخَلْقُه وقَدَرُهُ حكمةٌ، حتّى وإن عجزتْ بعضُ العقولِ في فَهْمِ أبعادها، فإنَّ مِنَ الحوادثِ والشرائعِ مالا يُتَبَيّنُ مداه إلا بعدَ أجيالٍ وعصورٍ، ولا زال العلمُ البشريُّ يكتشِفُ الشيءَ بعدَ الشيءِ، وليس يصحُّ أنْ يكونَ الجهلُ أو عدمُ الإدراكِ في وقتٍ أو مكانٍ أو بالنسبة لفردٍ أو جماعة سبباً في عدم القناعة بما جاءَ عن الله، لأنَّه أحكمُ الحاكمين، وأعلمُ العالمين، وخيرُ الرازقين، وأحسنُ الخالقين، فالحكيمُ الذي لا يدخلُ في تدبيره ولا شرعه خللٌ ولا زللٌ، وأفعالهُ وأقوالهُ تقعُ في مواضِعها بحكمةٍ وعدلٍ وسدادٍ، فلا يفعلُ إلا السداد، ولا يقولُ إلا الصوابَ[1].

والقرآن الحكيم فيه الحلولُ الصادقةُ، والمناسبةُ الملائمةُ، والأحكامُ الصحيحةُ التي بها قوام حياة الناس، وحَلُّ مشكلاتهم التي يواجهونها اليوم، سواء على صعيد الفكر، أو الاقتصاد، أو السياسة، أو المجتمع، وقد وضعَ الأطُرَ العامّةَ التي تهدي الناسَ إليها[2].

ولا شكَّ أنّ أصولَ الهدايةِ الكليّةِ موجودةٌ في القرآن الكريم، فإنّه تضمَّن الأصولَ العامّةَ التي تصلح بها حياةُ الناسِ، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *﴾ [الجمعة: 2] وهذا دليلٌ على أنَّ الحكمةَ تعني السُّنَّةَ، فمن حكمته عزَّ وجلّ أن يرسلَ الرسلَ الذين يختارُهم مِنَ البشر، كما قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ

---

(1) مع الله ص (186).

(2) المصدر نفسه ص (186).

رَحِيمٌ *﴾ [التوبة: 128] فيختار سبحانه من الرسل أفضلَ البشرِ ممّن لهم الكمالُ البشريُّ في علومهم وعقولهم وأفهامهم ومداركهم وقدراتهم، ليتمَّ بذلك البلاغُ، وتقومَ الحجةُ على الناس، ولهذا كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالمنزلةِ العظيمةِ التي يعرفُها كلُّ مَنْ قرأَ سيرته، وقد امتنَّ الله سبحانه على الناسِ ببعثته لهذا الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *﴾ [آل عمران: 164] فمن حكمة الله عزّ وجلّ أنْ بعثَ الرسلَ، وأنزلَ الكتبَ هدايةً للناس، وإقامةً للحجة[1].

- ومن معاني حكمةِ اللهِ عزّ وجلّ أنْ يلهِمَ بعضَ العبادِ الحكمةَ: كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ *﴾ [البقرة: 269] فالله تعالى يؤتي الحكمةَ بعضَ عباده، فيعرفون كيفَ يحلّون المشكلاتِ، وكيف يخرجون من الملمّات والأزمات، وكيفَ يتعاملون مع المواقف الصعبة، وكيف يضعون الأمورَ في مواضعها، والعالم الإسلاميُّ في أشدِّ الحاجةِ لمجلسِ حكماءٍ من الذين حنّكتهم التجاربُ، كي تستفيدَ الأمةُ من خبرتهم ومعرفتهم وتوقعاتهم، حتّى لا يخبطَ المسلمون خبطَ عشواء، ولا يقعوا ضحيةَ المفاجات والأزمات وهم لا يشعرون[2].

وأمّا «الحَكَمُ» فهو مَنْ له الحكمُ والسلطانُ والقَدَرُ، فلا يقعُ شيءٌ إلاّ بإذنه، وهوالمدبِّرُ المتصرِّفُ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ *﴾ [الرحمن: 29] .

---

[1] مع الله ص (187).

[2] المصدر نفسه ص (187).

«والحكم» أيضاً من له التشريعُ والتحليلُ والتحريمُ، فالحكْمُ ما شرعَ، والدِّينُ ما أمرَ ونهى، لا معقّبَ لحُكمِهِ، ولا رادَّ لقضائِهِ، فاجتمع القَدَرُ والشَّرْعُ ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الاعراف :54] .

وحين نقولُ: اللهُ أحكمُ الحاكمين، واللهُ خيرُ الحاكمين، فإنّ ذلك تأكيدٌ على عدلهِ ورحمتهِ، ووضعِهِ الأشياءَ في مواضِعها، فليسَ في قَدَرِه ظلمٌ ولا تعسّفٌ، وليس في شرعِهِ مُحاباةٌ ولا تخيُّرٌ، بل هو حِفْظٌ لحقوقِ الحاكمِ والمحكومِ، والرَّجُلِ والمرأةِ، والبَرِّ والفاجرِ، والمسلمِ والكافرِ، والقويِّ والضعيف، وفي كلِّ الأحوال حَرباً وسِلْماً، وعلى كلِّ أحدٍ دون استثناء، ولذا وجبَ على كلِّ مسلمٍ تحكيمُ كتابهُ، وسنّةُ نبيه صلى الله عليه وسلم، في دقيقِ أمورِه وجلِّها، على الصعيد الفردي، والجماعي، والأُسري، والخاصّ، والعام، والسياسة، والاقتصاد، والاجتماع، والإعلام، وكلِّ شيء[1].

4 . ربطها بالإيمان:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً *﴾ [النساء: 59] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا *﴾ [النساء :60] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ [النور :51] .

5 . ربطها بالإسلام:

---

[1] المصدر نفسه ص (188).

والإسلامُ أساسُه الاستسلامُ لله، والانقيادُ له بالطاعةِ والخلوصِ من الشرك[1]. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: 125] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الْخَاسِرِينَ *﴾ [آل عمران: 85] وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ *﴾ [النحل: 89] .

6 . ربطها بالشهادتين:

أمّا شهادةُ (أن لا إله إلا الله)، فقد سبقَ في أدلّةِ توحيد العبادة ما يبيّنُ ذلك.

وأما شهادة (أن محمداً رسول الله) فقال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا*﴾ [النساء: 65] وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ *﴾ [آل عمران: 31 . 32] .

7 . طاعةُ غيرِ اللهِ والإعراضُ عنه كفرٌ وشركٌ:

قال تعالى: ﴿وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا *﴾[الكهف: 26] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ *﴾[الأنعام: 121] وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ *﴾[المائدة: 50] فهذه الأدلة جاءت كنماذج، وإلاّ فهي كثيرةٌ جدّاً، تبيّنُ مدى ارتباطِ تحكيمِ الشريعة بالإيمانِ بالله عزَّ وجلّ.

---

[1] الحكم بغير ما أنزل الله د. عبد الرحمن المحمود ص (22 . 27).

تاسعاً: الآثارُ الحسنةُ للحُكْمِ بما أنزل الله تعالى:

1 . الاستخلافُ والتمكين:

إذا أقامَ العبادُ دينَ الله تعالى، وخلصَ لله تحاكمُهم في السرِّ والعلانية، فإنّ الله سبحانه يقوّيهم، ويشدُّ مِنْ أزرِهم، حتى يستخلفَهم في الأرضِ كما استخلفَ الذين من قبلهم، ومكّن لهم، وهي سنةٌ إلهيةٌ ماضيةٌ، نجدُها في قصصٍ شتّى في كتاب الله تعالى.

فهذا يوسف عليه السلام صار من أهلِ الاستخلاف والتمكين، بعدَ أن ابتُلي فأبلى بلاءً حسناً، وظهرَ أنّه كان من المحسنين، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ*﴾ [يوسف: 56] .

وهذا موسى عليه السلام كان حريصاً على أن يُظهِرَ لقومه هذه السنة الماضية، عندما خافوا بطشَ فرعون وقومه، فقال له: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [الاعراف: 128] أي: العاقبةُ الحسنةُ ستكونُ لكم بإرثِ الأرضِ شريطةَ أن تكونوا مِنَ المتقين بإقامةِ شرعِ اللهِ في الأرض[1].

ولما استبطؤوا العاقبة، واستأخروا النصر، نبّههم موسى عليه السلام إلى سُنّةِ الاستخلافِ ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ *﴾ [الاعراف: 129] .

ثم أنجزَ الله عزّ وجل لهم ما وعد، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي

---

[1] تفسير المنار (9 / 81).

إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ *﴾ [الاعراف:137] .

وبعد وراثةِ الأرضِ، والاستخلافِ فيها، منَّ اللهُ عليهم بالتمكين، فقال سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ *وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ *﴾ [القصص :5 . 6] .

وعد الله تعالى المؤمنين من هذه الأمة بما وعد به المؤمنين من قبلهم:

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *﴾ [النور :55] فإذا حقّقَ الناسُ الإيمان، وتحاكموا إلى شريعة الرحمن، فستأتيهم ثمرةُ ذلك، وأثرهُ الباقي فهي مقدّماتٌ ونتائجُ أعمالٍ ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾، فتحقيقُ التحاكمِ إلى اللهِ يتحقّقُ به الاستخلافُ، وتحقيقُ الحكم به يوصِلُ إلى التمكين[1].

إنَّ وقائع التاريخ الإسلامي تصدّقُ هذا الوعد الإلهي للأمة بالنصر والتمكين إذا أقامت شرعه، فليست هناك مِنْ جولاتٍ للمسلمين انتصروا فيها على أعدائهم، وتقدّموا في شؤون دنياهم، إلا وكانَ واقعُهم شاهداً على تمكينِ القرآن الكريم منهم اعتقاداً وعملاً[2].

---

[1] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي د. عبد العزيز مصطفى (1 / 673).

[2] هجر القران العظيم أنواعه وأحكامه د. محمود الدوسري ص (627).

2. الأمن والاستقرار:

ضَمِنَ الله عزّ وجلّ لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه أنْ يُحقّقَ لهم الأمنَ الذي ينشدون إذا استقاموا على التوحيد، ونبذوا الشرك بأنواعه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ *﴾ [الانعام: 82] ولا يُتَصَوَّرُ تحقيقُ أمةٍ الإخلاصَ في العبودية، والخلوصَ من الشرك، وبالتالي الشعور بالأمنِ والاستقرار إلاّ بإقامةِ شرع الله كاملاً غيرَ منقوص، وإلاّ فإنَّ الأممَ المنحرفةَ عن شرعِ اللهِ، يُحيطُ بها الخوف والقلق من جميع جوانبها، لأنّ الأمنَ والأمانَ قد سُلِبَ، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ *أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ *أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ *أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ *﴾ [الاعراف: 79 . 100] في حين أنّ الله امتنَّ على المؤمنين بالأمن في مظنَّة الخوف لما انقادوا لحكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا *﴾ [الفتح: 4] والسكينةُ هي الطمأنينةُ، والذين أَنْزَلَ عليهم السكينةَ هم الصحابةُ رضي الله عنهم يومَ الحديبيّةِ، الذين استجابوا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وانقادوا لحكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم[1].

---

[1] هجر القران العظيم ص(628).

وإذا امتثل الناسُ شرعَ الله، وطبّقوا أحكامه، ضَمِنوا الأمنَ التام في أموالهم وأعراضهم ودمائهم، فما مِنْ حَدٍّ من الحدودِ، ولا شِرْعَةٍ من الشرائع إلا وتُحْفَظُ بسببها ضرورةٌ من الضروراتِ الخمس: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال[1].

وقوانينُ البشرِ الوضعيةِ لا تُحرِزُ أمناً، ولا توفّر استقراراً، إذا ما قورنت بالتشريعات الإسلامية، فالدولُ قديماً وحديثاً تنفِقُ الأموالَ الطائلةَ، وترصُدُ الميزانيات الهائلة لتأمينِ الداخلِ، ومع ذلك لا يحصلُ للناس مِنَ الأمانِ عُشْرُ معشارِ ما يُمْكِنُهم تحصيله لو أنّهم أقاموا حَدًّا من حدودِ الله تعالى كحدِّ السرقة مثلاً[2].

3 ـ النصر والفتح:

قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ *﴾ [الحج: 40 ـ 41] والمعنى: لينصرَّنَّ الله عزّ وجلّ مَنْ ينصرُ دينه، ومَنْ ينصرُ أولياءَه، وينتصِرُ لشرعِهِ في الأولين والآخرين، كما نصرَ المهاجرينَ والأنصارَ على صناديد العرب، وأكاسرة العجم، وقياصرة الرُّوم، وأورثهم أرضَهم وديارَهم[3].

وسنة الله تعالى ماضيةٌ في نَصْرِ مَنْ ينصرُ دينه، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ *﴾[محمد: 7] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [الروم: 47] ولهذا فإنّ حالَ الأمةِ من النَّصر والعزَّة أو عدمِها يُعْتَبَرُ مقياساً دقيقاً، وميزاناً للحُكم على مقدار امتثالها ـ رُعاة ورعيَّة ـ لشريعة الله ظاهِراً وباطِناً، فبالاستجابةُ

---

[1] المصدر السابق ص (628).

[2] المصدر السابق ص (629).

[3] روح المعاني للألوسي (17 / 164).

للشريعةِ يُسْتَجْلَبُ الفتحُ، ويُسْتَنْزَلُ النصرُ، وتُسْتَفْتَحُ الأرضُ[1].

4. العزُّ والشَّرفُ:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *﴾ [الانبياء: 10] أي فيه شرفُكم وصِيْتُكم، وقال تعالى في آخر الآية: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *﴾ والاستفهامُ للتوبيخِ، والمعنى أفلا تعقلونَ ما فُضِّلتم به على غيركم[2].

فهذه الأمةُ لا تستمِّدُ الشرفَ والعزّةَ إلا منِ استمساكها بدينها، وتطبيقها لأحكام الشريعة في جميع نواحي الحياة، كما قال عمر رضي الله عنه إنّا كُنّا أذلَّ قومٍ، ما أعزَّنا اللهُ إلاّ بالإسلامِ، فمهما نطلبُ العزَّ بغيرِ ما أعزَّنا اللهُ به أذَّلنا الله[3].

فهناك ارتباطٌ وثيقٌ بين حالِ الأمةِ الإسلاميةِ عزًّا وذلاًّ مع موقفها من تطبيق الشريعة إقبالاً وإدباراً، فما عزّتْ في يومٍ بغير دينِ اللهِ، وما ذلّت في يومٍ إلا بالانحراف عنه[4].

ومَنْ أراد العزَّةَ فليتعزّزْ بطاعةِ الله تعالى، لأنَّ مصدَرها مِنَ الله تعالى، فليطلبْها مِنْ مصدرِها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: 10] وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾ [المنافقون: 8] وهذه العزّةُ كما كانت للمؤمنين السابقين فهي كذلك للاحقين، شريطةَ أن يقتفوا أثرهم في

---

[1] هجر القران العظيم (630).

[2] زاد المسير لابن الجوزي (5 / 3419).

[3] أخرجه الحاكم في مستدركه ، كتاب: الإيمان ، (1 / 130) رقم (207). وقال: صحيح على شرطهما ، ووافقه الذهبي.

[4] هجر القران العظيم ص (631).

تعظيم حرماتِ اللهِ، وتطبيقِ شرعه، والاعتزازِ بدينه[1].

5. بركةُ العيش ورغدُه:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *﴾ [الاعراف :96] فالآية الكريمةُ تَعِدُ المؤمنين المستجيبين لشرع الله بالبركاتِ متى ما حقّقوا معنى الإيمانِ والتقوى، والطريقُ إلى بركات السماء والأرض الاستجابةُ للهِ ورسولِه صلى الله عليه وسلم، وإقامةُ شريعته، حتى ينالوا هذا المطلب النفسي[2].

6. الهدايةُ والتثبيتُ:

قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا *وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا *وَإِذًا لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا *وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا *﴾ [النساء :65 . 68] والأمر الذي وُعظوا به، ووُعدوا الخيرَ لأجله، هو تحكيمُ الشريعةِ، والانقيادُ التامُّ للرسولِ صلى الله عليه وسلم، فلو أنّهم امتثلوا ما أُمِروا به، لثبّتَ الله تعالى أقدامهم على الحق، فلا يضطربون في أمر دينهم[3].

7. الفلاحُ والفوزُ:

---

[1] المصدر السابق ص (631).

[2] هجر القران العظيم ص (632).

[3] فتح القدير للشوكاني (1 / 732).

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *﴾ [النور: 51. 52] فقد جمعت هذه الآية الكريمةُ أسبابَ الفوزِ في الدنيا والآخرة، وهي: طاعةُ اللهِ ورسولِهِ صلى الله عليه وسلم، وخشيةُ اللهِ وتقواه[1].

8 . المغفرةُ وتكفيرُ السيئاتِ:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [الممتحنة: 12] فقد أمرَ الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يستغفرَ للمؤمناتِ إذا هنَّ بايعنَه على السمعِ والطاعةِ، والرّضى بحكمِ اللهِ ورسولِهِ صلى الله عليه وسلم، وقد جاء الحديثُ على أنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ للمبايعات إذا هُنَّ وفينَ ببيعتهنَّ[2].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال وحولَه عِصَابةٌ من أصحابه: «بايعوني على ألاّ تشركوا باللهِ شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتانٍ تفترونه بينَ أيديكم وأرجلكم، ولا تَعْصُوا في معروفٍ، فمن وفّي مِنْكُم فأجرُهُ على الله، .ومَنْ أصابَ مِنْ ذلكَ شيئاً فعُوقِبَ في الدنيا، فهو كفارةٌ له، ومَنْ أصابَ مِنْ ذلكَ شيئاً، ثم ستره فهو إلى اللهِ، إنْ شاءَ عفا عنه، وإن شاءَ عاقبه»[3].

---

[1] التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (18 / 221).

[2] هجر القران العظيم ص (637).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب ، الحديث (18) ومسلم في صحيحه ، كتاب: الحدود ، باب الحدود كفارات لأهلها (1709).

فقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يبايعُ المؤمنين والمؤمنات على أمورٍ هي في مضمونها إثباتٌ لموقف التحاكم إلى الشريعة، والخضوعِ لها، وهذه البيعةُ كانت على الامتثال لسائرِ شرائعِ الإسلام، وما لم يذكر في هذه المبايعةِ كالصلاة، والزكاةِ، وسائرِ أركان الدين وشعائرِ الإسلام لوضوحِ أمرِه واشتهارِه.

إنّ تحكيمَ الشريعة مظنةُ توبةِ التائبين في الدنيا، وقبولُ هذه التوبة في الآخرة بالمغفرة ومحو السيئات.

9 ـ مرافقةُ النبيينَ والصّدّيقينَ في الجنة:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا *ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا *﴾ [النساء: 69 ـ 70]. سمّى الله تبارك وتعالى التحاكُمَ إلى الله والرسول صلى الله عليه وسلم طاعة، وجعل عاقبتهما معيةً كريمةً ومُقاماً كريماً في صحبةٍ كريمةٍ في جوارِ اللهِ الكريمِ، وحَقٌّ لمن أقام هذا التحاكُمَ على ما يريدُ الله تعالى، أن يرقى صُعُداً مع هذه الصحبة المباركة في الفردوس الأعلَى، لأنَّ النبيين والصّدّيقين والشهداءَ والصالحين هم خيرُ من أطاعَ الله تعالى ظاهراً وباطناً وأقامَ شريعته ووحّده، فمَنْ حذا حذوهم حُشِرَ معهم، وصحبهم في الفردوس الأعلى من الجنة، وهو طريقٌ مفتوحٌ لكلّ منِ اقتدى بهم ظاهراً وباطناً[1].

عاشراً: الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله تعالى:

إنَّ للحكمِ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ اثاراً دنيويةً وأخرويةً سيئةً، تبدو على الحياةِ في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، تصيبُ بشررِها محاسنَها، وتشوّه معالمها،

---

[1] هجر القران العظيم ص (636 ـ 639).

وبذلك تتحوّل الحياةُ إلى فتنةٍ في الدنيا والآخرة، فالله عزَّ وجلَّ حذّرنا من مخالفة الأوامرِ الشرعيّة في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *﴾ [النور: 63] أي: فليحذرْ وليخشَ من خالفَ شريعةَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم باطناً أو ظاهراً أي: في قلوبهم من كفرٍ أو نفاقٍ أو بدعةٍ أي: في الدنيا ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *﴾، أو حَدٍّ، أو حبسٍ، أو نحو ذلك[1].

إن المجتمعاتِ والشعوبَ التي تُسلِمُ قيادتها للحكام الذي يحكمونها بغير شريعةِ اللهِ تدفعُ ضريبةَ التخلّي عن الحكم بما أنزل الله من أموالِها وأعراضِها وعقولِ أبنائها، وغير ذلك من ثرواتها الأدبيّةِ والماديّةِ، ذلك إلى جانب ما يجرُّه التَّخلّي عن الحكمِ بما أنزل الله من الجوعِ والخوفِ وضنكِ العيش، وغضبِ اللهِ في الدنيا والآخرة[2].

وإليك بعض الاثار المترتبة على الحكم بغير ما أنزل الله في الدارين:

1 . قسوة القلب:

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: 13] فهم لما نقضوا ميثاقَ اللهِ على السّمعِ والطاعةِ، وساءَ تصرُّفهم في آيات اللهِ، وتأوّلوا كتابَ الله على غيرِ ما أنزله، وحملوه على غيرِ مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، ثم تركوا العملَ بهِ رغبةً عنه، جعلَ الله قلوبهم قاسيةً، فلا يتّعظون بمواعظه لغلظِ قلوبهم وقساوتها، وهذا من أعظم العقوباتِ التي

---

[1] المصدر السابق ص (642).

[2] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2 / 705 . 710).

يُخْذَلُ بها القلب، ويُمنعُ الألطاف الربانية، ولا يزيدُه الهدى والخيرُ إلا شرّاً[1]. وهكذا الشأنُ في كلِّ من عدلَ عن شرعِ اللهِ، مُحكّماً عقله وهواه، فجزاؤه أن يُطبعَ على قلبه قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ *﴾ [الجاثية: 23] ..

2. الضلالُ عنِ الحقِّ:

قال تعالى: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ *﴾ [ص: 26] ومعلومٌ أنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام[2] لا يحكمُ بغيرِ الحقِّ، ولا يتّبع الهوى فيضله عن سبيل الله، ولكنَّ الله تعالى يأمُرُ أنبياءَه عليهم السلام، وينهاهم، ليُشرِّعوا لأممهم[3].

وقد جاء التحذيرُ الصريحُ من خطورةِ اتّباع الأهواء، وتقديمها على أحكام الله تعالى، وأنّه ليس لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ أن يكونُ له اختيارٌ عند حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فما أمرَ الله هو المتّبعُ، وما أرادَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم هو الحقُّ، ومن خالفهما في شيءٍ فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً، لأنَّ الله تعالى هو المقصد، والنبيَّ صلى الله عليه وسلم هو الهادي الموصل، فمن ترك المقصِد، ولم يسمع قول الهادي، فهو ضالٌّ قطعاً[4]، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً *﴾ [الاحزاب: 36]

---

[1] هجر القران العظيم ص (643).
[2] المصدر نفسه ص (643).
[3] أضواء البيان (7 / 28).
[4] التفسير الكبير (25 / 183).

3. الوقوع في النفاق:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقًا *﴾ [النساء: 61. 62] يُبتلَى بالنفاقِ مَنْ يضمِرون الكراهيةَ لشرعِ الله تعالى، حتى تصيرَ قلوبُهم مريضةً بهذا النفاقِ، فيحاولون جهدَهم أن يُخفوا نفاقَهم، ظانّين أنَّ ذلك أمرٌ ممكن، ولكنْ يأبَى اللهُ تعالى إلاّ أن يفضحَ المنافقين بفلتات ألسنتهم، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ *﴾[محمد: 29. 30] و(الأضغانُ): جمعُ ضِغنٍ، وهو ما في النفوسِ من الحَسَدِ، والحِقْدِ، والعداوةِ للإسلامِ وأهلِهِ، القائمين بنصرِهِ[1] و(لحن القول): ما يبدو من كلامهم الدّالِّ على مقاصِدهم بالتعريض أو التورية.

إنّ شأنَ المنافقين الدائم هو الاستهزاءُ بالشريعة وحملتِها، والإعراضُ عمّا أنزل الله تعالى، والصدُّ عن سبيله، وقد كانوا يُشفقون من افتضاح نفاقهم بهذا الاستهزاء والإعراض، حتّى قال قائلهم: واللهِ لوددتُ أنّي قُدّمتُ فجُلدتُ مئةً، ولا ينزل فينا شيءٌ يفضحنا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ *﴾ [التوبة: 64. 66] .

---

[1] هجر القران العظيم ص (645).

4 . الحرمان من التوبة:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ *﴾ [المائدة: 41] نزلت هذه الآية الكريمةُ في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم المقدِّمين آراءَهم وأهواءَهم على شرائع الله عز وجل أي: أظهروا الإيمان ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾، وقلوبُهم خرابٌ، خاويةٌ منه، وهؤلاء المنافقون أعداء الإسلام وأهله والجريمة التي اقترفها هؤلاء هي انحرافهم عن شريعة الإسلام بتبعيضها تارة، وأخرى بتحريفها حسب أهوائهم وشهواتهم، ومصالحهم الدنيئة، فجاءت عقوبتهم متلائمة مع فظاعة جرمهم، الحرمان من التوبة (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) أي: إن الله تعالى حتم عليهم ألا يتوبوا من ضلالهم وكفرهم، فلم يرد الله أن يطهر من دنس الكفر ووسخ الشرك قلوبهم بطهارة الإسلام فيتوبوا[1].

ودلّت الآية الكريمةُ على أنّ مَنْ كان مقصودُه بالتحاكم إلى الحُكم الشرعي اتّباعَ هواه، وأنّه إنْ حُكِمَ له رضيَ، وإن لم يُحْكَمْ له سَخِطَ، فإنَّ ذلك مِنْ عدمِ طهارةِ قلبه، كما أنَّ مَنْ حاكمَ أو تحاكمَ إلى الشرعِ، ورضيَ به، وافقَ هواه أو خالفَه، فإنّه من طهارةِ القلبِ.

[1] تفسير الطبري (209/4) هجر القرآن العظيم ص (647).

ودلَّت أيضاً: على أنَّ طهارةَ القلبِ سببٌ لكلِّ خيرٍ، وهي أكبرُ داعٍ إلى كلِّ قولٍ رشيدٍ، وعملٍ سديدٍ[1].

كما دلّت على الخزي لليهود والمنافقين، فبالإضافة لعدم طهارةِ قلوبهم فإنَّ هناك خزياً يلاحِقُهم، ويحيطُ بهم من جميع الجهات، قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ اليهودِ: فضيحتُهم بظهورِ كذبهم في كتمان نصِّ الله تعالى في إيجابِ الرجم، وأخذ الجزية منهم، وخزي المنافقين: هتكُ أستارِهم باطّلاع الرسول صلى الله عليه وسلم على كذبهم وخوفهم من القتل[2].

5 . الصَّدُّ عن سبيلِ اللهِ:

قال تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [التوبة: 9] فهذا حديثُ القرآن الكريم عن مشركي العرب الذين اعتاضوا عن اتّباع شرع الله، بما اهتموا به من أمور الدنيا الخسيسة، صادّين الناسَ عن الإسلام.

وهناك صنفان متقابلان من أهل الكتاب، تحدّث القرآن الكريم عنهم في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا *وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ

---

[1] تفسير السعدي (1 / 485).

[2] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2 / 718).

سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا *﴾ [النساء: 160. 162] ففريقٌ توعّدهم الله تعالى بالعذابِ الأليم، لتعاطيهم الرِّشوة على الحكم، فصدّوا الناسَ عن الدِّين، إضافةً إلى أكلهم الرِّبا، وأموال الناس بالباطل، وفي مقابلهم فريقٌ استحقّوا الاجرَ العظيم، لإيمانهم بالشريعة المنزَّلة، ثم إيمانهم بالشريعة الحقّة الناسخة، فكانوا مثلاً يُقتدى بهم[1].

ولهذا الارتباط الوثيق بين الانحراف عن شرع الله والصَّدِّ عن دينه، استحقَّ الصَّادون عن سبيلِهِ اللعنةَ والطردَ من رحمته، قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ* الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: 44–45]

6 . غيابُ الأمن وانتشارُ الفوضى:

قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى *أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى *﴾ [العلق: 6. 7] والطغيانُ هو الصفةُ السائدةُ في الإنسانِ عندما يكونُ في معزلٍ عن شرح الرحمن، ولو تأمّلنا وصفَ القرآن الكريم للإنسان بمعزلٍ عن الإيمان، لوجدناه عجباً، فهو ضعيفٌ أمام المغريات، ونسيٌّ للإحسان، وظلومٌ في الحقوق، وكَفَّارٌ للنعم، ومجادِلٌ بالحق أو الباطل، وعجولٌ متسرّعٌ، وناكرٌ للفضلِ، وبخيلٌ بما عنده، وشديدٌ في الخصومةِ، وشَرِهٌ في جلبِ الخير لنفسِه،وقنوطٌ إذا عجزَ عن جلبِ هذا الخير، وهَلِعٌ جَزِعٌ إذا أصيبَ بضُرٍّ، أو ألَمَّ به شَرٌّ، وهو ضانٌّ بالخيرِ إذا تحصّل عليه، ولا يمكن أن تواجه وتعالج وتهذّب طباعُ هذا المخلوقِ إلا بشريعةٍ مِنْ عندِ خالقِهِ:

---

[1] هجر القران العظيم ص (649).

﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ *﴾ [الملك: 14] وكيف نتخيَّلُ مجتمعنا يُتْرَكُ فيه الإنسانُ كالوحش الضاري، أو السَّبعِ الكاسر، دونما شريعةٍ تطهّر قلبه وجوارحه[1].

إنَّ تحقيقَ الأمنِ في المجتمعاتِ مرتبطٌ بتطبيق شرع لله، فقد خَصَّ اللهُ عزَّ وجلَّ مَنْ طبّق شرعَهُ، وحقَّقَ شريعتَه بالأمن، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ *﴾ [الانعام: 82] والمتأمّلُ في حالِ المجتمعاتِ غير المحكومة بحكمة الشريعة، وضبطها للأمور يرى كثرةَ القتلِ والاغتصابِ، واستباحةَ الأموالِ بكلِّ الطرق والأشكالِ، وانتشارَ الفواحشِ والزنا والفجورِ والخَنا، والآدمانِ، واللصوصيةِ، والجاسوسيّةِ، والتحاسدِ، والشُّحِّ، والبخلِ، والجهلِ، والظُّلمِ، وهذا كلُّه من مظاهر غياب الأمن المرتبط بتحكيم شرع الله.

7 . انتشارُ العداوةِ والبغضاءِ:

قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: 64] .

فاليهودُ لما خالفوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وكذَّبوه، ولم ينقادوا لشريعته، أخبر الله عزّ وجلّ أنَّ قلوبهم لا تجتمع، بل العداوةُ واقعةٌ بينهم دائماً، لأنهم خالفوا شريعة الحقّ[2].

---

[1] المصدر نفسه ص (650).

[2] هجر القران العظيم ص (653).

والنصارى بتركهم بعضَ ما ذُكِّروا به من شريعتهم، ثم تكبُّرِهم عن اتّباع النبيّ صلى الله عليه وسلم كانت عاقبتُهم كعاقبةِ إخوانهم اليهود، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ *﴾ [المائدة :14] .

والأمةُ الإسلامية وعظها الله تعالى بالعداوةِ الملقاةِ فميا بين طوائف اليهود والنصارى، حتّى لا تقعَ فيما وقعوا فيه، فالرعيةُ تُلقى بينهم العداوات إذا رغبتْ عن شرعِ اللهِ، فمتى تركَ الناسُ بعضَ ما أمرهم الله به، وقعتْ بينهم العداوةُ والبغضاءُ، وإذا تفرّقَ القومُ فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا[1].

وإذا خرجَ ولاةُ الأمورِ عن الحكمِ بين الناس بالكتاب والسنة، فقد حكموا بغير ما أنزلَ الله، ووقع بأسهم بينهم، وهذا مِنْ أعظمِ أسباب تغيير الدول[2].

وقد تعوّذَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم من مغبةِ تركِ الحكم ما أنزل الله، وعدَّ ذلك من أعظم أسبابِ وقوعِ العداوةِ والبغضاءِ بين المسلمين[3]، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقال: «يا معشرَ المهاجرين، خمسٌ إذا ابتليتُم بهنَّ وأعوذُ بالله أن تُدركوهنَّ ... وما لم تحكم أئمتُهم بكتابِ الله ويتخيّروا مِما أنزلَ الله، إلا جعلَ الله بأسهم بينهم»[4].

---

(1) مجموع الفتاوى (3 / 421).

(2) المصدر نفسه (35 / 388).

(3) هجر القران العظيم ص (656).

(4) أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب: الفتن ، باب: العقوبات (4019) ، وأبو نعيم في الحلية 3/ 220 و8/ 333. 334 والحاكم 4/ 540 وإسناده حسن.

8. الحرمانُ من النصر والتمكين:

قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *﴾ [آل عمران: 160] وليس شيءٌ أدعى للخذلانِ والحرمانِ من النصر والتمكين مثل هجر التحاكم إلى شريعة الله تعالى، وعدم نصرِها في الأرض، ويُعتبر ذلك إخلالاً بشرط النصر المنصوص عليه في آيات كثيرة من كتاب الله، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ *﴾ [محمد: 7] والمعنى: إنْ تنصروا دينَ اللهِ وشريعتهَ بالعملِ بها وتعظيمِها ينصرْكُمُ الله على أنفسكم، وعلى أعدائكم من شياطين الجنّ والإنس، فإنَّ الجزاءَ من جنس العمل[1].

وقد نصَّ القرآن الكريم على كيفية نصر الدين والشريعة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ *﴾ [الحج: 41] والآية الكريمةُ تدلُّ على أنَّ الذين لا يقيمون الصلاة، ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، ليس لهم وعدٌ مِنَ اللهِ بالنصرِ البتةَ... فالذين يرتكبون جميع المعاصي ممّن يتسمّون باسم المسلمين، ثم يقولون: (إن الله سينصرنا) مغرورون، لأنّهم ليسوا من حزبِ اللهِ، الموعودين بنصره، كما لا يخفى.

ومعنى نصرُ المؤمنين لله، نصرُهم لدينه ولكتابه، وسعيهم وجهادُهم في أن تكونَ كلمتُه هي العليا، وأن تقامَ حدودُه في أرضه، وتُمْتَثَلَ أوامرُه، وتُجْتَنَبَ نواهيه، ويُحْكَمَ في عبادِه بما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم[2].

---

[1] تفسير ابن كثير (4/ 175) ، هجر القران العظيم ص (656).

[2] المصدر السابق ص (657).

9. هولُ العقابِ الذي ينتظرُ المبدّلين لشرعِهِ:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ * وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ *﴾ [النساء: 59. 60]

ففي هذه الآيات الكريمة أنكرَ الله تعالى على مَنْ حرّمَ ما أحلَّ الله، أو أحلَّ ما حرَّم الله، بمجرّد الاراءِ والأهواء، التي لا مستندَ لها، ولا دليلَ عليها، ثم توعّدهم على ذلك يومَ القيامة فقال: أي: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ظنُّهم أنْ يُصنعَ بهم يومَ مرجعهم إلينا يومَ القيامة[1]؟ فهذا استفهامٌ يرادُ منه تهويلُ وتفظيعُ العقابِ الأليم، الذي ينتظِرُ المفترين المتقوّلين على الله، المبدّلين لشرعه، ولذا نُكّرَ وأُبهم، فمصيرُهم هو أسوأُ المصير، وعقابُهم أوخمُ العقاب[2]. وصيغة الغائب تشمل جنسَ الذين يفترون على الله الكذبَ، وتنتظمهم جميعاً، فما ظنُّهم يا تُرى؟ ما الذي يتصوّرون أن يكونَ في شأنهم يومَ القيامة؟ وهو سؤالٌ تذوبُ أمامَه حتى الجبالَ الصلدةَ الجاسية[3].

10. الإهانة عند قبض الأرواح:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ *ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ *فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ

---

[1] تفسير ابن كثير (4/ 290) ، هجر القران العظيم ص (658).
[2] تفسير أبي السعود (4/ 157) ، هجر القران العظيم ص (658).
[3] في ظلال القران (3 / 1802).

*ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ *﴾ [محمد :25 . 28]

هذه الآيات الكريماتُ تهدِّدُ وتتوعّدُ نوعاً من المنحرفين عمَّا أنزل الله تعالى، وهم الذين يطيعون أعداءَ الله ـ كاليهود والنصارى ـ في بعضِ ما يأمرون به، والآيات تصفهم بالردّة بسبب ذلك الفعل، وتتوعّدهم بمصيرٍ مظلمٍ، وعذابٍ مؤلمٍ، يبدأ معهم منذ اللحظات الأولى من مفارقة الدنيا[1]. أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكةُ لقبض أرواحهم، وتعصّت الأرواحُ في أجسادهم، واستخرجها الملائكةُ بالعنفِ والقهرِ والضربِ[2].

وقال سبحانه في نوع آخر من المنحرفين عن شرعه المنزل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ *﴾ [الانعام :93] فالآية تحكي أحوالَ هؤلاءِ عندَ معاينةِ الموتِ، والخروجِ من الدنيا أي: شدائده وسكراته بالعذابِ ومطارقِ الحديد لقبض أرواحهم أي: أخرجوا أرواحكم من ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، أي هاتوا أرواحكم، والأمرُ للإهانةِ والإرهاقِ، إغلاظاً في قبضِ أرواحِهم، ولا يتركون لهم راحةً، ولا يعاملونهم بلينٍ، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم يجزعون، فلا يلفظون أرواحهم، وهو على هذا الوجه وعيدٌ بالالام عند النزع، جزاءً في الدنيا على

(1) تفسير القاسمي (6 / 259) ، تفسير الطبري (26 / 60).

(2) تفسير ابن كثير (7 / 323).

شركهم[1]. أي: الهَوان أي: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آياتهِ تَسْتَكْبِرُونَ *﴾، وتأنفون عن قبول ما أنزله الله في آياته[2].

11 . الأكلُ من النار، وغضبُ الجبار:

قال العليم الخبير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ *ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ *﴾ [البقرة :174 . 176].

بعد أن تحدّثتِ الآيات عن بعض أحكام الشريعة مثل تحريم أكلِ الميتةِ، والدمِ، ولحمِ الخنزيرِ، وما أُهلَّ لغيرِ الله به، توعّدت من يكتمون أحكامَ الشريعةِ مقابلَ ثمنٍ قليلٍ يأكلونه، لأنّ كتمانَ الشريعة يسلتزمُ أنواعاً من الانحراف عنها[3]، فهؤلاء الذين يكتمون الحقَّ المنزل، لقاءَ ثمنٍ رخيصٍ، إنّما يأتون حراماً، يعذّبهم الله عليه بنار جهنم، يأكلونها في بطونهم الجشعة، فهي نارٌ على الحقيقةِ، يأكلونها يومَ القيامة، جزاءَ ما اقترفوا من أكلِ الرشوةِ على الدين[4]، والذي هو أعظم من عذاب النار، غضبُ الله عليهم، وإعراضهُ عنهم أي: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ﴾ يطهّرهم من الأخلاق الرَّديئةِ، إذ ليسَ لهم أعمالٌ تصلحُ للمدح والرِّضا والجزاء عليها، بل يعذّبهم

---

[1] التحرير والتنوير (6 / 223).

[2] تفسير القرطبي (7 / 43 . 44).

[3] الحكم والتحكم في خطاب الوحي (2 / 764).

[4] تفسير القرطبي (2 / 239) ، تفسير السعدي (1 / 134).

عذاباً أليماً، لأنهم تركوا كتابَ الله، وأعرضوا عنه، وعن التحاكم إليه في الدنيا، واختاروا الضلالة على الهدى، والعذابَ على المغفرة[1].

12 . العذابُ المهينُ:

ذكر العزيزُ الحكيمُ جوانبَ من أحكامِ الشريعة في صدرِ سورةِ النساء، والمتمثّلة في بيان أموال اليتامى، وأحكامِ الأنكحةِ، وأحوالِ المواريثِ والوصايا، ثم ذكر بعدَ ذلك الوعد والوعيد، ترغيباً في الطاعة، وترهيباً من المعصية، فقال سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾ [النساء: 13] فهذا هو الوعدُ.

أما الوعيد فهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ *﴾[النساء: 14] فكلُّ من اعتدى على حدود اللهِ تعالى، مُكذِّباً أو جاحداً، أو مُبدِّلاً أو مبغضاً، فهو متوعَّدٌ بهذا العذاب المهين، لأنّه غيَّرَ ما حكمَ الله به، وضادَّ الله في حُكمِه، وهذا إنّما يصدر عن عدمِ الرّضا بما قسمَ الله، وحكمَ به، ولهذا يُجازيه الله بالإهانةِ في العذاب الأليم[2].

هذه هي أهم الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله، قال الشاعر (من الكامل):

واللهِ مــا خــوفي الــذنوبَ فإنّهــا لعلــى طريــقِ العفــوِ والغفــرانِ

لكنّمـا أخشـى انسـلاخَ القلـبِ عـن تحكــيمِ هــذا الــوحيِ والقــرآنِ

---

[1] هجر القران العظيم ص (662).

[2] المصدر نفسه ص (664).

حادي عشر . حماية الرسول صلى الله عليه وسلم لتوحيد العبادة:

بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا التوحيد أتمَّ بيانٍ، ودعا إليه أعظمَ دعوةٍ، وجُلُّ القرآن الكريم نزلَ ليقرّرَ هذا النوعَ من التوحيد، ويدعو إليه، وجاهد رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في ذلك أعظمَ جهادٍ، وقام على حمايتهِ وصيانةِ حماه حتّى أتاهُ اليقين، بل إنّه وهو في الرمقِ الأخيرِ، وهو يعالِجُ نزعَ الروحِ يبيّنُ لأمته أهميةَ هذا التوحيد.

كما ربَّى أصحابه رضي الله عنهم على ذلك، ليكونوا جنوداً وحماةً لهذا التوحيد، ويسلّموا هذه الأمانة إلى مَنْ بعدهم صافيةً نقيةً، وقد كانوا كذلك رضي الله عنهم وأرضاهم.

وفيما يلي بعضُ الأمثلةِ على حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا النوع من التوحيد، وبيانه، والنهي عن كل ما يضاده من شرك، أو بدعة، أو يكون وسيلة وذريعة إلى ذلك، وإن لم يكن في نفسِه شراً[1].

1 . النهي عن الغلو والإطراء:

حذَّر الرسولُ صلى الله عليه وسلم أُمّتَهُ من الغلوِّ، ونهاهم عن ذلك، وحذَّرهم منه، ومن إطرائه، أو تجاوز الحد في مدحه والثناء عليه، حمايةً لجانب التوحيد، فقال صلى الله عليه وسلم: «إيّاكُمْ والغلوَّ، فإنّه أهلكَ مَنْ كانَ قبلَكُم الغلوُّ»[2]، وسدَّ الذرائعَ

---

[1] حماية الرسول حمى التوحيد ص (287).

[2] أخرجه النسائي في سننه ، كتاب: مناسك الحج ، باب: التقاط الحصى (3057) ، وابن ماجه في سننه ، كتاب المناسك ، باب: قدر حصى الرمي (3029) بلفظ «إياكم والغلو في الدين ، فإنه أهلك من كان قبلكم الغلوُّ في الدين». قال الألباني في السلسلة الصحيحة (1283): صحيح.

الموصلة إليه، فنهى عن الإطراءِ، وقال صلى الله عليه وسلم: «لا تطروني كما أطرتِ النصارى ابنَ مريم، فإنما أنا عبدُه، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه»[1].

2. زيارةُ القبورِ والنهيُ عن اتخاذِها مساجدَ:

بيّن رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الغايةَ من زيارةِ القبورِ، والحكمةَ التي مِنْ أجلها شُرِعتْ زيارتُها، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فزوروا القبورَ، فإنَّها تذكّر الموتَ»[2].

ووضّحَ أيضاً أنَّ من الحكمةِ في زيارة القبور الدعاءَ للميّتِ، والاستغفارَ له، والترحُّمَ عليه[3].

وبين رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم كيفيةَ الزيارةِ الشرعيةِ للقبورِ بقوله وعمله، وعلّمها أصحابه، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أنّ جبريلَ عليه السلام أتى رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقال: إنّ ربَّكَ يأمُرُكَ أن تأتيَ أهلَ البقيعِ، فتستغفرَ لهم، قالتْ: قلتُ: كيف أقولُ لهم يا رسول الله؟ قال قولي: «السلامُ على أهلِ الديارِ من المؤمنينَ والمسلمينَ، ويرحمُ اللهُ المستقدِمينَ مِنَا والمستأخِرينَ، وإنّ شاءَ اللهُ بكم لاحقون»[4].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: أحاديث الأنبياء ، باب: قول الله: {} [مريم: 16] {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا *}

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الجنائز ، باب: استئذان النبيّ ربَّه عزّ وجلّ في زياة قبر أمه (976).

[3] حماية الرسول حمى التوحيد ص (295).

[4] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الجنائز ، باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (974).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى عن زيارة القبور أولَ الأمرِ، سدّاً للذريعة، ثم أذنَ فيها، حين تمكّن التوحيدُ في القلوب، وبيّنَ الزيارةَ المشروعة، وأمرَ بها، ونهى عن كلِّ ما يخالفها، وحذّر منها أشدَّ التحذير[1].

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم قوله: «اللهمَّ لا تجعلْ قبرِي وثناً يُعْبَدُ»[2].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذِّرُ وينهَى أمته عن اتخاذِ قبرِه مسجداً؛ أو القبورِ مساجدَ، فعن أمِّ سلمة رضي الله عنها وأمِّ حبيبة رضي الله عنها ذكرتا لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم كنيسةً رأتها بأرضِ الحبشة، وما فيها من الصور، فقال: «أولئكَ قومٌ إذا ماتَ فيهم الرجلُ الصالحُ، أو العبدُ الصالحُ، بنوا على قبرِهِ مسجداً، وصوّروا فيه تلكَ الصورَ، أولئكَ شِرارُ الخَلْقِ عندَ الله»[3].

وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ في مرضِ موته: «لعنةُ اللهِ على اليهودِ والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ» يحذِّر ما صنعوا، ولولا ذلك لأبرزَ قبرُه[4].

وقد نهى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أن يُبنى على القبورِ أو يُقْعَدَ عليها، أو يُصَلَّى عليها[5].

---

[1] حماية الرسول حمى التوحيد ص 296.

[2] أخرجه بهذا اللفظ مالك في موطئه ، كتاب: النداء للصلاة ، باب: جامع الصلاة ، (416) مرسلاً. وأخرجه أحمد في مسنده ، (2/ 246) بلفظ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً».

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الصلاة ، باب: الصلاة: في البيعة (424) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة ، باب: النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور (528).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الصلاة ، باب: الصلاة في البيعة (425) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة ، باب: النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور (529).

[5] رواه أبو يعلى في مسنده (2 / 66) ورجاله ثقات.

3 . الرُّقى والتمائم:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الرُّقى والتمائمَ والتِوَلةَ شركٌ»[1].

والمقصودُ بالرقى غيرُ المشروعِ منها، وهي التي تسمّى العزائم، التي يعتقدون فيها دفعَ الافاتِ، والحفظَ من المكروهاتِ، وأمّا ما كان منها مِنَ المشروعِ والمأثورِ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدخلُ في ذلك، لما جاء في الحديث عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: كنّا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله! كيف ترى في ذلك؟ فقال: «اعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأسَ بالرُّقى ما لم يكن فيه شرك»[2].

والرُّقى المشروعة هي التي توفّرت فيها شروط ثلاثةٌ:

1 . أن تكون بكلام الله، أو بأسمائه وصفاته.

2 . أن تكونَ باللّسان العربي [3]، وبمعانٍ معروفة.

3 . أن يعتقد أنَّ الرقية لا تؤثِّرُ بذاتها، بل بتقديرِ اللهِ عزّ وجلَّ.

أما التمائم: فهي جمعُ تميمةٍ، وهي: ما يعلَّقُ عادةً على الصبيان مِنْ خرزٍ أو عظامٍ أو جلدٍ، أو نحو ذلك، لاعتقادِ دفعِ العين عنهم، وقد نهى عنها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لما فيها من شركٍ، أو ذريعةٍ إليه[4].

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب: الطب ، باب: في تعليق التمائم (3883) ، وابن ماجه في سننه ، كتاب: الطب ، باب: تعليق التمائم (3530). وهو صحيح. انظر السلسلة الصحيحة (331).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: السلام ، باب: لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك (2200).

[3] لما جاز لغير العربي أن يدعو بلسانه جاز له أن يرقي به فالرقية دعاء (ن).

[4] حماية الرسول حمى التوحيد ص (316).

وأما التِوَلَةُ: بكسر التاء، وفتح الواو، فهي ما يوضع بزعم أنّه يحبِّب المرأةَ إلى زوجها، كما فسّر ذلك ابنُ مسعود رضي الله عنه قالوا: يا أبا عبد الرحمن هذه الرُّقى والتمائم قد عرفناها، فما التِوَلة؟ قال: شيءٌ تضعه النساءُ يتحبَّبْنَ إلى أزواجهنَّ[1].

وكانت المرأة تجلِبُ به محبةَ زوجها، وهو ضربٌ من السحر[2].

وهذه الأحاديثُ وغيرُها تنهَى عن هذه الأمور، التي فيها توكلٌ على غيرِ الله تعالى، واعتقادُ جلبِ نفعٍ، أو دفعِ ضُرٍّ، من دونه عزّ وجلّ، والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *﴾ [يونس: 107] .

فقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمايةِ التوحيد من مثل هذه الأمور، التي قد يتساهل فيها المرءُ مع خطورتها، فمنْ تعلّق وأنزل حوائجَه به، والتجأ إليه، وفوَّض أمره إليه، كفاه، وقرَّب إليه كلَّ بعيد، ويسّر له كلَّ عسير، ومن تعلّقَ بغيره، أو سكنَ إلى رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك: وكله لله إلى ذلك، وخَذَلَهُ، وهذا معروفٌ بالنصوص والتجارب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3][3]

4 . الاستسقاءُ بالأنواء:

ومعناه نسبةُ السقيا ونزولِ المطرِ إلى الأنواءِ، والأنواءُ: جمعُ نوءٍ، وهي منازلُ القمرِ[4].

---

[1] المصدر نفسه ص (317).
[2] المصدر نفسه ص (317).
[3] فتح المجيد ص (105).
[4] حماية الرسول ص (32).

وقد حرص الرسولُ صلى الله عليه وسلم أن يبيّنَ لأمته ما كانَ عليه أهلُ الجاهلية من شركٍ وضلالٍ، وأمرهم بالحذرِ من ذلك، والبعدِ عنه، وأهمُّ ذلك وأعظمُه ما كان متعلّقاً بأمورِ الاعتقاد، ومن ذلك ما كان شائعاً في الجاهليةِ من نسبة نزول المطر إلى النجوم ومطالعها ومغاربها، وبيّنَ عليه الصلاة والسلام ما في ذلك من الشركِ المنافي للتوحيد، كما جاء في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أربعٌ في أمتي مِنْ أمرِ الجاهليةِ لا يتركونهنّ: الفخرُ في الأحسابِ، والطعنُ في الأنسابِ، والاستسقاءُ بالنجومِ، والنياحةُ»[1].

وعن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلّى بنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم صلاةَ الصبحِ بالحديبيّة على إثرِ سماءٍ كانتْ من الليلِ، فلمّا انصرفَ، أقبلَ على الناسِ، فقال «هل تدرونَ ماذا قالَ ربُّكم»؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «أصبحَ مِنْ عبادِي مؤمنٌ بي وكافِرٌ، فأمّا مَنْ قالَ: مُطِرْنا بفضلِ اللهِ ورحمتِهِ فذلك مؤمنٌ بي، كافرٌ بالكواكبِ، وأمّا مَنْ قال: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا وكذا، فذلكَ كافرٌ بي مؤمنٌ بالكواكب»[2].

وهذا الحديثُ القدسيُّ العظيمُ يخبر به رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن ربِّه عزَّ وجل أنَّ مِنَ الناسِ من ينسِبُ نعمَهُ سبحانه وتعالى إلى غيرِهِ، ويضيفُ أفعالَه إلى سواه، وهو تعالى المنعِمُ وحدَه، الذي يجبُ أن تنسبَ إليه وحدَه جميعُ النعم، جلّ

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنائز ، باب: التشديد في النياحة (934).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الأذان ، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلم (1810) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان كفر من قال: مطرنا بالنَوْءِ (71).

شأنه، فهو المتفرّدُ بالرزق، المستحقُّ أن تُنْسَبَ إليه النعمُ، ويفرَدَ بالشكرِ عليها وحدَه، لا شريك له[1]. وهذا البيان من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حمايةٌ منه لجانب التوحيدِ، حرصاً على أمته من الشركِ.

لقد نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبيّنَ أنَّ الله سبحانه هو الذي ينزل الأمطار في آيات محكماتٍ قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ *وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ *فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾ [الروم: 48 . 50] قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ *هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *﴾ [لقمان: 10 . 11] .

وقد نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيّنُ الحكمةَ من خلق النجوم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 97] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ *﴾ [الملك: 5] فهذه ثلاثُ حكمٍ جعلها الله سبحانه وتعالى في خلق النجوم، فهي زينةٌ للسماء، ورجومٌ تُرْجَمُ بها الشياطينُ عند استراقهم السمع، ووسيلةٌ للاهتداء في ظلمات البر والبحر[2].

---

[1] حماية حمى التوحيد ص (323).

[2] حماية الرسول حمى التوحيد ص (326).

5. السحر:

وهي رقًى وعزائمُ وعُقَدٌ يفعلها السحرةُ، تؤثّر في القلوبِ والأبدانِ بمرضٍ، أو قتلٍ، أو تفريقٍ بينَ المرءِ وزوجه، وغيرِ ذلك، كما أخبر الله عن ذلك في كتابه الكريم، فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة :102]، ويقع ضرره بمشيئة الله عز وجل ﴿وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة :102] .

والسحر حقيقة، وقد أمر الله بالاستعاذة من أهلِه إذ يقول عز وجل في سورة الفلق: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ *﴾ و(النفاثات): هنَّ السواحر.

وبيّنَ سبحانه أنَّ السحرَ كفرٌ بالله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ [البقرة :102] قال أبو بكر بن العربي: وما كفرَ سليمان قطُّ، ولا سحرَ، ولكنّ الشياطين كفروا بسحرِهم، وأنّهم يعلّمونه الناس، ومعتقِدُ السحرِ كافرٌ، وفاعله كافِرٌ، ومعلِّمه كافر، ويعلّمون الناسَ ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما كانَ الملكانِ يعلمان أحداً حتى يقولا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ﴾ [البقرة :102] .

وقد ذَمَّ الله عز وجل السحرَ وأهلَه في كتابه الكريم، وبيّنَ بطلانَ عملِهم، وأنَّهم لا خلاقَ لهم في الآخرة، وجاء ذلك في آيات كثيرة من كتابه، منها قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *﴾ [البقرة :102] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ

إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ *﴾ [يونس :81] وقوله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى *﴾ [طه :69] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجتنبوا السبع الموبقاتِ» قالوا: يا رسول الله وما هُنّ؟ قال: «الشركُ باللهِ، والسِّحْرُ، وقتلُ النَّفْسِ التي حرّم الله إلا بالحق، وأكلُ مالِ اليتيمِ، وأكلُ الربا، والتولّي يومَ الزحف، وقذفُ المحصناتِ المؤمناتِ الغافلات»[1].

6 . الكهانة:

تضافرتِ الآيات والأحاديثُ الصحيحة بالنهي عن إتيانِ الكُهّان وتصديقهم فيما يقولون، وتحريمِ ما يُعْطَوْن من حلوان[2]. قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ *تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ *يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ *﴾ [الشعراء :221-223] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أتى عرَّافاً، فسأله عَنْ شيءٍ، لم تُقبلْ له صلاةٌ أربعينَ ليلةً»[3].

وعن أبي مسعود قال: نهى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن ثمنِ الكَلْبِ، ومَهْرِ البَغِيّ، وحُلوانِ الكاهنِ[4].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الوصايا ، باب: قول الله تعال: {} [النساء: 10] {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا *} ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان الكبائر وأكبرها (89).

[2] موقف الإسلام من السحر ، حياة سعيد (1 / 237) حلوانُ الكاهن ما يعطاه من مالٍ على كهانته.

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: السلام ، باب: تحريم الكهانة واتيان الكهان (2230).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: البيوع ، باب: ثمن الكلب (2122) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: المساقاة ، باب: تحريم ثمن الكلب ، وحلوان الكاهن ، ومهر البغي (1567). وحلوان الكاهن ما يعطاه من مال على كهانته.

7 . الشفاعة:

بيّن الرسولُ صلى الله عليه وسلم للناس الصراطَ المستقيمَ الذي يصلُهم بربّهم دون شفعاء ولا وسائط، وهو طريقُ التوحيدِ الخالصِ للهِ عزّ وجلّ، وإفرادهِ سبحانه بالعبادةِ دون ما سواه.

أمّا الشفاعةُ المثبتةُ التي أثبتها القرآن الكريم وبينها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فلها شرطان:

الأول ـ الإذنُ مِنَ اللهِ تعالى للشافع، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة :255] .

والثاني ـ الرضا عن المشفوعِ له، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الانبياء :28] . .

وهذه الشفاعةُ خَصَّ الله تعالى بها أهلَ توحيدِهِ وعبادتِهِ تفضُّلاً منه وكرماً، فهذه خاصّةٌ بهم، لأنّهم لم يتّخذوا من دونِ الله ولياً ولا شفيعاً، وقد رضي الله قولَهم وعملَهم، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله!

مَنْ أسعدُ النّاسِ بشفاعتك يوم القيامة؟ قال عليه الصلاةُ والسلامُ: «أسعدُ الناسِ بشفاعتي يوم القيامةِ مَنْ قالَ لا إلَه إلا الله خالِصاً مِنْ قلبِهِ أو نفسه»[1].

وأول الشافعين رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أمامُ الموحّدين، وخاتمُ المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والذي اختصّه الله تعالى وأكرمه بشفاعات عظيمة في ذلك اليوم، تفضُّلاً وتكريماً منه سبحانه لرسوله محمّد صلى الله عليه وسلم، ورحمةً بأمته صلى الله عليه وسلم.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: العلم ، باب: الحرص على الحديث (99).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ، فتعجَّلَ كلُّ نبيٍّ دعوتَه، وإنِّي اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يومَ القيامةِ، فهي نائلةٌ إنْ شاءَ الله مَنْ ماتَ من أمتي لا يشرِكُ باللهِ شيئاً»[1].

فله صلى الله عليه وسلم الشفاعةُ العظمى يومَ القيامةِ، والتي يتخلّى عنها أولو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهي ـ كما بيّنَ ـ لأهلِ التوحيدِ من أمته، وهو الذي يشفع في دخول المؤمنينَ الجنة، وفي إخراجِ عصاة الموحّدين من النارِ.

والشفاعةُ إنّما تكون وتنفع أهلَ التوحيد، أمّا غيرهم فهم كما قال عز وجل ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ *﴾ [المدثر: 48] [2]

وقال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلاَ يَعْقِلُونَ *﴾ [الزمر: 43] وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ *﴾ [يونس: 18] .

* * *

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: اختباء النبيّ دعوة الشفاعة لأمته (199).

[2] حماية الرسول حمى التوحيد ص 348 والنهاية في الفتن والملاحم ص (388).

المبحث السادس

الإيمان بالله جلّ جلاله

أولاً . الإيمان لغة وشرعاً، وزيادة ونقصاناً.

ثانياً . الإسلام والإيمان والإحسان.

ثالثاً . أصل الإيمان بالله عز وجل.

رابعاً . الأسس التي يقوم عليها الإيمان بالله جل جلاله.

خامساً . شرح بعض الآيات التي تتحدّث عن الإيمان بالله جل جلاله.

سادساً . أسباب قوة الإيمان بالله جل جلاله.

سابعاً . صفات المؤمنين.

ثامناً . من فوائد الإيمان بالله تعالى وثمراته.

المبحث السادس : الإيمان بالله جلّ جلاله

أولاً ـ الإيمان لغة وشرعاً وزيادة ونقصاناً:

الإيمان لغة: التصديق، قال تعالى حكايةً عن إخوة يوسف مع أبيهم: ﴿قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ *﴾ [يوسف :17] أي: بمصدِّقٍ لنا.

وشرعاً: هو نطقٌ باللسانِ، واعتقادٌ بالقلبِ، وعملٌ بالجوارحِ، ويزيدُ بالطاعةِ، وينقُصُ بالمعصيةِ[1].

ومن الأدّلة من الكتاب والسنة على زيادة الإيمان ونقصانه: قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾ [المدثر :31] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *﴾ [الانفال :2] وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا *﴾ [مريم :76] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيمًا *﴾ [الاحزاب :22] .

وعن جندب بن عبد الله قال: كنّا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ونحن فتيان حِزاورة، فتعلَّمنا الإيمانَ قبل أنْ نتعلّمَ القرآن، ثم تعلّمنا القرآن فازددنا به إيماناً[2].

---

[1] فتح الباري (1 / 45 ـ 48) ، شرح أصول اعتقاد وأهل السنة (1 / 151).

[2] أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب: المقدمة ، باب: في الإيمان (61). قال الهيثمي (1/ 12): إسناده صحيح. والحزاورة: الغلمان الأشداء.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الإيمانُ بضعٌ وسبعون أو بضع وستون شعبةً، فأفضلُها قولُ: لا إلهِ إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان»[1].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُ وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا يَنْتَهِبُ[2] نهبةً يرفع الناسَ إليه فيها أبصارُهم حين ينتَهِبَها وهو مؤمنٌ»[3]. والقول الصحيح الذي قاله المحققون في شرح هذا الحديث: إنّ معناه لا يفعلُ هذه المعاصي وهو كامِلُ الإيمان[4].

والطاعات والأعمال الصالحة داخلة في الإيمان، ومن الأدلة على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *﴾ [التوبة :71] .

وقد أطلق القرآن الكريم لفظَ الإيمانِ على العمل في بعض الآيات ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء ، وكونه من الإيمان (35).

[2] أي: لا يختلس شيئاً له قيمة عالية.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: المظالم والغصب ، باب: النهبى بغير إذن صاحبه (2475) وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية ، على إرادة نفي كماله (75).

[4] شرح النووي على صحيح مسلم (1 / 142).

بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ *﴾ [البقرة: 143] والإيمان هنا يراد به الصلاة، وقد ذهبَ جمهورُ المفسّرين إلى هذا، بل إنَّ الصحابة فهموا هذا، وتضافرت الروآيات عنهم في سبب نزول الآية[1].

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ *﴾ [البقرة: 177] فالآية اعتبرتْ هذه الخصالَ تصديقاً وإيماناً، وجعلتْ أعمال البرِّ هذه من الإيمانِ، ووجهُ الدلالةِ مِنَ الآية ما فسّره رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حيث روى عبد الرزاق في «مصنفه» وغيره عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، فتلى عليه هذه الآية ﴿الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ *﴾ [البقرة: 177] فالآية اعتبرتْ هذه الخصالَ تصديقاً وإيماناً، وجعلتْ أعمال البرِّ هذه من الإيمانِ، ووجهُ الدلالةِ مِنَ الآية ما فسّره رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حيث روى عبد الرزاق في «مصنفه» وغيره عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، فتلى عليه هذه الآية ... والحديثُ رجالُه ثقات .

---

[1] فقه النصر والتمكين ص (163).

ثانياً ـ الإسلام والإيمان والإحسان:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بينما نحنُ عندَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذاتَ يومٍ، إذْ طلعَ علينا رجلٌ، شديدُ بياضِ الثيابِ، شديدُ سوادِ الشعرِ، لا يُرَى عليه أثرُ السفرِ، ولا يعرفُه منّا أحدٌ، حتى جلسَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فأسندَ ركبتيه إلى ركبتيه، ووضعَ كفّيه على فَخِذيه وقال: يا محمّدُ، أخبرني عن الإسلامِ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإسلامُ أنْ تشهدَ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ، وأنَّ محمّداً رسولُ اللهِ، وتقيمَ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيتَ إنِ استطعتَ إليه سبيلاً»

قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسألُه ويصَدِّقُه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟

قال: «أن تؤمن باللهِ، وملائكتِهِ، وكتبِهِ، ورسلِه، واليوم الآخر، وتؤمِنَ بالقدرِ خير وشرِه».

قال: صدقتَ، قال: فأخبرني عن الإحسان؟

قال: «أنْ تعبدَ اللهَ كأنّكَ تراه، فإنْ لم تكنْ تراه فإنّه يراك».

إلى أن قال: «يا عمر أتدري مَنِ السائل؟»

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «إنّه جبريلُ، أتاكُم يعلّمكم دينكم»[1]. فجعل الدِّينَ هوالإسلامَ والإيمانَ والإحسانَ.

فتبيّن أنَّ ديننا يجمعُ الثلاثةَ، لكن هو درجاتٌ ثلاثٌ: مسلمٌ، ثم مؤمنٌ، ثم مُحْسِنٌ، والمراد بالإيمان ما ذُكِرَ مع الإسلام قطعاً، كما أنّه يريدُ بالإحسان مع الإيمان

---

[1] فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الإيمان باب أمور الإيمان (1 / 51).

والإسلام، لا أنَّ الإحسانَ يكون مجرداً عن الإيمان[1]. وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ *﴾ [فاطر: 32] والمقتصد والسابق كلاهما يدخلُ الجنة بلا عقوبة، بخلاف الظالم لنفسه، فإنّه مُعَرَّضٌ للوعيد، وهكذا مَنْ أتى بالإسلام الظاهر مع التصديق بالقلب، لكن لم يَقُمْ بما يجب عليه من الإيمان الباطن، فإنّه معرَّضٌ للوعيد.

فأما الإحسان وهو أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أهله، والإيمانُ أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أهله من الإسلام، فالإحسانُ يدخل فيه الإيمانُ، والإيمانُ يدخل فيه الإسلامُ، والمحسنون أخصُّ من المؤمنين، والمؤمنون أخصُّ من المسلمين[2].

ثالثاً ـ أصل الإيمان بالله جلَّ جلاله:

بأصل الإيمانِ يدخلُ العبدُ في الإسلام، وبه يكونُ اعتبارُ سائرِ الأعمال، وبصلاحِ ما في القلبِ أو فسادِهِ يكونُ صلاحُ الأعمالِ أو فسادُها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا إنَّ في الجسدِ مضغةٌ إذا صَلَحتْ صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهيَ القلبُ»[3].

فأصل الإيمان في القلبِ، وهو قولُ القلبِ وعملُه، وهو إقرارٌ بالتصديقِ والحُبِّ والانقيادِ.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى (8).

[2] المنحة الإلهية في تهذيب الطحاوية ص (146).

[3] المصدر نفسه ص (147).

فالتصديقُ: هو قولُ القلبِ، وهوالمعرفةُ والإثباتُ لما دلّت عليه الشهادتان.

والحبُّ: عملُ القلبِ نحو المشهودِ لهما، وهو الله تبارك وتعالى في شهادة (أن لا إلهَ إلاّ الله)، ومحمّدٌ بنُ عبدِ الله في شهادةِ (أنَّ محمّداً رسولُ اللهِ)، فيحبُّ اللهَ ورسولَه صلى الله عليه وسلم ودينَه.

والانقيادُ: عملُ القلبِ أيضاً، وهو القبولُ، وعقدُ العزمِ على الامتثال لما دلّتْ عليه الشهادتان[1].

وينعقد أصل الإيمان بالله عزّ وجلّ بثلاثةِ أمورٍ:

الأول ـ النطق بالشهادتين.

والثاني ـ قول القلب، وهوالعلم والتصديق بمعناهما، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم صادقٌ في كلِّ ما أخبرَ به عن الله.

والثالث ـ عمل القلب، وهو قبولُ التوحيدِ، والبراءةُ من ضدّه، والمحبةُ للهِ ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولدينه، والعزمُ على الانقيادِ لهما.

فإذا جاءَ العبدُ بأصلِ الإيمانِ، فهو مأمورٌ مكلَّفٌ بتكميلِ إيمانِهِ، ليس له أمنٌ في الحياة الدنيا ولا في الآخرة إلاّ بذلك، فإذا عملَ العبدُ الطاعاتِ، واجتنبَ المحرّماتِ، فقد استكملَ عُرَى الإيمانِ الواجبِ، وأصبحَ في مرتبةِ المقتصد[2].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: فضل من استبرأ لدينه (52) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: المساقاة ، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات (1599).

[2] أثر الإيمان في تحصين الأمة (1 / 191).

وقد كتب عمرُ بنُ عبد العزيز إلى عَدِيّ بن عَدِيٍّ أنّ للإيمانِ فرائضَ وشرائعَ وحدوداً وسنناً، فمنِ استكملَها استكملَ الإيمان، ومن لم يستكمِلْها لم يستكملِ الإيمانَ[1].

رابعاً ـ الأسس التي يقوم عليها الإيمان بالله جلّ جلاله:

يقوم الإيمانُ بالله عز وجل على أسسٍ من أهمها:

1 ـ الكفر بالطاغوت: فُسِّرَ الطاغوتُ بالشيطانِ، والساحرِ، والكاهنِ، والأصنام[2]، وهذا تفسيرٌ له ببعض أفرادِهِ، وإلاّ فالطاغوتُ يطلَقُ على كلِّ مَنْ طغى وتجاوزَ حَدَّه، وادّعى حقاً من حقوقِ اللهِ التي تفرّدَ بها[3]. قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ*﴾ [البقرة: 256] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ *﴾ [الزمر: 17] وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ التطهيرَ مقدَّمٌ على التزكيةِ، وأنَّ تخليصَ القلبِ من أدرانه ونجاستهِ المتمثّلةِ بالمعتقداتِ الباطلةِ وما يترتّبُ عليها من محبّةِ الطواغيتِ أو التعلُّق بهم واجبٌ، لحلول الإيمانِ بالقلبِ[4].

---

[1] المصدر نفسه (1 / 193).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بني الإسلام على خمس معلقاً 1/ 11) ووصله ابن أبي شيبة في مصنفه كتاب: الإيمان والرؤيا ، باب (30444).

[3] جامع البيان لابن جرير (3 / 218 ، 19).

[4] أثر الإيمان (1 / 47).

2 . الإيمانُ بالغيب:

قال تعالى: ﴿الم *ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدَىً لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *﴾ [البقرة: 1 . 3].

والغيب: هو كلُّ ما غابَ عنك، وفي قوله: أي: آمنوا ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، وملائكته، ورسله، واليومِ الآخر، وجنته، وناره، ولقائه، وآمنوا بالحياة بعد الموت[1]، وقد جمعَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم أصولَ الأمور الغيبيّة بتعريفه للإيمانِ في حديث جبريل عليه السلام . حيث قال: «أنْ تؤمنَ باللهِ، وملائكتهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، واليومِ الآخر، وتؤمنَ بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ»[2].

3 . امتثالُ الأوامرِ واجتنابُ النواهي:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *﴾ [الذاريات: 56] ففي هذه الآية بيانٌ للحكمةِ التي خلق الله الناسَ من أجلِها، وهي أنْ يكلِّفَهم بعبادته، بالامتثال لأوامره، والانتهاء عن نواهيه، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ *﴾ [البقرة: 208] والسلم: هو الإسلام، والمراد: بكافة: أي جميع شرائع الإسلام، ففي الآية يدعو الله المؤمنينَ إلى الأخذِ بجميع شرائع الإسلام، وإقامةِ جميع شرائع الإسلام، وإقامةِ جميعِ أحكامهِ وحدودهِ، دون تضييعِ بعضِه، والعملِ ببعضه[3].

---

[1] أثر الإيمان (1/ 44).

[2] جامع البيان (1 / 101).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى(8).

4. الإخلاص لله في العبادة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا *﴾ [الإنسان: 9] .

وقال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[غافر: 65].

وقال تعالى: ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: 3] فالإخلاصُ شرطٌ في صحّةِ العبادةِ، وأساسٌ مهّمٌ من أُسس الإيمان، ومن دونه لا يدخلُ العبد في ولايةِ اللهِ، ولا يُقْبَلُ منه عمل، ولا يَتحَصَّلُ على ثمراتِ الإيمان وكراماتِهِ التي وعدَ بها عبادَه المؤمنين[1].

5. صدق المتابعة للنبيّ صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا *﴾ [الاحزاب: 21] هذه الآية الكريمةُ أصلٌ كبيرٌ في التأسّي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله[2]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *﴾ [الكهف: 110] . وهذان ركنا العمل المتقبَّل لابدّ أن يكون صواباً خالصاً. فالصواب: أن يكون على السنّةِ، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾ والخالص: أن يخلصَ مِنَ الشركِ الجليّ والخفي، وإليه الإشارةُ بقوله: (وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً).

---

[1] جامع البيان (2 / 324).

[2] أثر الإيمان (1 / 65).

6 . العلم:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ *﴾ [الانعام :55]

فالعلمُ أساسٌ هامٌّ في الإيمان بالله، وركنٌ بارزٌ في دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [يوسف: 108] فدلّتْ هذه الآية على أنَّ طريقَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يقوم على ثلاثةِ أمورٍ:

الأول . التوحيدُ الخالِصُ، القائم على فعل الطاعات، واجتناب المحرمات، مع الإخلاص لله في ذلك.

والثاني . الدعوة إلى التوحيد.

والثالث . العلمُ والبصيرةُ في ذلك كله[1].

وقد بين سبحانه أنّ التعليم من أخصِّ وظائفِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأنّه أخرج به المسلمين من الضلال المبين، فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *﴾ [الجمعة: 2] . فيجب علينا أن نعلم أهم المسائل هي:

الأولى . العلم، وهو معرفةُ الله، ومعرفةُ نبيه صلى الله عليه وسلم، ومعرفةُ دين الإسلام بالأدلّةِ.

والثانية . العمل به.

والثالثة . الدعوة إليه.

والرابعة . الصبر على الأذى فيه.

---

[1] تفسير القران العظيم لابن كثير (6 / 392).

والدليل قول الله تعالى في سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ *إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ *إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ إنّ العمل الصالح يقومُ على الإيمان، والإيمانُ يقوم على التوحيدِ، والإيمانُ الذي يريده الله هو الإيمانُ الحيُّ الفاعِلُ، هو الإيمانُ المؤثّر النامي، هو الإيمانُ القائِدُ الموجِّه... الإيمانُ الذي ينفعُ صاحبَه، هو الإيمان الذي ينغرِسُ في قلبه، فينمو ويزدهر، وينير ويضيء، ويزين هذا القلب بزينته، ويملؤه في كل جوانبه وزواياه، الإيمان الذي يمدُّ أغصانَه وفروعه على كيان هذا المؤمن ووجوده، ويلقي ظلالَه على حياتِهِ وواقعِهِ، ويعطي ثمارَه له في ليلِهِ ونهارِهِ، الإيمانُ الذي عاشه المؤمنون الصادقون العاملون من الأنبياء والأولياء الصالحين، هو الذي تَنْتُجُ عنه الأعمالُ، ويُضْبَطُ به السلوكُ، ويَصْلُحُ به الواقعُ، وتستقيمُ به الحياةُ، الإيمانُ المعبِّرُ هو الذي يبعثُ على الهمّةِ، والنشاطِ، والسعي، والجهد، والمجاهدة، والجهاد، والتربية، والاستعلاء، والعزة، والثبات، واليقين[1].

خامساً ـ شرح بعض الآيات التي تحدثت عن الإيمان:

الأولى ـ زينة الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ *﴾ [الحجرات: 7] لما كانتِ المعاصي بعضُها كفرٌ، وبعضُها ليس بكفرٍ، فَرَّقَ بينها فجعلها ثلاثةَ أنواعٍ: نوعٌ منها كفرٌ، ونوعٌ منها فسقٌ ليس بكفر، ونوعٌ عصيان ليس بكفر ولا فسق. وأخبر أنّه كرهها كلَّها للمؤمنين.

(1) تيسير العزيز الحميد ص (525).

ولما كانتِ الطاعاتُ كلُّها داخلةٌ في الإيمان، وليس فيها شيءٌ خارجٌ عنه لم يفرِّقْ بينها، فيقول: حبب إليكم الإيمان والفرائض وسائر الطاعات، بل أجمل ذلك فقال: فدخل في ذلك جميعُ الطاعات .

الثانية ـ نور الإيمان:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *﴾ [النور: 35] وقد فُسِّرَ قولُه تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بكونه منوِّرُ السماوات، وهادي أهلِ السماواتِ والأرض، فبنوره اهتدى أهلُ السماواتِ والأرض، وهذا إنّما هو فعلُه، وإلاّ فالنورُ من أوصافه، قائمٌ به، ومنه اشتق اسم النور الذي هو أحدُ الأسماءِ الحسنى، والنورُ يضافُ إليه سبحانه على أحدِ وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله[1]. وفي قوله تعالى: وهو أنّ ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ الإيمان يكونُ من الله، عندما يشرحُ صدر عبدِه المؤمنِ للإسلام، ويجعل له نوراً، فيبدأ به النور والحياة.

وقد شبّه العلمَ المستفاد من الوحي الواصلِ للقلب بالزيت الجيّدِ، فاستدامةُ النورِ وقوتُه وسلامتُه، وتنامي حياة القلب، إنّما تكونُ بالعلم بالكتاب والسنة والعمل به، فهي غذاؤه ومادّةُ حياته[2].

---

[1] جامع البيان (13 / 79 ، 80) ، أثر الإيمان (1 / 71).
[2] في ظلال الإيمان ص (63).

إنّ ضياءَ النار يحتاجُ في دوامه إلى مادّةٍ تحمله، وتلك المادة للضياء بمنزلةِ غذاء الحيوانِ، كذلك نورُ الإيمان يحتاجُ إلى مادّةٍ من العلم النافع، والعمل الصالح يقومُ بها، ويدوم بدوامها، فإذا ذهبتْ مادّةُ الإيمان طفىء كما تُطْفَأُ النارُ بفراغ مادتها[1].

إنّ المثلَ دلَّ على أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقصُ، يزيدُ بزيادةِ العلمِ الواصلِ للقلبِ المستفادِ من نورِ الكتابِ والسنةِ، كما ينقصُ بنقصِهِ. ومأخذُ ذلك من المثل هو تشبيهُ العلمِ الذي يمدُّ القلبَ بالمعارِف والحقائقِ الإيمانيةِ بالزيتِ الذي يمدُّ المصباحَ بالوقودِ، وأنَّ المصباحَ يزيدُ ضوؤه، ويصفو بزيادةِ الزيتِ وجودتِهِ، والمؤمنون يتفاوتون بقوّة النورِ الكائن في قلوبهم بحسب ما عندهم من العلم والإيمان، وأكملُ المؤمنينِ نوراً هو النبيُّ صلى الله عليه وسلم لكمالِ علمِهِ وإيمانِهِ.

إنّ المثلَ دلّ على أنَّ النور الذي يجعله الله في قلوب المؤمنين نور حقيقي، ومأخذُ ذلكَ هو تشبيه ذلك النورِ الذي يُعلمُ معناه، ولا تُعقل كيفيته بنورِ المصباح المحسوس، فالتشبيه بالمحسوس يؤَكِّدُ وجودَه وحقيقته[2].

هناك تشابه بين الفطرة والفتيلة، من حيثُ إنّ كلاًّ منهما في أصلِ خَلْقِهِ وصنعه مهيّأٌ لاستدعاء وتشرُّب ما يناسبه، فالفتيلةُ تتشرَّبُ الوقودَ المناسِبَ، وتمتصُّه، وتتبلَّلُ به، وتصبِحُ مهيأةً به للاشتعال إذا أُوقدت. وكذلك الفطرة على الدين الحنيف التي فطر الله قلوبَ العبادِ عليها مهيأةٌ لاستدعاء ما يناسِبُ ما فُطِرَتْ عليه من التوحيد والدين والحق، فإذا تشّربتْ ما يَرِدُ إليها من ذلك مِنَ العلمِ بالكتابِ والسنّةِ، فإنّها تكونُ مهيأةً لإيقادِ مصباحِ القلبِ، وقذفِ نورِ الإيمانِ بهِ، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ

---

[1] الأمثال القرانية (1 / 194) مجموع الفتاوى (7 / 42).

[2] اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص (6).

لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم :30] فالله عزّ وجلّ فطر كلَّ الناسِ على معرفته وتوحيده ومحبته، وجبل نفوسَهم على استدعاء وقبول ما يناسب ذلك من الدين والإسلام. والفطرةُ تزكو بالعلمِ المستمدِّ من الكتابِ والسنةِ، وتطهيرها من مكايد شياطين الإنس والجن، الذين يجتهدون في إفسادِها[1].

إنَّ المثلَ دلّ على أثرِ نورِ العلمِ والإيمان على العقلِ، حيث أكسبه سلامةَ التعقُّل، وسدادَ النظرِ، وصِحّةَ الاستنتاج، وأنّ الطريق إلى الحقِّ في كلِّ المطالب الدينية إنّما يكونُ بإعمالِ العقلِ المستنيرِ بالوحي النازل على الرسول صلى الله عليه وسلم لاستخلاص الحقائق والمعارف اليقينية وغيرها، وأنّ العقلَ المجرّدَ عن العلم لا سبيلَ له إلى تلك الحقائق.

كما دلَّ المثلُ على أنّ النورَ سطع وأشرق على كلِّ أعمال القلب ووظائفه الأخرى من العقائد، والعواطف، والإرادات، والانفعالات، فأخصبَها بالخيرِ والسلامةِ والصلاحِ[2].

في قوله دلَّ على ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ نور القرآن والسنة والعلم المستفاد منهما يغذي نور الإيمان، ويزيدُه ويقوّيه. وفي قوله: دليلٌ على أن ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ *﴾ من الله، نور الإيمان الذي يُقْذَفُ في القلبِ، ونور العلمِ الذي طريقُه الوحي، فمن هُدِيَ إلى الأول، واهتدى بالثاني، فقد أعطاه الله نوراً تاماً، ومن أضلّه الله فليسَ له من نورٍ، بل هو في طريقٍ من طُرِقِ الضلال، سائرٌ في الظلّماتِ[3].

---

[1] المصدر نفسه ص (20) ، الأمثال القرانية (1 / 360).

[2] اجتماع الجيوش الإسلامية ص (20).

[3] الأمثال القرانية (1 / 370 . 375).

الثالثة ـ روح الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ [الشورى :52] . فسمّى وحيَه روحاً لِمَا يحصلُ به مِنْ حياةِ القلوبِ والأرواح التي هي الحياةُ في الحقيقة، ومن عَدِمَها فهو ميتٌ لا حيٌّ ... وسمّاه نوراً لما يحصل به من استنارةِ القلوبِ وإضاءتها، وكمال الروح بهاتين الصفتين بالحياة والنور، ولا سبيلَ إليهما إلا على أيدي الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، والاهتداء بما بعثوا به، وتلقّي العلم النافع والعمل الصالح من مشكاتهم، وإلا فالروحُ ميّتةٌ مظلمةٌ، وإن كان العبدُ مشاراً إليه بالزهد والفقه والفضيلة والكلام في البحوث، فإنّ الحياةَ والاستنارةَ بالروح الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وجعله نوراً يهدي به مَنْ يشاء من عباده، فليس العلم كثرةَ النقل والبحث والكلام ولكنّه نورٌ يميِّزُ به صحيحَ الأقوالِ من سقيمِها، وحقَّها مِنْ باطِلها، وما هو من مشكاةِ النبوّةِ مما هو من اراء الرجال[1].

سادساً ـ أسباب قوة الإيمان:

هذا الفصلُ عظيمُ النفعِ والحاجةِ، بل الضرورةُ ماسّةٌ إلى معرفته والعناية به معرفةً واتصافاً، وذلك أنّ الإيمانَ هو كمالُ العبدِ، وبه ترتفعُ درجاته في الدنيا والآخرة، وهو السببُ والطريقُ لكلِّ خيرٍ عاجلٍ وآجل، ولا يحصلُ، ولا يقوى، ولا يتمُّ إلا بمعرفةِ ما منه يُسْتَمَدُّ، وإلى ينبوعه وأسبابه وطُرُقه، والله تعالى قد جعلَ لكلِّ مطلوبٍ سبباً

---

[1] المصدر نفسه (1 / 390 ـ 412).

وطريقاً يوصِلُ إليه، والإيمانُ أعظمُ المطالِبِ وأهمُّها وأعمُّها، وقد جعل الله له مواد كثيرةً تجلبه وتقوّيه، كما كانت له أسبابٌ تضعفه وتوهّيه.

ومواده التي تجلبه وتقوِّيه أمران: مجملٌ ومفصّلٌ:

أما المجمل فهو: التدّبُر لآيات الله المتلوّةِ من الكتاب والسنة، والتأمل لآياته الكونية على اختلاف أنواعها، والحرص على معرفة الحق الذي خُلِقَ له العبد، والعمل بالحق، فجميعُ الأسبابِ مرجعُها إلى هذا الأصل العظيم[1].

وأما التفصيل: فالإيمان يحصل ويقوى بأمورٍ كثيرةٍ، منها:

1 . معرفة أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، والحرص على فهم معانيها، والتعبّد لله بها:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ للهِ تسعةً وتسعين اسماً، مئةً إلاّ واحداً، مَنْ أحصاها دخلَ الجنّة»[2] أيْ مَنْ حفظَها، وفهمَ معانيها، واعتقدها، وتعبَّدَ اللهَ بها دخل الجنّةَ، والجنّةُ لا يدخلُها إلا المؤمنون، فعَلِمَ أنَّ ذلك أعظمُ ينبوعٍ ومادّةٍ لحصولِ الإيمان وقوّته وثباته. ومعرفةُ الأسماءالحسنى هي أصلُ الإيمانِ، والإيمانُ يرجِعُ إليها، فكلّما ازداد العبدُ معرفةً بأسماءِ الله وصفاته ازدادَ إيمانه، وقويَ يقينُه، فينبغي للمؤمن أن يبذلَ مقدروه ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وتكونَ هذه المعرفة متلقّاةً من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ، فهذه المعرفةُ النافعةُ تجعلُ المؤمنَ في زيادةٍ في إيمانه، وقوّةٍ في يقينه، وطمأنيةٍ في أحواله[3].

---

[1] الأمثال القرانية (1 / 418).

[2] المصدر السابق (1 420).

[3] اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص (24).

2. تدبّر القرآن الكريم على وَجْهِ العموم:

إنَّ المتدبّرَ لا يزالُ يستفيدُ من علوم القرآن ومعارفه ما يزدادُ به إيماناً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *﴾ [الانفال: 2] وهو العلاجُ الناجعُ لأمراضِ القلوبِ، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ *﴾ [يونس: 57] إنّه موعظةٌ من الله، وهل هناك أبلغُ من الموعظةِ الربانية؟! وأيسرُ منها؟! وأكثرُ نفاذاً إلى القلبِ والضميرِ؟! ففيه الشفاءُ لأمراضِ الشبهاتِ والشهواتِ، وأمراض الهوى والانحراف، وأمراض الشكِّ والشرك، وأمراضِ القلوبِ والنفوسِ، والجوارحِ، والحواسِ، وأمراض السياسة والاقتصاد والأخلاق والاجتماع والحياة والحضارة[1]، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82] فهو غذاءٌ للروح، وعلاجٌ يشفي النفوسَ من عللِّها، ويكسبُها المناعةَ القويّةَ[2].

ومن ثمراتِ تدبُّرِ القرآن: أنّه وسيلةٌ لمعرفة ما يريدُ الله منا، وكيفيّةُ عبادَته تبارك وتعالى، ومعرفة ما أنزل الله إلينا، لأنّ القرآن الكريم منهجُ حياةٍ أنزله الله عز وجل، وهو أساسُ التشريع الذي يجبُ على العبادِ أن يتدبّروه، ويلتزموا بأوامره، ويجتنبوا نواهيه ليحقّقوا عبادةَ اللّه تعالى[3].

وإذا نُظِرَ إلى انتظامِ القرآن الكريمِ وإحكامِهِ، وأنَّه يصدِّقُ بعضُه بعضاً، ويوافِقُ بعضُه بعضاً، ليس فيه تناقضٌ ولا اختلافٌ: تيقّنَ أنه ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ

---

[1] شجرة الإيمان للسعدي ص (39).

[2] تقدم تخريجه.

[3] شجرة الإيمان للسعدي ص (41).

وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ *﴾ [فصلت :42] وأنّه لو كان مِنْ عندِ غيرِ الله لوُجِدَ فيه من التناقضِ والاختلافِ أمورٌ كثيرة، قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقرآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا *﴾ [النساء :82] وهذا مِنْ أعظمِ مقوّيات الإيمان، ويقوّيه من وجوهٍ كثيرةٍ، فالمؤمنُ بمجرَّد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما اشتمل عليه من الأخبار الصادقة والأحكام الحسنة، يحصل له من أمورِ الإيمانِ خيرٌ كبيرٌ، فكيف إذا أحسنَ تأمُّله، وفهمَ مقاصده وأسراره؟ ولهذا كان المؤمنون الكُمَّلُ يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: 193] .

3 . معرفةُ سيرة النبيِّ صلى الله عليه وسلم وشمائله:

فإنَّ مَنْ عرفه حقَّ المعرفةِ لم يَرْتَبْ في صدقه، وصدقِ ما جاء به، قال تعالى: أي: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ *﴾ صلى الله عليه وسلم توجِبُ للعبدِ المبادرةَ إلى الإيمانِ ممّن لم يؤمنْ، وزيادةَ الإيمانِ ممّن آمن به، وقال تعالى مشجّعاً لهم على تدبّر أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم الداعية للإيمان: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ *﴾ [سبأ :46] وأقسمَ تعالى بكمال هذا الرسولِ، وعظمةِ أخلاقه، وأنّه أكملُ مخلوقٍ قال تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ *مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ *وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ *وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *﴾ [القلم :1 . 4] فهو صلى الله عليه وسلم أكبرُ داعٍ للإيمان في أوصافه الحميدة، وشمائلِه الجميلةِ، وأقوالِه الصادقةِ النافعةِ، وأفعالِهِ الرشيدةِ، فهو الإمامُ الأعظمُ، والقدوةُ الأكملُ، وقد ذكرَ اللهُ عن أولي الألبابِ الذين هم خواصُّ الخَلْقِ أنّهم قالوا: وهو هذا الرسول الكريم بقوله ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا

مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ﴾، وعملِه ودينِه وجميعِ أحوالِه ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: 193] أي: إيماناً لا يدخلُه ريبٌ، ولما كانَ هذا الإيمانُ مِنْ أعظمِ ما يقرِّبُ العبدَ إلى اللهِ، ومن أعظمِ الوسائلِ التي يحبُّها الله - توسَّلوا بإيمانهم أنْ يكفِّرَ عنهم السيئاتِ، وينيلهم المطالبِ العالياتِ قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ *﴾ [آل عمران: 193] ولهذا كان الرجلُ المنصِفُ الذي ليسَ له إرادةٌ إلاّ اتباع الحقِّ مجرّد ما يراه ويسمع كلامه يبادر إلى الإيمان به صلى الله عليه وسلم، ولا يرتابُ في رسالته، بل كثيرٌ منهم مجرَّد ما يرى وجهه الكريم صلى الله عليه وسلم يعرف أنّه ليس وجه كذاب[1].

4 ـ التفكّرُ في الكونِ والنظرُ في الأنفسِ:

إنَّ التفكُّرَ في الكونِ، وفي خَلْقِ السماواتِ والأرضِ وما فيهنَّ من المخلوقاتِ المتنوّعةِ، والنظرَ في الإنسان، وما هو عليه من الصفات: يقوّي الإيمانَ، لما في هذه الموجوداتِ من عظمةِ الخَلْق الدّالِ على قدرة خالِقها وعظمته، وما فيها مِنَ الحُسْنِ والانتظام والإحكام الذي يحيِّرُ الألبابَ، الدالَّ على سَعَةِ علم الله، وشمول حكمته، وما فيها من أصنافِ المنافع والنعمِ الكثيرة التي لا تعدُّ ولا تحصى، الدالة على سَعَةِ رحمة الله وجودِه وبره، وذلك كلُّه يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره، واللهج بذكره، وإخلاص الدِّين له، وهذا هو روحُ الإيمان وسرُّه[2].

---

[1] الإيمان أولاً فكيف نبدأ به ، د. الهدلي ص (119).

[2] هجر القران العظيم د. محمود الدوسري ص (567).

وكذلك النظر إلى فقرِ المخلوقاتِ كلّها، واضطرارِها إلى ربها من كلِّ الوجوه، وأنها لا تستغني عنه طرفةَ عينٍ، خصوصاً ما تشاهِدُه في نفسِك، من أدلّةِ الافتقار، وقوّة الاضطرار، وذلك يوجِبُ للعبدِ كمالَ الخضوعِ، وكثرةَ الدعاءِ، والتضرّع إلى ربه، وكمالَ الثقةِ بوعده، وشدّةَ الطمع في برّه وإحسانه، وبهذا يتحقَّقُ الإيمانُ، ويقوى التعبّد، فإنَّ الدعاءَ مخُّ العبادةِ وخالصُها[1].

وكذلك الفكُّر في كثرةِ نِعَمِ الله والائه العامّة والخاصة، التي لا يخلو منها مخلوقٌ طرفةَ عينٍ، فإنَّ هذا يدعو إلى الإيمان[2]، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيات لِأُولِي الأَلْبَابِ *الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ *﴾ [آل عمران: 190. 191] .

5 . الإكثارُ مِنْ ذكرِ الله ومن الدُّعاء الذي هو مُخُّ العبادة في كلِّ وقتٍ:

فإنَّ الذكرَ للهِ يغرسُ شجرةَ الإيمانِ في القلب، ويغذّيها وينمّيها، وكلّما ازدادَ العبدُ ذكراً للهِ، قوي إيمانُه، كما أنَّ الإيمانَ يدعو إلى كثرةِ الذكر، فمن أحبَّ الله أكثرَ مِنْ ذكرِه، ومحبّةُ اللهِ هي الإيمانُ، بل هي روحُه.

وللذكرِ آثارٌ نافعةٌ في حياة المسلمين الدنيوية والأخروية منها:

أ . الحياة الطيبة الحقيقية:

---

[1] المصدر نفسه ص (566).

[2] شجرة الإيمان ص (48).

فالحياة هي حياةُ الروحِ المتغذّية بالوحي الإلهي، المتعلِّق قلبُ صاحبها بذكر الله، وهي التي وصفَها الله بالحياةِ الطيبة بقوله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [النحل: 97] وبقوله أيضاً: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [يونس: 3] فذِكْرُ اللهِ تعالى ومحبّتُه وطاعتُه، والإقبالُ عليه ضامِنٌ لأطيَبِ الحياةِ في الدنيا والآخرة، والإعراضُ عنه ومعصيتُه كفيلٌ بالحياة المنغّصة، والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة[1]، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى *﴾ [طه: 124] وعلى هذا فحياةُ الروح والقلبِ هذه لا يحياها ولا يذوقُ طعَمها إلا الذاكِرُ لله سبحانه وتعالى، كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الذي يَذْكُرُ ربَّهُ، والّذِي لا يَذْكُرُ ربَّه، مثلُ الحيِّ والميّتِ»[2]، فما بين الذاكِرِ والغافلِ هو ما بين الحيِّ والميّتِ، وشتّان ما بينهما[3]، فسبحان مَنْ أشهدَ عباده جنّته قبلَ لقائه، وفتحَ لهم أبوابها في دارِ العملِ، فاتاهم مِنْ روحِها ونسيمِها وطِيْبِها حتّى قال قائلهم: مساكينُ أهلُ الدنيا، خرجوا منها، ولم يذوقوا أطيبَ ما فيها؟!

قيل: ما أطيبُ ما فيها؟

قال: محبّةُ الله تعالى ومعرفتُه وذكره[4].

---

(1) المصدر نفسه ص (50).

(2) شجرة الإيمان ص (500).

(3) المصدر نفسه ص (50).

(4) المصدر السابق ص (171).

فالذاكر بين الغافلين هو كالحيّ بين الموتى حياةً متكاملةً في البدن والروح والشعور، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [الانعام: 122] .

ب . القوّةُ في الأبدانِ وإحياءَ المعاش والجهاد:

إنّ الذكرَ يعطي الذاكرَ قوّةً حتى إنّه ليفعلُ مع الذكر ما لم يكن يظنُّ فعلَه بدونه[1]، وشاهِدُ ذلك موقفُ النبيّ صلى الله عليه وسلم مع ابنته فاطمة وعلي رضي الله عنهما، لما سألته خادماً، وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة، فعلمَّهما أنْ يسبّحَا كلَّ ليلةٍ إذا أخذا مضاجعهما ثلاثاً وثلاثين، ويحمدا ثلاثاً وثلاثين، ويكبّرا أربعاً وثلاثين، وقال لهما: «فهذا خيرٌ لكما من خادم»[2]، فقيل: إنَّ مَنْ داومَ على ذلك وجدَ قوّة في يومه مغنيةٌ عن خادم.

ج . رقَّةُ القلبِ وخشوعُه:

إنَّ ذكرَ اللهِ يوجِبُ خشوعَ القلب وصلاحَه ورِقَّتَه، ويذهِبُ الغفلةَ عنه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ *﴾ [الرعد: 28] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 23] .

---

[1] المصدر السابق ص (172).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: المناقب ، باب: مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن رضي الله عنه (13705) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم (2727).

د . النجاة من عذاب الله تعالى:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما عَمِلَ آدميٌّ عملاً قط أنجى له مِنْ عذابِ اللهِ مِنْ ذكرِ اللهِ»[1]، وهذه نهايةُ الغايات، وأعظمُ المطالبِ، وهي أُوْلى اثارِ الذكر وثمارُه، وأجلُّ فوائِده في المعاد[2].

هـ الذاكر من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة:

ذكرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من السبعةِ الذين يظلُّهم اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلاّ ظلِّه: «ورجلٌ ذكرَ الله خالياً ففاضتْ عيناه»[3].

و . تكثيرُ الشهودِ يومَ القيامة:

فكلُ معالمِ الأرضِ تأتي شاهدةً للذاكرين يومَ تحدِّثُ الأرض أخبارها، فالجبالُ والقِفارُ تتباهى وتستبشِرُ بمن يذكرُ الله عزّ وجلّ عليها، قال ابن مسعود:

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده (5 / 239). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (10 / 173): رجاله رجال الصحيح ، إلا أن زياد بن أبي زياد مولى ابن عياش لم يدرك معاذاً ، وبلفظ قريب أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب الأدب ، باب: فضل الذكر (3790).

[2] ذكر الله تعالى ص (175).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجماعة والإمامة ، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ، وفضل المساجد (629) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الزكاة ، باب: فضل إخفاء الصدقة (1031).

إنَّ الجبلَ لينادِي الجبلَ باسمه، يا فلان!هل مرَ بكَ اليومَ أحدٌ يذكرُ الله عزّ وجلّ؟ فإذا قال: نعم استبشرَ[1].

6 . معرفة محاسن الدين:

من الأسبابِ المقوّية للإيمانِ معرفةُ محاسنِ الدين، فإنَّ الدينَ الإسلاميَّ كلُّه محاسنُ، عقائدُه أصحُّ العقائدِ وأصدقُها وأنفعُها، وأخلاقهُ أحمدُ الأخلاقِ وأجملُها، وأعمالُه وأحكامُه أحسنُ الأحكامِ وأعدلُها، وبهذا النظرِ الجليلِ يزيّنُ اللهُ الإيمانَ في قلبِ العبدِ، ويحبّبه إليه، كما امتنّ به على خيار خلقه بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات :7] فيكونُ الإيمانُ في القلبِ أعظمَ المحبوباتِ، وأجملَ الأشياءِ، وبهذا يذوقُ العبدُ حلاوةَ الإيمانِ، ويجدُها في قلبه، فيتجمَّلُ الباطنُ بأصولِ الإيمانِ وحقائقه، وتتجمّل الجوارحُ بأعمالِ الإيمانِ، وفي الدعاء المأثور: «اللهمّ زيّنا بزينةِ الإيمانِ، واجعلنا هداةً مهتدين»[2].

ومن النماذجِ الرفيعة في القدرة على عرض محاسن الإسلام على الآخرين ما قام به جعفرُ بنُ أبي طالب رضي الله عنه في عرض محاسن الإسلام على النجاشي ملك الحبشة، وكان ذلك سبباً في إسلامه وهدايته، فقد قال جعفر رضي الله عنه، وكان هو المتكلِّم عن المسلمين: أيُّها الملِكُ، كنّا قوماً أهلَ جاهليةٍ، نعبدُ الأصنامَ، ونأكلُ الميتةَ، ونأتي الفواحشَ، ونقطعُ الأرحامَ، ونُسِيْءُ الجوارَ، ويأكلُ القويُّ منّا الضعيفَ، فكنّا على ذلك، حتى بعثَ الله إلينا رسولاً منا، نعرفُ نسبَه وصدقَه وأمانتَه وعفافَه، فدعانا

---

[1] أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (9 / 103) ، والبيهقي في شعب الإيمان (538) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (4/ 242).

[2] أخرجه النسائي في سننه ، كتاب: السهو: باب: نوع اخر (1305) ، وأحمد في مسنده (264/4) قال الألباني في مشكاة المصابيح (2497):

إلى الله لنوحّدَه ونعبدَه، ونخلعَ ما كنّا نعبدُ نحن واباؤنا من دونه من الحجارةِ والأوثانِ، وأمرنا بصدقِ الحديثِ، وأداءِ الأمانةِ، وصلةِ الرحمِ، وحُسنِ الجوارِ، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكلِ مالِ اليتيمِ، وقذف المحصنات.

وأمرنا أن نعبدَ الله وحدَه لا نشركُ به شيئاً، وأمرنا بالصلاةِ والزكاةِ والصيامِ، (قال: فعدّدَ عليه أمورَ الإسلامِ) فصدّقناه، وآمنا به، واتّبعناه على ما جاء به من دينِ اللهِ، فعبدنا الله وحدَه فلم نشركْ به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومُنا، فعذّبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادةِ الأوثانِ من عبادة الله تعالى، وأنْ نستحلَّ ما كنا نستحلُّ من الخبائثِ، فلمّا قهرونا وظلمونا، وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادِكَ، واخترناكَ على مَنْ سواكَ، ورَغِبْنا في جوارِك، ورجونا أنْ لا نظلمَ عندَك أيُّها الملك.

فقال له النجاشي: وهل معكَ ممّا جاء به عن اللهِ مِنْ شيءٍ؟

فقال له جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ.

فقرأ عليه صدراً من ﴿كهيعص *﴾ [مريم] . فبكى ـ والله ـ النجاشي حتى اخضلَّتْ لحيتُه، وبكت أساقفتُه، حتى أَخْضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إنَّ هذا (يقصد القرآن الكريم) والذي جاء به عيسى (يقصِدُ الإنجيل) والذي جاء به موسى (يقصد التوراة) ليخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ (أي من مصدر واحد أي من عند الله تعالى) انطلقا، فلا واللهِ لا أسلِّمهم إليكم أبداً، ولا يُكادون (يخاطب عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ـ مندوبي قريش إلى النجاشي) قالت أمُّ سلمة رضي الله عنها: فخرجا من عنده مقبوحينِ، مردوداً عليهما ما جاءوا به،

وأقمنا عنده بخيرِ دارٍ مع خير جارٍ[1]، ثم أسلم بعد ذلك النجاشي، وحَسُنَ إسلامه، وأسلم معه أساقفه وبطارقه وكثيرٌ من النصارى في تلك الديار[2].

كان ردُّ جعفر على أسئلة النجاشي في غاية الذَّكاءِ وقمّةِ المهارة السياسية والإعلامية والدعوية والعقدية فقد قام بالتالي:

- عدّد عيوبَ الجاهلية، وعرضها بصورةٍ تنفِّرُ السامعَ، وقصد بذلك تشويه صورةِ قريشٍ في عَيْنِ الملك، وركّز على الصفاتِ الذميمة التي لا تُنْتَزَعُ إلا بنبوَّةٍ.
- عرضَ شخصيةَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم في هذا المجتمع الاسن، المليء بالرّذائل، وكيف كان بعيداً عن النّقائص كلها، ومعروفاً بنسبه وصدقه، وأمانته، وعفافه فهو المؤهّلُ للرسّالة.
- أبرزَ جعفرُ محاسنَ الإسلام وأخلاقَه التي تتفق مع أخلاق دعوات الأنبياء، كنبذِ عبادة الأوثان، وصدقِ الحديث، وأداءِ الأمانة، وصلةِ الرحم، وحُسنِ الجوار، والكفِّ عن المحارم والدِّماء، وإقام الصلاةِ، وإيتاءِ الزّكاة، لأنّ النجاشي وبطارقتَه موغلون في النصرانيةِ، فهم يدركون أنّ هذه رسالاتُ الأنبياء، التي بعثوا بها من لدن موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام[3].
- لقد نجحَ جعفرُ رضي الله عنه بتوفيقِ اللهِ في عَرْضِ محاسنِ الإسلام، فأسلمَ الملكُ، وكسبَه إلى جانبه.

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده (1 / 202) ، (5 / 290) ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (6 / 27): رجاله رجال الصحيح غير إسحاق ، وقد صرح بالسماع.

[2] حقيقة الولاء والبراء ، سيد سعيد ص (1560).

[3] السيرة النبوية للصَّلابي (1 / 361).

7. الاجتهادُ في التحقُّق من مقامِ الإحسان في عبادة الله، والإحسانُ إلى خلقه:

فيجتهدُ أن يعبدَ الله كأنّه يشاهده ويراه، فيجتهدُ في إكمالِ العملِ وإتقانه، ولا يزالُ العبد يجاهِدُ نفسه ليتحقّق بهذا المقام العالي، حتى يقوّمَ إيمانَه ويقينَه ويصلُ في ذلك إلى حقِّ اليقين الذي هو أعلى مراتبِ اليقين، فيذوقَ حلاوةَ الطاعاتِ، ويجدَ ثمرةَ المعاملاتِ، وهذا هو الإيمانُ الكامِلُ.

وكذلك الإحسانُ إلى الخلقِ بالقول والفعل والمال والجاه وأنواع المنافع هو من الإيمان، ومن دواعي الإيمان، والجزاء من جنس العمل، فكما أحسنَ إلى عبادِ اللهِ، وأوصلَ إليهم من برّه، أحسنَ الله إليه أنواعاً من الإحسانِ، ومن أفضلها: أن يقوّيَ إيمانه ورغبتَه في فعل الخير، والتقرّب إلى ربه، وإخلاص العمل له، وبذلك يتحقّق العبدُ بالنصح لله ولعباده، فإنّ الدّينَ النصيحةُ، ومن وُفّقَ للإحسان في عبادة ربه، والإحسانِ في معاملةِ الخلق، فقد تحقّق نصحُه[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: 90] وقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *﴾ [آل عمران: 134]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ *﴾ [الاعراف: 56] وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ *﴾ [هود: 115] وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ *﴾ [الرحمن: 60] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ *﴾ [النحل: 128] فالمحسنون يشعرون بمعيّةِ الله، فيا له من شعورٍ عظيمٍ يستحقّه المحسنون![2].

---

[1] شجرة الإيمان ص (53).

[2] أخلاق المؤمن عمرو خالد ص (38).

8 ـ الدعوة إلى الله:

ومن دواعي الإيمان وأسبابه الدعوةُ إلى اللهِ وإلى دينه، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والدعوة إلى أصل الدين، والدعوة إلى التزام شرائعه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنّ طريقَ الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده من أكبر مقوّمات الإيمان، وصاحبُ الدعوة لابدَّ أن يسعى لنشر هذه الدعوة، ويقيمَ الأدلّة والبراهينَ على تحقيقها، ويأتيَ الأمور من أبوابها، ويتوسّلَ إلى الأمورِ من طرقها، وهذه الأمورُ من طرق الإيمان وأبوابه، وإنّ الجزاءَ من جنسِ العمل، فكما سعى إلى تكميلِ العبادِ ونصحِهم وتوصيتهم بالحق، وصبر على ذلك لا بّد أن يجازيه الله من جنس عمله، ويؤيّده بنورٍ منه وروحٍ وقوةٍ وإيمانٍ وحُسنِ التوكُّل عليه، فإنَّ الإيمانَ وحُسْنَ التوكل على الله يحصلُ به النصرُ على الأعداء، وعلى شياطينِ الإنس وشياطين الجن[1]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *﴾ [النحل: 99] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ *وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ *وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ *﴾ [فصلت: 33 ـ 35] .

9 ـ توطينُ النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان:

ومن أهمِّ موادّ الإيمان ومقوياته توطينُ النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان من شُعَبِ الكفر والفسوق والعصيان، فكما أنه لا بدّ في الإيمان من فعلِ جميعِ الأسباب

---

[1] شجرة الإيمان ص (53).

المقوّيةِ المنمّية له، فلا بدَّ مع ذلك من دفعِ الموانعِ والعوائق، وهي الإقلاعُ عن المعاصي، والتوبةُ ممّا يقع منها، وحفظُ الجوارح كلِّها من المحرّمات، ومقاومةُ فتن الشبهاتِ القادحةِ في علوم الإيمان، والمضعفة له، والشهواتِ المضعفةِ لإرادات الإيمان[1]، فإنّ الإرادات ـ التي أصلُها الرغبةُ في الخير ومحبته، والسعي فيه ـ لا تترك إلا بترك إراداتِ ما ينافيها من رغبةِ النفس في الشرِّ، ومقاومةِ النفس الأمارة بالسوء، فمتى حُفِظَ العبدُ من الوقوع في فتن الشبهات وفتن الشهوات تمَّ إيمانه، وقوي يقينه، وصار بستان إيمانه ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *﴾ [البقرة: 265] ومتى كان الأمر بالعكس، بأن استولت عليه النفس الإمارةُ بالسوء، ووقع في فتن الشبهات أو الشهوات أو كليهما، انطبق عليه هذا المثل، وهو قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ *﴾[البقرة: 266].

فالعبدُ المؤمنُ الموفَّقُ لا يزالُ يسعى في أمرين:

أحدهما: تحقيقُ أصولِ الإيمان وفروعه، والتحقّق بها علماً وحالاً.

والثاني: السعيُ في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصُها من الفتن الظاهرة والباطنة، ويداوي ما قصّر فيه من الأول، وما تجرأ عليه من الثاني، بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ *﴾ [الاعراف: 201] أي: مبصرون الخلل الذي وقعوا فيه، والنقص

---

(1) المصدر السابق ص (60).

الذي أصابهم من طائفِ الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، فإذا أبصروا، تداركوا هذا الخلل بسدّه، وهذا الفتق برتقه[1]، فعادوا إلى حالهم الكاملة، وعاد عدُّوهم حسيراً ذليلاً، وإخوانُ الشيطان، ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ *﴾ [الاعراف :202] فالشياطينُ لا تُقَصِّرُ عن إغوائهم وإيقاعهم في أشراك الهلاك، والمستجيبين لهم لا يقصّرون عن طاعة أعدائهم، والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا في الهلاك، ويحقُّ عليهم الخسار، ولذلك نكثِرُ من الدعاء: اللهمَّ حَبِّبْ إلينا الإيمانَ وزّينُه في قلوبِنا، وكرِّه إلينا الكُفْرَ والفُسوقَ والعِصيانَ، واجعلنا مِنَ الرّاشدينَ بفضلِكَ ومنَّتِكَ إنّكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ[2].

10 . معرفة حقيقةِ الدُّنيا واعتبارُها ممراً للآخرة:

ومن مقوّيات الإيمانِ معرفةُ حقيقةِ الدنيا، وأنّها مهما طالتْ فهي إلى زوالٍ، وأنّ متاعَها مهما عَظُمَ، فإنّه قليلٌ حقيرٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *﴾ [يونس :24] إنّ الآية الكريمةَ السابقة فيها عشرُ جملٍ وقعَ التركيبُ من مجموعها، بحيثُ لو سقطَ منها شيءٌ اختلّ التشبيه، إذ المقصودُ تشبيهُ حالِ الدنيا بسرعةِ تقضّيها، وانقراضِ نعيمها، واغترارِ الناس بها، بحالِ ماءٍ نزلَ من السماء، وأنبتَ أنواعَ العشب، وزيّنَ بزخرفه وجهَ

---

[1] شجرة الإيمان ص (61).

[2] المصدر السابق ص (62).

الأرضِ، كالعروس إذا أخذتْ الثيابَ الفاخرة، حتى إذا طمع أهلُها فيها، وظنّوا أنّها مسلمّةٌ من الجوائح، أتاها بأسُ اللهِ فجأةً، فكأنها لم تكن بالأمسِ(1).

وأخبرنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا *﴾ [الكهف: 45] .

أي: واضرب يا محمَّد للناسِ في زوالها وفنائها وانقضائها أي: ﴿مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ فيها من الحَبِّ، فشبَّ، ونما، وحَسُنَ، وعلاه الزهرُ والنضرةُ، ثم بعد هذا كله أي: يابساً أي: تفرّقه وتطرحه ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ أي: هو قادرٌ على الإنشاء والإفناء.

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ *﴾ [الحديد: 20] يقول تعالى مُوهِّناً أمرَ الحياة الدنيا، ومحقّراً لها أي: تفريجُ نفسٍ أي: باطِلٌ أي: منظرٌ جميلٌ أي: بالحسبِ والنّسبِ أي: مطرٍ أي: يُعْجِبُ الزرّاع ذلك ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ﴾، فإنّهم أحرصُ الناس عليه، وأميلُ الناس إليه أي: ثم يجفُّ بعد خضرته ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾، وتراه مصفرّاً، أي: من اليبس أي: ثمّ يكونُ بعد ذلك كلّه ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾، أي: هشيماً منكسراً، وكذلك الدنيا لا تبقى، كما لا يبقى النباتُ الذي وصفناه، ولما كان هذا المثلُ دالاً على زوال

(1) مباحث في إعجاز القران ص (216).

الدنيا، وانقضائها لا محالةَ، وأنَّ الآخرة كائنةٌ واتيةٌ لا محالةَ، حذّرنا الله تعالى من أمرها، ورغّبنا فيما فيها من الخيرِ، فقال تعالى: أي: وليس في الآخرة الاتيةِ إلا: إمّا هذا وإمّا ﴿وَفِي الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾، أي: إمّا عذابٌ شديد، وإمّا مغفرة من الله ورضوان، وقوله تعالى: أي: هي متاعٌ زائلٌ يغرُّ ويخدعُ مَنْ يركنُ إليها وإلى ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ *﴾، فيغترّ بها، وتعجّبَ ممن يعتقدُ أنّه لا دارَ سواها، ولا معادَ ورائها، مع أنها حقيرةٌ قليلةُ المتاعِ بالنسبة إلى الدّار الآخرة[1].

إنّ هذه الحقيقةَ التي أشارت إليها الآيات الكريمة، هي حقيقةُ الدنيا بكلِّ متاعها وزينتِها، وما تشتهيه النفسُ منها، وإنَّ كلَّ ذلك بالنسبة لنعيم الآخرة شيءٌ تافه، وقليلٌ وزائلٌ، هكذا فهم المسلمون حقيقةَ الدنيا، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبصّرهم، ويذكّرهم بدورهم ورسالتِهم في الأرض، ومكانتِهم عند الله، وظلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم على هذه الحال من التبصير والتذكير حتّى انقدحَ في ذهنهم ما لهم عند الله، وما دورُهم وما رسالتُهم في الأرض، وتأثراً بتربيته الحميدة تولّد الحماسُ والعزيمةُ في نفوس أصحابه، فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكلِّ ما في وسعهم وما في طاقتهم دون فتور أو توانٍ، ودون كسل أو ملل، ودون خوفٍ من أحدٍ إلا الله، ودونَ طمعٍ في مغنم أو جاه، إلا أداء هذا الدور وهذه الرسالة لتحقيق هذه الغاية في الدنيا، والفوز والنجاة في الآخرة[2]..

---

[1] تفسير القاسمي (11 / 49).

[2] منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في غرس الروح الجهادية ص (19-24).

سابعاً ـ صفات المؤمنين:

عرض القرآن الكريم كثيراً من صفاتِ أهلِ الإيمان، وتحدّثت آياته الكريمةُ عن أهمّها وأشهرِها، ودعت المؤمنينَ إلى أنْ يتّصفوا بها حتى يعيشوا حياةً إيمانيةً مباركةً سعيدةً، وحتى ينالوا جنةَ الله وثوابه ونعيمه، ولقد كان حديثُ القرآن الكريم عن صفاتِ المؤمنين شاملاً ومتنوعاً، وقد توزّعت سور القرآن في الحديثِ عن صفات المؤمنين في الفترة المكية والمدنية، وهذا يعطي أهميةً لتذكير المسلمين بها، حتى لا تُنسى ولا تُهملَ، ولكي يتربّى على هذه الصفاتِ والأخلاق عموم المسلمين[1]، ولا يمكننا حصرُ صفاتِ المؤمنين في القرآن الكريم، ولكن نقدّم مجموعةً من الآيات الواردة في بعض السور، والتي تضمّنت مجموعةً من الصفات اللازمة لأهل الإيمان.

1 ـ قال تعالى في سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ *الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ *إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ *أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ *الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾

فمن صفات هؤلاء المؤمنين في هذه الآيات الكريمة:

أ ـ الخشوع في الصلاة:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما مِنْ امرىءٍ مسلم تحضرُهُ صلاةٌ مكتوبةٌ، فيُحْسِنُ وضوءَها وخشوعَها وركوعَها إلاّ كانتْ كفّارةً لما قبلَها مِنَ الذّنوبِ ما لم يأتِ

---

[1] في ظلال الإيمان ص (79 ـ 80).

كبيرةً، وذلك الدهرُ كلَّه»[1]. والخشوع مطلوبٌ من المرءِ في الصلاة لوجوه منها الوجه الأول: لتذكّرِ اللهِ، والخوفِ من وعيده، كما قال عز وجل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي *﴾ [طه :14] والوجه الثاني: أنّ للصلاة أركاناً وواجباتٍ وسنناً، وروحُها النيةُ، والإخلاصُ، والخشوعُ، وحضورُ القلب، فإنّ الصلاة تشتمل على أذكارٍ ومناجاةٍ وأفعالٍ، ومع عدم حضورِ القلبِ لا يحصلُ المقصودُ بالأذكارِ والمناجاةِ، لأنَّ النطقَ إذا لم يعرِبْ عمّا في الضميرِ كان بمنزلة الهذيان، وكذلك لا يحصلُ المقصودُ من الأفعالِ، لأنَّه إذا كان المقصودُ من القيام الخدمةَ، ومن الركوعِ والسجودِ الذلَّ والتعظيمَ، ولو لم يكن القلبُ حاضراً لم يحصل المقصودُ، فإنَّ الفعلَ متى خرجَ عن مقصودِه بقي صورةً لا اعتبارَ بها، قال تعال: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج :37] والمقصود أنَّ الواصلَ إلى الله سبحانه وتعالى هو الوصفُ الذي استولى على القلب حتّى حملَ على امتثالِ الأوامرِ المطلوبة، فلابدّ من حضور القلبِ في الصلاةِ، ولكن سامحَ الشارعُ في غفلةٍ تطرأ، لأنَّ حضورَ القلبِ في أولها ينسحبُ حكمُه على باقيها[2].

ب . الإعراض عن اللغو واللغو:

كلُّ كلامٍ ساقطٍ حقُّه أن يُلغى، كالكذب والشتم، والهزل، يعني أنّ لهم من الجدِّ ما شغلهم عن الهزل، ولما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصفَ بالإعراضِ عن اللغو، ليجمع لهم الفعلَ والتركَ الشاقّين على الأنفس، اللذين هما قاعدتا بناء

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الطهارة ، باب: فضل الوضوء والصلاة عقبه (228).

(2) مختصر منهاج القاصدين ص (26) تفسير المراغي 5/ 6.

التكليف[1]. قال تعالى: أي: عن ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ*﴾ ، وهو يشتمل على الشرك، كما قاله بعضهم، وعلى المعاصي كما قاله آخرون ـ وما لافائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا *﴾ [الفرقان :72] .

ج ـ تطهيرهم لأنفسهم بأداء الزكاة:

قال تعالى وقال ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ *﴾ الله صلى الله عليه وسلم: «الطُّهُوْرُ شطرُ الإيمانِ، والحَمْدُ للهِ تملأُ الميزانَ، وسُبْحَانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ تملان ـ أو تملأ ـ ما بين السماواتِ والأرضِ، والصلاةُ نورٌ، والصدقةُ برهانٌ، والصبرُ ضياءٌ، والقرآن حُجَّةٌ لكَ أو عليكَ، كلُّ الناسِ يغدو فبائعٌ نفسَه، فمعتقُها أو موبقُها»[2] قوله: «الصدقة برهان» معناه: الصدقةُ حجةٌ على إيمان فاعِلها، فإنَّ المنافقَ يمتنعُ منها، لكونه لا يعتقده، فمن تصدّقَ استُدلَّ بصدقته على صدق إيمانه، فالمؤمنون في حياتهم الدنيا يصونون بالزكاة المجتمعَ من الخلل الذي ينشِئُه الفقرُ في جانب، والترف في جانب، فهي تأمينٌ اجتماعي للأفراد جميعاً، وهي ضمانٌ اجتماعي للعاجزين، وهي وقايةٌ للجماعة كلِّها من التفكك والانحلال[3].

د ـ حفظ الفروج:

قال تعالى: فالمؤمنون قومٌ يحبّون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ *إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ*﴾

---

[1] تفسير النسفي ، وتفسير الكشاف (3 ؛ 26).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الطهارة ، باب: فضل الوضوء (223).

[3] الحياة في القران الكريم ، حزمي جزولي.

ويحافظون على طهارتهم بمعناها الشامل، وهذه طهارةُ الروح، ووقايةُ النفس والأسرة والمجتمع بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير حلالٍ، وحفظِ القلوبِ من التطلُّع في غير حلالٍ، وحفظِ المجتمع من انطلاق الشهوات فيه بغير حساب، ومن فساد البيوت فيها والأنساب[1].

وحفظُ الفَرْجِ يشمل تجنُّبَ إتيان الزوجة في الدبر، وفي أثناء الحيض، وفي أثناء الصيام، والإحرام.

وحفظ الفرج يقتضي سَدَّ الذرائع، أي تجنُّبَ السُبُل التي تفضي إليه، ولهذا أمر القرآن الكريم المؤمنين والمؤمنات بغضّ البصر، وعدمِ إبداء الزينة، فذلك أزكى لهنّ وأطهر[2]، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ *وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ولاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *﴾ **[النور :30. 31]**

---

[1] في ظلال القران (4/ 2445).

[2] الفضائل الخلقية في الإسلام ، لأحمد عبد الرحمن ص (244).

ولكي يمكّن الإسلام المسلمَ من الممارسة الفعلية لحفظ الفرج والعفّة، فإنّه يراعي الأمور التالية:

الأمر الأول: إنّ الإسلامَ لم يجعلْ الزواجَ أبدياً كالمسيحية مثلاً، فأباحَ الطلاق إذاوقعَ النفورُ بين الزوجين، وعند عجزِ الزوجِ، أو مرضه، أو إعساره، أو غيبته.

الأمر الثاني: أباحَ للزوجِ الطلاقَ، والتزوّجَ بأكثر من واحدة على أن يعدلَ بينهنَّ فيما يملك.

الأمرَ الثالث: أمرَ الذي لا يستطيعُ مؤنَ النكاحِ بالصومِ، ليدفعَ شهوته، ويحفظَ فرجه وعفته، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معشرَ الشبابِ، مَنِ استطاعَ مِنْكُم الباءةَ فليتزوّجْ، فإنّه أغضُّ للبصرِ، وأحصنُ للفرجِ، وَمَنْ لم يستطعْ فعليه بالصّوْمِ فإنَّه له وجاءُ»[1]. وبهذا فتحت الشريعةُ للمُحْصَنُ كلَّ أبوابَ الحلالِ، وأغلقتْ دونه بابَ الحرام[2].

وفضلاً عن هذا فإنَّ المجتمعَ الإسلاميَّ الحقيقيَّ يخالِفُ المجتمعاتِ القائمةِ جذرياً لصالح العفّة، فنظمُه وقوانينُه تعاونُ الرجالَ والنساءَ على التعفّف[3].

هـ رعاية الأمانة والعهد:

قال تعالى: أي: إذا اؤتمنوا لم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ *﴾، بل يؤدّون الأمانة إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كالمنافقين الذين

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: النكاح ، باب: من لم يستطع الباءة فليصم (5066) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: النكاح ، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤونة (1400).

[2] التشريع الجنائي الإسلامي (642/1).

[3] الفضائل الخلقية في الإسلام ، ص (245).

وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «ايةُ المنافِقِ ثلاثٌ: إذا حدّثَ كذبَ، وإذا وعدَ أخلفَ، وإذا أؤتمنَ خان»[1]. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا *﴾ [النساء : 58] .

وعن أبي ذر قال: قلتُ: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ فضربَ بيدِهِ على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر! إنك ضعيفٌ، وإنها أمانةٌ، وإنها يومَ القيامةِ خزيٌ وندامةٌ، إلا مَنْ أخذها بحقِّها، وأدّى الذي عليه فيها»[2]. فسمّى الرسولُ صلى الله عليه وسلم الولايةَ في هذا الحديثِ أمانةً، لأنّ تأديةَ حقِّها بالعدلِ، وعدم الاستغلال الشخصيّ فيها، واليقظة على مصالح الناس: كلُّ ذلك لا يكون إلاَّ بخلق الأمانة[3].

وعن أبي هريرة قال: بينما كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يحدّثُ إذا جاء إعرابيٌّ فقال: «متى الساعة؟ قال: «إذ ضيعت الأمانةُ فانتظرِ الساعةَ».

قال: كيف إضاعتها؟.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا وُسِدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلِهِ فانتظرِ الساعة»[4].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: علامة النفاق (33) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان خصال المنافق (59).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإمارة ، باب: كراهة الإمارة بغير ضرورة (1825).

[3] الأخلاق الإسلامية وأسسها (605/1).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: العلم ، باب: من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه فأتمَّ الحديث ، ثم أجاب السائل (59).

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ*﴾[البقرة: 283] .

و ـ المحافظة على الصلوات:

قال تعالى: أي الذين على أوقاتِ صلاتهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ*﴾، فلا يضيعونها، ولا يشتغلون عنها حتى تفوتهم، ولكنّهم يراعونها حتّى يؤدونها فيها[1].

روي عن عبد الله بن مسعود قال: سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ العملِ أفضلُ؟ قال: «الصلاةُ على وقتِها» قال: قلتُ: ثُمَّ أيٌ؟ قال: «برُّ الوالدينِ» قال: قلتُ: ثمَّ أيٌ؟ قال: «الجهادُ في سبيلِ اللهِ» فما تركت استزيدُه إلا إرعاءً عليه[2].

2 ـ وقال تعالى في سورة الفرقان: هذه هي صفاتُ عبادِ الله المؤمنين في الحياة ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا *وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيامًا *وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا *إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا *وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا *وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا *يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً *إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ

---

[1] تفسير الطبري (9/ 200).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (85). وأخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجهاد والسير ، باب فضل الجهاد والسير بلفظ قريب (2872).

حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا *وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا *وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً *وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا *أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا *خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا *﴾، الذين استوجبوا المثوبةَ منه، وجزاهم على ذلك الجزاءَ العظيم.

فمن هذه الصفات:

أ ـ السكينة والوقار: قال تعالى: أي: بالسكينةِ والوقار غير ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾، ولا متجبّرين، ولا ساعينَ فيها بالفسادِ ومعاصي الله[1].

فالمؤمنون قومٌ لا يريدون في الأرض علوّاً، ولا يبغون فيها كذلك فساداً، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخرة نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [القصص: 83] وفي بيان المعنى الصحيح للسكينة والوقار، ليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنُّعاً ورياءً، فقد كان سيّدُ ولد آدم صلى الله عليه وسلم إذا مشى كأنّما ينحطُّ من صببٍ، وكأنّما الأرضُ تطوى له، وقد كره بعضُ السلف المشيَ بتضعُّفٍ وتصنُّعٍ[2].

وتبيِّنُ الآية أنَّ المؤمنين في الحياة الدنيا يتميّزون عن غيرهم بالسكينة والوقار والتواضع، وهم لا يستكبرون، ولا يسعَوْن في الأرض بالفساد، ذلك لأنّ الكِبْرَ له

---

[1] تفسير القرطبي (407/9).

[2] تفسير ابن كثير (279/3).

خطورته البالغة على الحياةِ البشريّة، فلا يبقى في حالةِ وجودِ الكِبْر احترامٌ لأحدٍ، ولا هيبةٌ لأحدٍ، ولا حرمةٌ لأحدٍ، ولا أدبٌ لأحدٍ[1].

ب ـ الحلم: قال تعالى: فهم حلماءُ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا *﴾ يجهلون، وإن جُهِلَ عليهم حلموا ولا يَسْفَهون.

هذا نهارهم، فكيف ليلهم؟خير ليل، صفُّوا أقدامهم، وأجروا دموعهم على خدودهم، يطلبونَ مِنَ اللهِ جلَّ ثناؤه فِكاك رقابهم[2].

والحلمُ من الخصالِ المحمودةِ التي يحبُّها الله عزَّ وجلَّ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأشجِّ عبدِ القيس: «إنَّ فيكَ خصلتينِ يحبُّهما اللهُ: الحلمُ والأناةُ»[3].

ج ـ إحياءُ الليل بالصلاة: من صفاتِ عبادِ الله المؤمنين في الحياة الدنيا إحياؤهم الليلَ أو أكثرَه بالصلاةِ والطاعةِ، وقد ذكر الله سبحانه هذه الصفة للمؤمنين في آيات كثيرةٍ، منها قوله تعالى: وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيامًا * إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ *تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *﴾ [السجدة:15-16] وقوله سبحانه: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ *وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ*﴾ [الذاريات: 17 ـ 18] .

وهم في صلاتهم وعبادتهم تمتلأئُ قلوبُهم بالتقوى والخوف من عذاب جهنم، فهم يتوجّهون إلى ربِّهم تضرُّعاً وخُفية، ليصرفَ عنهم عذابها، قال تعالى: وقال تعالى:

---

[1] الحياة في القران الكريم (443/2).

[2] تفسير الطبري (409/9).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب: الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله وشرائع الدين ، والدعاء إليه ، والسؤال عنه ، وحفظه ، وتبليغه من لم يبلغه (17).

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا *إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً *﴾ [الفرقان: 6] فإنَّ مغالبة هتافِ النوم وجاذبيةِ الفراش، بعد كدِّ النهار، أشدُّ وطأً، وأجهدُ للبدن، ولكنَّها إعلانٌ لسيطرة الروح، واستجابةٌ لدعوة الله، وإيثارٌ للإنس به، ومن ثَمَّ فإنَّها أقومُ قيلاً، لأنَّ للذكر فيها حلاوتُه، وللصلاة فيها خشوعُها، وللمناجاةِ فيها شفافيتُها، وإنها لتسكبُ في القلبِ أُنساً وراحَةً وشفافيةً ونوراً، قد لا يجدُها في صلاةِ النهار وذكره، والله الذي خلقَ هذا القلبَ يعلمُ مداخلَه وأوتارَه، ويعلمَ ما يتسرّبُ إليه وما يوقع عليه، وأيُّ الأوقاتِ يكونُ فيها أكثرَ تفتُّحاً واستعداداً وتهيُّؤاً، وأيُّ الأسباب أعلقُ به، وأشدُّ تأثيراً فيه[1].

د . القصدُ والاعتدالُ في الإنفاق: ومن صفات المؤمنين في الحياة الدنيا القصدُ والاعتدالُ، والتوازنُ في الإنفاق، وهم ليسوا بمبذّرين في إنفاقهم، فلا ينفقون فوق الحاجةِ، ولا بخلاء على أهليهم، فيقصّرون في حقهم، ولا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخيرُ الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا *﴾

هـ عدم الشركِ بالله، والتحرّجِ عن قتل النفس والزنا: ومن صفات عباد الله المؤمنين في الحياة الدنيا أنَّهم لا يشركون بالله، بل يخلِصون العبادةَ له، ويفردونه بالطاعةِ، ولا يقتلون النفس إلاّ بالحقّ الذي يزيلُ حرمتها وعصمتها، كالكفر بالله بعد إسلامها، أو الزنا بعد إحصانها، أو قتل النفس، وتقتل بها[2].

---

(1) في ظلال القرآن (3746/6).

(2) الحياة في القرآن الكريم (450/2).

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: 68-71] .

و ـ **عدمُ شهادةِ الزور:** قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا *﴾، وشهادةُ الزورِ من أكبر الكبائر، فقد صرّح بذلك رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حيثُ قال لأصحابه: «ألا أنبّئكم بأكبرِ الكبائرِ ـ ثلاثاً ـ: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور ـ أو قول الزور» ـ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئاً فجلس، فما زال يكرِّرُها حتى قلنا: ليتَه سكت[1].

ز ـ **الانتفاع بموعظة القرآن:** قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً *﴾ .

ح ـ **الرغبة في مضاعفة السالكين في الدرب إلى الله:** قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا *﴾

سُئل الحسن البصريُّ عن هذه الآية، فقال: أن يري اللهَ العبدُ المسلمُ من زوجتِهِ ومن أخيه ومن حميه، طاعة الله، لا واللهِ لا شيءَ أقرُّ لعينِ المسلمِ مِنْ أن يرى ولداً أو ولد ولدٍ أو أخاً أو حميماً مطيعاً لله عزَّ وجلَّ[2].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان الكبائر وأكبرها (87). وأخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور (2654) بلفظ قريب.

[2] الحياة في القران الكريم (457/2).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: أئمة ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا *﴾ يهتدى بنا، ولا تجعلنا أئمة ضلالة، لأنّه قال لأهل السعادة: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ﴾ [الانبياء :73] ولأهل الشقاوة: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ *﴾ [القصص :41] .

وقال آخرون: هداة مهتدين، دعاة إلى الخير، فأحبّوا أن تكونَ عبادتهم متصلةً بعبادةِ أولادِهم وذرياتهم، وأن يكونَ هداهم متعدّياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثرُ ثواباً، وأحسن مآباً، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا ماتَ ابنُ آدم انقطعَ عملُه إلاّ من ثلاثٍ، ولدٍ صالحٍ يدعو له، أو علمٍ يُنْتَفَعُ به من بعدِهِ، أو صدقةٍ جاريةٍ»[1].

ونكتفي بهذا القدر في ذكر صفاتِ المؤمنين في الحياة الدنيا، فلا نتوسّعُ خشيةَ الإطالةِ، وإلاّ فصفاتُ المؤمنين كثيرةٌ كما وردت في القرآن الكريم، فمنها: الإخلاصُ والصدقُ، والتوكلُ، ومحبةُ اللهِ، والخوفُ والرجاءُ، والشكرُ، والصبرُ، والرضا، والشجاعةُ، وغيرها من الصفاتِ الحميدةِ[2].

ثامناً: فوائد الإيمان وثمراته:

إنَّ للإيمانِ الصحيحِ فوائدَ وثمراتٍ عاجلةً وآجلةً في القلبِ والبدنِ والراحةِ والحياةِ الطيّبةِ في الدنيا والآخرة، كما أنَّ لهذه الشجرة الإيمانية من الثمارِ اليانعةِ، والجنى

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (1631) ولفظه: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له».

[2] الحياة في القران الكريم (459/2).

اللذيذ، والأُكل الدائم، والخير المستمر، وأمور لا تحصى، وفوائد لا تستقصى، ومجملها: أن خيراتِ الدنيا والآخرة ودفعَ الشرورِ كلِّها من ثمراتِ الإيمانِ الصحيح، وذلك أنَّ شجرةَ الإيمانِ الصحيح إذا ثبتتْ وقويتْ أصولُها، وتفرّعتْ فروعُها، وزهت أغصانُها، وأينعتْ أفنانُها، عادت على صاحِبها وعلى غيرِه، بكل خيرٍ عاجلٍ وآجلٍ.

ومن أعظم ثمار الإيمان وفوائده:

1 . الاغتباطُ بولايةِ الله الخاصّة:

الاغتباط بولاية الله هي أعظمُ ما يتنافس فيه المتنافسون، وأجلُّ ما حصّله الموَّفقون، قال تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ *﴾ [البقرة: 62 . 63] فكلُّ مؤمنٍ تقيٍّ فهو للهِ وليٌّ خاصّةً.

ومن ثمراتها ما قاله الله عنهم: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ [النور: 257] أي: يخرجُهم من ظلماتِ الكفرِ إلى نورِ الإيمانِ، ومن ظلماتِ الجهل إلى نورِ العلمِ، ومن ظلماتِ المعاصي إلى نورِ الطاعاتِ، ومن ظلماتِ الغفلةِ إلى نورِ اليقظةِ الذكرِ، وحاصلُ ذلك أنّهُ يخرجُهم من ظلماتِ الشرور المتنوّعة إلى ما يدفعُها من أنوارِ الخيرِ العاجلِ والآجل، وإنّما حازوا هذا العطاءَ الجزيلَ بإيمانهم الصحيح، وتحقيقهم هذا الإيمان بالتقوى، فإنَّ التقوى من تمام الإيمان[1].

والتقوى من شروط ولاية الله الخاصة، ومن شروط التمكين لهذه الأمة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *﴾ [الأعراف: 96] إنَّ تقوى الله تجعلُ بينَ العبدِ وبينَ ما يخشاه من ربه ومن غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيهِ مِنْ ذلكَ، وهي أنْ تعملَ

[1] شجرة الإيمان ص(63 . 64).

بطاعةِ اللهِ على نورٍ من اللهِ، ترجو ثوابَ اللهِ، وأن تتركَ معصيةَ اللهِ، على نورٍ من اللهِ، تخافُ عقابَ اللهِ[1].

وللتقوى ثمرات عاجلة وآجلة منها:

الثمرة الأولى . المخرج من كل ضيق، والرزق من حيث لا يحتسبه العبد: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق :2. 3] .

الثمرة الثانية . السهولةُ واليسرُ في كلِّ أمرٍ: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا *﴾ [الطلاق :4] .

الثمرة الثالثة . تيسيرُ العلمِ النافعِ: قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *﴾ [البقرة :282] .

الثمرة الرابعة . إطلاقُ نورِ البصيرة: قال تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ [الانفال :29] .

الثمرة الخامسة: محبَّةُ اللهِ ومحبَّةُ الملائكةِ والقبولُ في الأرض:

قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ *﴾ [آل عمران :76] .

وقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «إذا أحبَّ اللهُ العبدَ قال لجبريلُ: قد أحببتُ فلاناً فأحبّه، فيحبُّه جبريلُ عليه السلام، ثم ينادي في أهلِ السماءِ: إنَّ الله قد أحبَّ فلاناً فأحبُّوه، فيحبُّه أهلُ السماء، ثم يوضَعُ له القبولُ في الأرض»[2].

---

[1] فقه النصر والتمكين للصلاّبي (204).

[2] أخرجه بهذا اللفظ مالك في الموطأ ، كتاب الجامع ، باب: ما جاء في المتحابين في الله (1502). وأخرجه بنحوه البخاري في صحيحه ، كتاب: بدء الخلق ، باب: ذكر الملائكة (3209) ، وكذلك مسلم في صحيحه ، كتاب: البر والصلة والاداب ، باب: إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده (2637).

الثمرة السادسة: نصرة الله عزَّ وجلَّ وتأييده وتسديده: وهي المعية المقصودة بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ *﴾ [البقرة :194] . فهذه المعيةُ هي معيةُ التأييد والنصرة والتسديد، وهي معيةُ الله عزَّ وجلَّ لأنبيائه وأوليائه، ومعيته للمتقين والصابرين، وهي تقتضي التأييدَ والحفظَ والإعانةَ، كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى *﴾ [طه :46] .

أما المعية العامة، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد :4]، وقوله: ﴿وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء :108] . فهي تستوجِبُ من العبدِ الحذَرَ والخوفَ ومراقبةَ الله عزَّ وجلَّ.

الثمرة السابعة . الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم: قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *﴾ [آل عمران :120] .

الثمرة الثامنة . حفظ الذرية الضعاف بعناية الله تعالى: قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا *﴾ [النساء :9] ففي الآية إشارةٌ إلى إرشادِ المسلمين الذين يخشون تركَ ذريةٍ ضعافاً إلى التقوى في سائر شؤونهم، حتى يحفظَ أبناءَهم، ويدخلوا تحت حفظِ اللهِ وعنايته، والآية تشعِرُ بالتهديدِ بضياعِ أولادِهم إن فقدوا تقوى الله، وإشارةٌ إلى أنَّ تقوى الأصولِ تحفظُ الفروعَ، وأنَّ الرجالَ الصالحين يُحْفَظُوْنَ في ذريتهم الضعاف، كما في آية: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف :82] . فإنَّ الغلامين حُفِظا ببركة أبيهما في أنفسهما ومالِهما[1].

---

[1] محاسن التأويل للقاسمي (47/5).

الثمرة التاسعة ـ سببٌ لقبولِ الأعمال التي بها سعادةُ العبادِ في الدنيا والآخرة: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ *﴾ [المائدة: 27] .

الثمرة العاشرة ـ سببُ النجاةِ من عذاب الدنيا: قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ *﴾ [فصلت: 17 ـ 18] .

الثمرة الحادية عشرة ـ تكفيرُ السيئات: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا *﴾ [الطلاق: 5] .

الثمرة الثانية عشرة ـ ميراث الجنة: قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا *﴾ [مريم: 63] فهم الورثة الشرعيون لجنّة الله عزَّ وجلَّ، وهم لا يذهبون إلى الجنة سيراً على أقدامهم، بل يحشرون إليها ركباناً، مع أنَّ الله عزَّ وجلَّ يقرِّبُ إليهم الجنة تحيةً لهم، ودفعاً لمشقتهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ *﴾ [ق: 31] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفْدًا *﴾ [مريم: 85] .

الثمرة الثالثة عشرة ـ تجمعُ بين المتحابّين مِنْ أهلِهَا: قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ *﴾ [الزخرف: 67] ومن بركة التقوى أنَّ الله عزَّ وجلَّ ينزع ما قد يعلقُ بقلوبهم من الضغائن والغل، فتزدادُ مودَّتهم، وتتمُّ محبتُهم وصحبتُهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ *وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ *﴾ [الحجر: 45 ـ 47] .

إنَّ هذه الثمار العظيمة عندما تمسُّ شغافَ قلوبِ المسلمين تضفي على الأمةِ فيضاً ربانياً موصولاً بالله، يصِلُ حلقةَ الدنيا بالآخرة، كما أنَّ الحرص على تقوى الله تعالى

يكسِبُ الأمة صفاتٍ رفيعةٍ، وأخلاقاً حميدةً، ومكارمَ نفيسةً تجعل هذه الأمة مؤهَّلة لقيادة البشرية نحو سعادتها.

2 ـ الفوز برضا الله تعالى:

ومن ثمرات الإيمان الفوز برضا الله تعالى، ودار كرامته، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾ [التوبة: 71 ـ 72] فنالوا رضا ربهم ورحمتَه، وفازوا بهذه المساكن الطيبة، بإيمانهم الذي كمَّلوا به أنفسهم، وكملوا غيرَهم بقيامهم بطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكر، فاستولوا على أجلِّ الوسائل، وأفضلِ الغايات، وذلك فضل الله[1].

3 ـ دفاع الله عن المؤمنين:

ومن ثمرات الإيمان أنَّ الله يدفعُ عن المؤمنين جميعَ المكاره، وينجيهم من الشدائد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: 38]، أي: يدافِعُ عنهم كلَّ مكروه، ويدافعُ عنهم شرَّ شياطينِ الإنسِ وشياطينِ الجنِّ، ويدافعُ عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها، ويرفعها أو يخفضها بعد نزولها، ولما ذكر تعالى ما وقعَ فيه يونُس ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [الأنبياء: 87 ـ 88] إذا وقعوا في الشدائدِ، كما أنجينا يونس عليه السلام. قال

---

[1] شجرة الإيمان ص(65).

النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «دعوةُ أخي يونس، ما دعا بها مكروبٌ إلا فرّجَ الله عنه كربتَه: لا إلهَ إلاّ أنتَ سبحانَكَ إنِّي كنتُ من الظالمين»[1].

4 . الحياة الطيبة:

ومن ثمرات الإيمان الحياة الطيبة في هذه الدار، وفي دار القرار، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [النحل: 97] وهذا وعدٌ ربانيٌّ لمن جمعَ بين الإيمانِ والعملِ الصالح، بأنْ يتفضَّلَ الله عزَّ وجل عليه بالحياة الطيبة، كما أنَّ الله سبحانه قد شيَّدَ في موضع آخر صرحَ الحياةِ الناجحةِ على أساسِ الإيمانِ الصحيح والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ *إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ *﴾ [العصر: 1 . 2] إنَّ الإيمانَ أساسُ الحياة الطيبة، ذلك لأنَّه يجعلُ صاحبَه ثابتاً عالياً مثمراً في حياته، ثابتاً لا تزعزعه الأعاصيرُ، ولا تعصفُ به رياحُ الباطل، ولا تقوى عليه معاولُ الطغيان[2].

5 . حصولُ البشارةِ بكرامةِ اللهِ والأمنِ التامّ من جميع الوجوه:

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [البقرة: 223] فأطلقَها ليعمَّ الخيرُ العاجلُ والآجل، وقيّدها في مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[البقرة: 25]، فلهم البشارةُ المطلقةُ والمقيّدةُ، ولهم الأمنُ المطلقُ في مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ

---

[1] أخرج الترمذي في جامعه ، كتاب: الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد (3505) عن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت ، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فإنه لم يَدْعُ بها رجلٌ مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له». قال الألباني: صحيح. انظر المشكاة (2292).

[2] الحياة في القران الكريم ص(493).

مُهْتَدُونَ *﴾[الأنعام: 82] ولهم الأمن المقيّدُ في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *﴾[الأنعام: 48] فنفى عنهم الخوفَ لما يستقبلونه، والحُزْنَ ممّا مضى عليهم، وبذلك يتمُّ الأمن، فالمؤمن له الأمنُ التام في الدنيا والآخرة، أَمِنَ مِنْ سخطِ الله وعقابه، وأَمِنَ مِنْ جميعِ المكاره والشرور.

وللمؤمن البشارةُ الكاملةُ بكلِّ خيرٍ كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرة﴾ [يونس: 64] ويوضح هذه البشارة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً *أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا *﴾ [الكهف: 30 ، 31] وقال تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [الحديد: 28] فرتَّب على الإيمانِ حصولَ الثوابِ المضاعفِ، وكمالَ النورِ الذي يمشي به العبدُ في حياته، ويمشي به يومَ القيامةِ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الحديد: 12] فالمؤمنُ من يمشي في الدنيا بنورِ علمِهِ وإيمانهِ، وإذا أطفئت الأنوارُ يومَ القيامة، مشى بنورِهِ على الصراط، حتى يجوزَ به إلى دار الكرامة والنعيم.

وكذلك رتب المغفرةَ على الإيمان، ومَنْ غُفِرَتْ سيئاتُه، سَلِمَ من العقاب، ونال أعظمَ الثواب[1].

---

[1] شجرة الإيمان ص(79).

6. حصول الفلاح والهدى:

ومن ثمراتِ الإيمانِ حصولُ الفلاح الذي هو إدراكُ غايةِ الغايات، فإنّه إدراكُ كلِّ مطلوبٍ، والسلامةُ من كلِّ مرهوبٍ، والهُدى الذي هو أشرفُ الوسائل، كما قال تعالى بعدما ذكّر المؤمنين بما أَنْزَلَ على محمّدٍ صلى الله عليه وسلم وما أَنْزَلَ على مَنْ قبله، والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة: اللتين هما من أعظم اثار الإيمان، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ [البقرة: 5] فلا سبيلَ إلى الهُدى والفلاح، اللذين لا صلاحَ ولا سعادةَ إلاَّ بهما، إلا بالإيمانِ التامِّ بكلِّ كتابٍ أنزله، وبكلِّ رسولٍ أرسله، فالهُدَى أجلُّ الوسائل، والفلاحُ أكملُ الغايات[1].

7. الانتفاعُ بالمواعظ والتذكير:

ومن ثمراتِ الإيمان الانتفاعُ بالمواعظ، والتذكير والآيات، قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [الذاريات: 55] لأنَّ الإيمانَ يحمِلُ صاحبه على التزام الحقِّ واتباعه، علماً وعملاً، وكذلك معه الالةُ العظيمة والاستعدادُ لتلقّي المواعظ النافعة، والآيات الدالة على الحق، وليس عنده مانعٌ يمنعه من قبول الحق، ولا مِنَ العمل به، كما أنَّ الإيمان يوجِبُ سلامةَ الفطرة، وحُسْنَ القصد، ومن كان كذلك انتفعَ بالآيات[2].

---

[1] شجرة الإيمان ص(80).

[2] المصدر نفسه ص (80).

8. قطعُ الشكوكِ التي تضرُّ بالدين:

ومنها أنَّ الإيمانَ يقطعُ الشكوكَ التي تعرِضُ لكثيرٍ من الناس، فتضرُّ بدينهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: 15] أي: دفعَ الإيمانُ الصحيحُ الذي معهم الرَّيْبَ والشكَّ الموجود، وأزاله بالكلية، وقاومَ الشكوكَ التي تُلْقِيها شياطينُ الإنس والجن، والنفوسُ الأمّارةِ بالسوء، فليس لهذه العلل المهلِكَةِ دواءٌ إلاَّ تحقيقُ الإيمانِ، ولهذا ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «لا يزالُ الناسُ يتساءلون، حتى يُقَالَ: هذا اللهُ خلقَ الخلقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فمن وجدَ ذلك، فليقلْ آمنتُ باللهِ، وَلْيَنْتَهِ، وليتعوَّذْ باللهِ مِنَ الشيطانِ»[1]، فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الدواءَ النافعَ لهذا الداءِ المهلكِ، وهو ثلاثة أشياء:

الأول: الانتهاء عن هذه الوساوس الشيطانية.

والثاني: الاستعاذة من شرِّ من ألقاها وشبّه بها، ليضل بها العباد.

الثالث: الاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح، الذي مَنِ اعتصمَ به كان من الآمنين.

وذلك لأنَّ الباطلَ يتّضحُ بطلانه بأمورٍ كثيرة، أعظمُها العلمُ بأنَّه منافٍ للحق، وكلُّ ما ناقضَ الحق فهو باطلٌ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾ [يونس: 32][2].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: بدء الخلق ، باب: صفة إبليس وجنوده (3276) ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان ، باب: بيان الوسوسة في الإيمان ، وما يقوله من وجدها (132)ٍََُ.

[2] شجرة الإيمان ص(84).

9. ملجأ المؤمنين:

ومن ثمراتِ الإيمان وفوائدِه أنَّ الإيمانَ ملجأُ المؤمنين في كلّ ما يلمُّ بهم، من سرورٍ، وحزنٍ، وخوفٍ، وأمنٍ، وطاعةٍ، ومعصيةٍ، وغيرِ ذلك من الأمور التي لا بدَّ لكلِّ أحدٍ منها.

- فهم يلجؤون إلى الإيمان عند المحابّ والسرورِ، فيحمَدون الله، ويثنون عليه، ويستعملون النِّعَم فيما يحبُّ المنعم.
- ويلجؤون إلىالإيمان عند المكارهِ والأحزانِ، فيتسلّون بإيمانهم وحلاوته، ويتسلّون بما يترتّب على ذلك من الثوابِ، ويقابِلونَ الأحزان والقلق براحة القلب والرجوع إلى الحياة الطيبة المقاومة للأحزان والأتراح.
- ويلجؤون إلى الإيمانِ عند الخوف، فيطمئنون إليه، ويزيدهم إيماناً وثباتاً، وقوة وشجاعة، ويضمحِلُّ الخوفُ الذي أصابهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ *فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ*﴾ [آل عمران: 173 . 174] لقد اضمحلَّ الخوفُ من قلوبِ هؤلاء الأخيار، وخلفَه قوةُ الإيمان وحلاوته، وقوة التوكل على الله، والثقة بوعده.
- ويلجؤون إلى الإيمان عند الأمن، فلا يُبْطِرُهم، ولا يُحْدِثُ لهم الكبرياء، بل يتواضعون، ويعلمون أنّه من الله، ومن فضلِه، وتيسيره، فيشكرون الذي أنعمَ بالسبب والمسبب، الأمنِ وأسبابه، ويعلمون أنّه إذا حصلَ لهم ظفرٌ بالأعداء وعزٌّ، أنه بحولِ اللهِ وقوتِهِ وفضله، لا بحولهم ولا بقوتهم.

- ويلجؤون إلى الإيمان عند الطاعة، والتوفيق للأعمال الصالحة، فيتعرّضون بنعمة الله عليهم بها، وأنَّ نعمته فيها أعظمُ من نعمةِ العافية والرزقِ، ويحرصون على تكميلها، وعمل كل سبب لقبولها، وعدم ردها أو نقصها، ويسألونَ الذي تفضّلَ عليهم بالتوفيق لها، أن يتمَّ عليهم نعمته بقبولها، والذي تفضَّلَ عليهم بحصولِ أصلها، أن يتمِّمَ لهم منها ما انتقصوه منها.

- ويلجؤون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي بالمبادرة إلى التوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات، لجبر نقصها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الاعراف :201] .

فالمؤمنُ يجولُ ما يجولُ في الغفلةِ والتجرؤ على بعض الاثام، ثم يعودُ سريعاً إلى الإيمان، الذي بنى عليه أمورَه كلها، فالمؤمنون في جميع تقلّباتهم وتصرّفاتهم ملجؤهم إلى الإيمانِ، ومفزُعهم إلى تحقيقه، ودفعِ ما ينافيه ويضاده، وذلك مِنْ فضل الله عليهم ومَنّه[1].

10 . المنع من الوقوع في الموبقات المهلكة:

ومنها أنَّ الإيمانَ الصحيحَ يمنعُ العبدَ من الوقوع في الموبقات المهلكةِ، قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزَّاني حين يَزني وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمنٌ»[2]. ومن وقعت

---

[1] شجرة الإيمان ص(87).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الأشربة ، باب: قول الله تعالى: {} [المائدة: 90] {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ، ونفيه عن المتلبس بالمعصية ، على إرادة نفي كماله (57).

منه، فإنَّه لضعفِ إيمانه، وذهابِ نورِه، وزوالِ الحياء ممّن يراهُ حيثُ نهاه، وهذا معروفٌ مشاهدٌ.

والإيمانُ الصادقُ الصحيحُ، يصحبُهُ الحياءُ مِنَ اللهِ، والحبَّ له، والرجاء القويّ لثوابه، والخوف من عقابه، والنور الذي ينافي الظلمة، وهذه الأمورُ التي هي من مكمّلات الإيمانِ لا ريبَ أنها تأمرُ صاحبَها بكلِّ خير، وتزجره عن كلِّ قبيحٍ، فأخبر أنَّ الإيمانَ إذا صحبَه عند وجود أسباب هذه الفواحش، فإنَّ نورَ إيمانه يمنعه من الوقوع فيها، فإنَّ النورَ الذي يصحب الإيمانَ الصادقَ، ووجودَ حلاوةِ الإيمانِ، والحياءَ مِنَ اللهِ، الذي هو من أعظم شعب الإيمان، بلا شك، يمنعُ من مواقعةِ هذه الفواحش[1].

11. الشكر والصبر:

ومن فوائد وثمرات الإيمانِ أنَّه يحمِلُ صاحبه على الشكرِ في حالة السرّاءِ، والصبرِ في حالةِ الضّراء، وكسب الخيرِ في كلِّ أوقاته، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «عجباً لأمر المؤمن إنَّ أمرَه كلَّه خيرٌ وليس ذلكَ لأحدٍ إلا للمؤمن، إنْ أصابتْه سرّاءُ شَكَرَ، فكان خيراً له، وإنْ أصابتْه ضرّاءُ صبرَ، فكانَ خيراً له»[2].

والشكرُ والصبرُ هما جِماعُ كلِّ خيرٍ، فالمؤمنُ مغتَنِمٌ للخيرات في كلِّ أوقاته، رابحٌ في كلِّ حالاته.

فيجتمع للمؤمن عند السرّاء نعمتان: نعمةُ حصولِ ذلك المحبوب، ونعمةُ التوفيق للشكر الذي هو أعلى من ذلك، وبذلك تتمُّ عليه النعمة.

---

(1) شجرة الإيمان ص(88).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الزهد والرقائق ، باب: المؤمن أمره كله خير (2999).

ويجتمعُ له عند الضّراء ثلاثُ نعم: نعمةُ تكفيرِ السيئات، ونعمةُ حصولِ مرتبة الصبر، التي هي أعلى من ذلك، ونعمةُ سهولةِ الضرّاء عليه، لأنّه متى عرفَ حصولَ الأجرِ والثوابِ والتمرن على الصبر هانت عليه وطأةُ المصيبةِ، وخفّ عليه حملها[1].

12. تأثيرُه على الأعمال والأقوال:

ومن فوائد وثمرات الإيمان أنَّ جميعَ الأعمال والأقوالِ إنّما تصحُّ وتكمُلُ بحسب ما يقومُ بقلبِ صاحبها من الإيمانِ والإخلاصِ، ولهذا ذكر الله هذا الشرطَ الذي هو أساسُ كلِّ عمل، مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الانبياء: 94] أي لا يُجحَدُ سعيُه، ولا يضيعُ عملُه، بل يُضاعفُ بحسب قوّة إيمانه، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا *﴾ [الإسراء: 19]. والسعيُّ للآخرةِ هو العملُ بكلِّ ما يقرِّبُ إليها، ويدني منها، من الأعمال التي شرعها الله على لسان نبيّه محمّدٍ صلى الله عليه وسلم، فإذا تأسَّستْ على الإيمان، ونبتتْ عليه، كان السعيُ مشكوراً مقبولاً مضاعفاً، لا يضيع منه مثقال ذرة.

وأما إذا فقَدَ العملُ الإيمانَ، فلو استغرق العاملُ ليلَه ونهارَه، فإنّه غيرُ مقبولٍ، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا *﴾ [الفرقان: 23] وذلك لأنها أُسِّست على غيرِ الإيمانِ بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، الذي روحه الإخلاصُ للمعبود، والمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً *الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا *أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيات رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ

---

[1] شجرة الإيمان ص(82).

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً *﴾ [الكهف: 103 ـ 105] فهم لما فقدوا الإيمانَ، وحلَّ محله الكفرُ باللهِ وآياته، حبطتْ أعمالُهم، وقال تعالى: (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [الانعام: 88] ولهذا كانت الردةُ عن الإيمان تحبِطُ جميعَ الأعمال الصالحة، كما أنَّ الدخولَ في الإسلامِ والإيمانِ يجبُّ ما قبله من السيئات وإن عظمتْ، والتوبةُ من الذنوبِ المنافية والقادحةِ فيه، والمنقصةِ له، تجبُّ ما قبلها[1].

13 ـ هداية الله إلى الصراط المستقيم:

ومن فوائد وثمرات الإيمان أنّه يهدي صاحبه إلى الصراط المستقيم، يهديه إلى علم الحق، وإلى العمل به، وإلى تلّقي المحابِّ والمسارّ بالشكرِ، وتلقّي المكارهِ والمصائبِ بالرضا والصبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: 9] وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: 11] هو الرجلُ تصيبُه المصيبةُ، فيعلمْ أنّها من عند اللهِ، فيرضى ويسلّمُ.

ومن ثمرات الإيمان أنّه يسلّي صاحبه عن المصائب والمكاره، التي كلُّ أحدٍ عُرضةٌ لها في كلِّ وقتٍ، ومصاحبةُ الإيمانِ واليقينِ أعظمُ مسلٍّ عنها، ومُهَوِّنٍ لها، وذلك لقوّة إيمانه، وقوّة توكله، وقوّة رجائه بثواب الله ربه، وطمعه في فضله، فحلاوةُ الأجرِ تخفّفُ مرارةَ الصبر، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ [النساء: 104] ولهذا تجد اثنين تصيبهم مصيبةٌ واحدةٌ، أو متقاربةٌ،

---

[1] شجرة الإيمان ص(69 ـ 70).

وأحدهما عنده إيمانٌ، والآخر فاقدُ له، تجدُ الفرقَ العظيمَ بين حاليهما، وتأثيرُها في ظاهرهما وباطنهما، وهذا الفرقُ راجعٌ إلى الإيمان، والعمل بمقتضاه[1].

14 . محبة الله والمؤمنين من خلقه:

ومن ثمراتِ الإيمان ولوازمه من الأعمال الصالحة ما ذكره الله بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا *﴾ [مريم: 96] أي: بسببِ إيمانهم وأعمالِ الإيمانِ يحبُّهم الله، ويجعلُ لهم المحبّةَ في قلوب المؤمنين، ومن أحبّه الله، وأحبّه المؤمنون من عباده، حصلتْ له السعادةُ والفلاحُ، والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين، من الثناء والدعاء له حياً وميتاً، والاقتداء به، وحصول الإمامةِ في الدين، وهذه أيضاً من أجلِّ ثمراتِ الإيمان، أن يجعلَ الله للمؤمنين ـ الذين كمّلوا إيمانهم بالعلم والعمل ـ لسانَ صدقٍ، ويجعلهم أئمةً يهدون بأمرِه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ *﴾ [السجدة: 24] فبالصبر واليقين اللذين هما رأسُ الإيمان وكماله نالوا الإمامةَ في الدِّين[2].

15 . رَفْعُ اللهِ مكانتهم:

ومن فوائد وثمرات الإيمان رفع مكانة أهله عند الله عزَّ وجلَّ وعند خلقه قال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11] فهم أعلى الخلق درجةً عند الله وعند عباده في الدنيا والآخرة، وإنّما نالوا هذه الرفعة، بإيمانهم الصحيحِ، وعلمهم، ويقينهم، والعلم واليقين من أصولِ الإيمانِ[3].

---

[1] شجرة الإيمان ص(76).
[2] المصدر نفسه ص(80).
[3] المصدر نفسه ص(76).

هذه بعضُ الفوائدِ والثمرات من الإيمان الصحيح، وممّا تقدّم يتبيَّنُ لنا أنَّ شجرة الإيمان من أبركِ الأشجارِ وأنفعِها، وأدومها، وأنَّ عروقها وأصولها وقواعدها: الإيمانُ وعلومُه ومعارفُه، وساقُها وأفنانُها: شرائعُ الإسلام، والأعمالُ الصالحةُ، والأخلاقُ الفاضلةُ المؤيَّدةُ والمقرونةُ بالإخلاص لله، والمتابعةُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم: وأنَّ ثمارها وجناها الدائم المستمر: السمتُ الحسنُ، والهدي الصالح، والخلقُ الجميلُ، واللهجُ بذكر اللهِ وشكره، والثناءُ عليه، والنفعُ لعباد الله بحسب القدرة، نفعُ العلم والنصح، ونفعُ الجاه والبدن، ونفع المال، وجميعُ طرق النفع، وحقيقةُ ذلك كلّه: القيامُ بحقوق الله، وحقوق خَلْقِهِ، وأنَّ الفضلَ في ذلك كلّه لله وحدَه، والمنّة كلُّها له سبحانه: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *﴾ [الحجرات :17] .

وقال أهل الجنة بعد ما دخلوها، وتبوّؤوا منازلهم، معترفين بفضل ربهم العظيم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ [الاعراف :43] فجمعَ في هذه الآية بين الإخبارِ باعترافهم وثناءهم على الله بنعمته وفضله، حيث وصلوا إلى المنازل العالية، وبَيْنَ ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك بمنّة الله عليهم به، وهو العمل الصالح الذي هو الإيمان وأعماله[1].

إنَّ مِنْ شروطِ التمكين لهذه الأمة تحقيقُ الإيمانِ بكافّة معانيه، وبكافّة أركانه، وممارسة العمل الصالح بكلِّ أنواعه، والحرصُ على كلِّ أنواع الخير وصنوف البِرِّ، وتحقيقُ العبودية الشاملة، ومحاربةُ الشرك بكل أشكاله وأنواعه وخفاياه[2].

---

[1] شجرة الإيمان ص(94).

[2] فقه النصر والتمكين في القران الكريم ص(161).

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *﴾ [النور :55. 56]

* * *

المبحث السابع

نواقض التوحيد والإيمان

أولاً ـ الشرك: حقيقته، وأقسامه، وما يتعلق بكل قسم من أحكام.

ثانياً ـ الكفر: حقيقته، وأقسامه وما يتعلق بكل قسم من أحكام.

ثالثاً ـ النفاق: حقيقته، وأقسامه، وأبرز صفات المنافقين.

رابعاً ـ الردة: تعريفها، وأنواعها، وأحكامها.

خامساً ـ الفسق: تعريفه، وأقسامه.

سادساً ـ المعاصي: تعريفها، وأقسامها، وحكم مرتكب الكبيرة.

المبحث السابع : نواقض التوحيد والإيمان

أولاً ـ الشرك حقيقته وأنواعه وما يتعلق بكل نوع من أحكام:

- **تعريف الشرك وبيان حقيقته:**

إنَّ الحديثَ عن التوحيد يستلزِمُ الحديثَ عمّا يناقضه من الشرك، لأنّه كما قيل (من الكامل):

.... وبضدها تتميّز الأشياءُ

والشرك: هو أن تجعلَ للهِ ندّاً أو شريكاً في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه، أوصفاته، وهو المبطلُ للأعمال، والمانعُ لقبولها قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [الانعام :88] .

وحدُّه: أن يصرفَ العبدُ نوعاً من أنواع العبادةِ لغير الله، فكلُّ اعتقادٍ، أو قولٍ، أو عملٍ ثبتَ أنَّه مأمورٌ بهِ مِنَ الشارع، فَصَرْفُهُ للهِ وحدَه توحيدٌ وإيمانٌ وإخلاصٌ، وصرفُه لغيره شركٌ وكفرٌ[1].

فحقيقة الشرك بالله: أن يُعْبَدَ المخلوقُ كما يُعْبَدُ الله، أو يعظَّمَ كما يُعَظَّمَ الله، أو يُصْرَفَ له نوعٌ من خصائص الربوبية والألوهية.

ولقد وردت النصوصُ الكثيرةُ من الكتاب والسنة في التحذير من الشرك، وبيان خطره، وأنَّه أعظمُ ذنبٍ عُصِيَ اللهُ بِهِ، وأنَّه لا أضلَّ مِنْ فاعله، وأنَّه مخلَّدٌ في النار أبداً، لا نصيرَ له ولا حميم، ولا شفيعَ يطاع، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا *﴾

---

[1] القول السديد في مقاصد التوحيد للسعدي ص(31).

[النساء: 48] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا *﴾[النساء: 116] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ *﴾ [الحج: 31] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ *﴾[الزمر: 65] .

إنَّ الشركَ هو الذنبُ الوحيدُ المتميِّز عن بقيةِ الذنوب بعدم المغفرةِ لصاحبه إذا ماتَ ولم يَتُبْ منه، وأمّا بقيةُ الذنوبِ فإنَّ صاحبَها إن ماتَ ولم يتبْ منها، فإنَّه تحتَ مشيئةِ الله، إنْ شاءَ عذّبه، وإنْ شاءَ غفرَ له.

إنَّ الذنوب التي هي دونَ الشرك جعلَ الله لمغفرتها أسباباً كثيرة، كالحسنات الماحية، والمصائبِ المكفّرة في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضِهم لبعضٍ، وشفاعة الشافعين، ومِنْ دون ذلك كلِّه رحمتُه التي خَصَّ بها أهلَ الإيمانِ والتوحيد، وهذا بخلاف الشركِ، فإنَّ المشرك سدَّ على نفسِهِ أبوابَ المغفرة، وأغلقَ دونه أبوابَ الرحمة، فلا تنفعه الطاعاتُ دونَ التوحيد، ولا تفيدُه الشدائدُ والمحنُ شيئاً.

إنَّ الشرك باللهِ تمجُّه الفِطَرُ السليمة، ولقد بقي البشرُ بعد آدم قروناً طويلةً وهم أمةٌ واحدةٌ على التوحيد والهُدى، ثم أدخلتْ عليهم الشياطينُ الشرورَ المتنوّعة بطرق كثيرة، فكان قومُ نوحٍ لما مات منهم أناسٌ صالحون، وحزنوا عليهم، جاءهم إبليسُ، وأمرهم أن يصوّروا تماثيلهم ليتذكّروا أحوالهم، فكان هذا بابُ الشرِّ العظيم، فلمّا ماتَ الذين صوروهم لهذا المعنى خلفَ مِنْ بعدِهم خَلْفٌ قلّ فيهم العلمُ، واستفزّهم الشيطانُ وأغواهم، حتى أوقعهم في الشرك.

ثم بعث الله فيهم نوحاً عليه السلام يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته وكمال أخلاقه، فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *﴾ [الاعراف :59] إلا أنهم عصوه، وما آمن معه إلا قليل.

إنَّ الله تعالى خلق الناسَ على فطرةِ التوحيدِ، ثم استطاعتِ الشياطينُ أن تميلَ بالناسِ، وتنحَرِفَ بهم نحو الوثنيةِ المظلمةِ والشركِ العظيم، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة :213] أي إنَّ الناس كانوا على ملّةِ آدم عليه السلام حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام، فكان أوّل رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض[1].

إنَّ الأمة الإسلامية التي رضيْت باللهِ رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم رسولاً، عليها أن تحرصَ على تحقيق التوحيد، ومحاربةِ الشرك، لأنها تعلمُ علمَ اليقين أنَّ مِنْ شروطِ التمكين لها تحقيقَ التوحيد وتهذيبَه، وتصفيتَه من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدعِ القوليةِ والاعتقاديةِ، والبدع الفعلية والعملية، ومن المعاصي، وذلك بكمالِ الإخلاص للهِ في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامةِ مِنَ الشركِ الأكبرَ المناقض لأصلِ التوحيد، ومن الشركِ الأصغرِ المنافي لكمالِهِ، وبالسلامة من البدع[2]، وعليها أن تحاربَ شرك القبور، ووكذلك شركَ القوانين الوضعية المخالفة للشريعة الإسلامية، وعليها أن تدعوَ إلى إفراد العبودية لله وحده في جميع شؤون الحياة الإنسانية، ولسانُ حالها ومقالها قولُ الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ

[1] تفسير ابن كثير (250/1).

[2] الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده.

وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *﴾ [الانعام: 162-163] .

- **أقسام الشرك:**

ينقسمُ الشركُ إلى قسمين:

القسم الأول ـ الشرك الأكبر: هو الذي يخرِجُ صاحبَه من ملّةِ الإسلام، ويوجبُ له الخلودَ في جهنم، ويحرّمُ عليه الجنةَ، هذا إذا ماتَ على الشرك.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ *﴾ [المائدة: 72] .

والشركُ الأكبرُ أنواعٌ منها:

أ ـ شِرْكُ الدعاء: وهو اللجوءُ إلى غيرِ اللهِ ودعائه وقصدِه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ *﴾ [العنكبوت: 65]. فهم يوحّدون الله في حالِ الضيق والشدّة، وإذا نجّاهم أشركوا، ودعوا غيره.

ب ـ شِرْكُ النّيةِ والإرادةِ والقصدِ: وهو أن يعملَ العملَ ممّا يرادُ به وجهَ اللهِ عزَّ وجلَّ يعملُه لغيرِ اللهِ، ويقصدُ به مراداً آخر، فهذا شركٌ أكبر، قال عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ *أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [هود: 15 -16] قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ

جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا *وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا *كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا *﴾[الإسراء: 18 . 20] .

ج . شِرْكُ الطاعةِ: وهو طاعةُ الأحبار والرهبانِ وغيرِهم من البشرِ والعلماءِ والسلاطينِ والأمراءِ في تحريم ما أحلَّ الله، أو إباحة ما حرَّم الله، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة :31] .

عن عَدِيّ بن حاتم رضي الله عنه أنَّه لما بلغته دعوةُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فرَّ إلى الشام، وكان تنصَّر في الجاهلية، فأُسِرَتْ أختُه وجماعةٌ من قومه، ثم مَنَّ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على أخته، وأعطاها، فرجعتْ إلى أخيها، فرغَّبته في الإسلامِ، وفي القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم عديٌّ المدينةِ، وكان رئيساً في قومه طيء، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدّث الناسُ بقدومه، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عُنِقِ عَدِيّ صليبٌ من فضّة، وهو يقرأ هذه الآية: قال: فقلت: إنّهم لم يعبدوهم. فقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، إنّهم حرَّموا عليهم الحلالَ، وأحلُّوا لهم الحرامَ، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عدي ما تقول؟ أيفرّكُ أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلمُ شيئاً أكبرَ من الله؟ ما يفرُّك؟ أيفرّك أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل تعلمُ من إلهٍ إلاَّ الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلمَ، وشهدَ شهادةَ الحقّ. فلقد رأيتُ وجهه استبشر ثم قال: «إنَّ اليهودَ مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضالون»[1].

---

[1] أخرجه الترمذي في جامعه في كتاب: القراءات ، باب: ومن سورة فاتحة الكتاب (2953) وباب: ومن سورة التوبة (3095) وأخرجه أحمد في المسند (4/ 379) وفيه أنّ الأسيرة هي عمّةُ عدي لا أخته ، وقوله: (أيفرُّك) أي

د ـ شِرْكُ المحبّة: بأن يصرفَ المحبَّة لغيرِ الله تعالى مما يجب أن يكونَ لله، ومن أدلته قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: 165] وقوله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يحبُّه إلاَّ لله، وأنْ يكرَهَ أن يعودَ إلى الكفرِ بعدَ أن أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النارِ»[1].

- أمثلة للمشرك للتنفير من حاله:

وقد اهتمَّ القرآن الكريم بضربِ الأمثال للتنفيرِ من حال المشرك وهذه بعض الأمثال:

المثال الأول ـ مَثَّلَ المشركَ بالساقط من السماء: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ *﴾ [الحج: 31]

يحثُّ الله سبحانه عبادَه على إخلاصِ التوحيد، وإفرادِه بالطاعةِ والعبادةِ دون الأوثان، ويذكرُ قبحَ الشركِ وبطلانَه بأوضح الأمثلة، لأنَّ مَنْ يشركُ باللهِ شيئاً من دونه فمثله في بعدِهِ عن الهُدى وإصابةِ الحقِّ، وهلاكِهِ وذهابِهِ عن ربِّه مثل مَنْ خرَّ من السماءِ، فتخطّفه الطيرُ، فهلك، أو هوت به العواصفُ في مكانٍ بعيدٍ، فهذا مثلٌ ضربه الله لمن أشركَ باللهِ في بعدِهِ من الهدى وهلاكه[2].

المثال الثاني ـ مثَّل المشرك بالحيران في الأرض: قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ

يحملك على الفرار.

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب حلاوة الإيمان (16) ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان خصالٍ من اتصفّ بهن وجد حلاوة الإيمان (43).

[2] تفسير الطبري (155/17) ، الشرك في القديم والحديث لأبي بكر محمد زكريا (1370/2).

الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ [الانعام: 71] هذا مثلٌ ضربه الله للآلهة، ومن يدعو إليها، وللدعاة الذين يدعون إلى الله، كمثل رجلٍ ضلَّ الطريق، إذ ناداه منادٍ: يا فلان ابن فلان، هلمَّ إلى الطريقِ، وله أصحابٌ يدعونه: يا فلان، هلمَّ إلى الطريق، فإنِ اتبعَ الداعيَ الأول انطلقَ به، حتى يلقيه في الهلكة، وإنْ أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق[1].

المثال الثالث . مثَّل المشرك بالعبد المملوك لجماعة كثيرين: قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾[الزمر: 29] هذا مثلٌ ضربه الله سبحانه وتعالى للمشرك والموحّد، فالمشركُ بمنزلةِ عبدٍ يملكه جماعةٌ متنازعون، مختلفون متشاحنون، والرجلُ المشاكِسُ: الضيّقُ الخلق، فالمشرِكُ لما كان يعبد الهةً شتّى شُبِّهَ بعبدٍ يملكه جماعةٌ متنافسون في خدمته، لا يمكنه أن يبلغَ رضاهم أجمعين. والموحّدُ لما كان يعبدُ الله وحدَه، فمثله كمثلِ عبدٍ لرجلٍ واحدٍ، قد سَلِمَ له، وعَلِمَ مقاصدَه، وعرفَ الطريقَ إلى رضاه، فهو في راحةٍ من تشاحُنِ الخلطاء فيه، بل هو سالِمٌ لمالِكِه من غيرِ تنازعٍ فيه، مع رأفةِ مالِكِه به، ورحمتِهِ له، وشفقتِهِ عليه، وإحسانِهِ إليه، وتولّيه لمصالحِهِ، فهل يستوي هذان العبدان؟ وهذا من أبلغِ الأمثالِ، فإنَّ الخالصَ لمالكٍ واحدٍ يستحقُّ مِنْ معونته وإحسانِهِ والتفاتِهِ إليه وقيامِهِ بمصالِحِه ما لا يستحقُّه صاحبُ الشركاءِ المتشاكسين، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون[2].

---

[1] تفسير الطبري (236/7).

[2] أعلام الموقعين (187/1).

القسم الثاني ـ الشرك الأصغر: وهذا النوعُ لا يخرِجُ صاحبه من الملة، ولكنّه يُنْقِصُ من توحيده، وهو وسيلةٌ للشرك الأكبر، وهو ينقسِمُ إلى نوعين: ظاهر وخفي.

أ ـ فالظاهِرُ من الشرك الأصغر: مكوَّنٌ من ألفاظ، وأفعال.

فمنَ الألفاظِ: الحَلفُ بغير الله، وقولُ الإنسانِ: لولا الله وأنتَ، أو هذا مِنَ الله ومِنْكَ، ما شاء الله وشئتَ، فإنَّ هذا يقتضي المساواةَ بين الله وبين العبد، وهذا محالٌ، ولكنّ الصحيح ألاّ يحلف إلا بالله عزَّ وجلَّ، وأن يقول: لولا الله ثم أنت، أو هذا من الله ثم منك، وما شاء الله ثم شئت.

ومن الأفعال: لبس الحلقةِ والخيطِ، وتعليقِ التمائم خشيةَ العين أو الجن، فمن فعل ذلك معتقداً أنها سببٌ يستدفع بها البلاء، وأن الدافع للبلاء هو الله وحده، فقد أشركَ شركاً أصغر، وإذا فعل ذلك معتقِداً أنَّ هذه الأشياء تدفعُ البلاءَ بعد نزولِهِ، أو تمنعه قبلَ حلوله، فقد أشركَ شركاً أكبر، حيث اعتقدَ شريكاً مع الله في الخلق والتدبير[1].

ب ـ وأما الخفي من الشرك الأصغر: فهو شِركُ الإراداتِ والمقاصدِ والنيّاتِ، وذلك مثل الرياء، والسمعة، ومثال ذلك أن يعملَ المسلمُ عملاً، الأصلُ فيه أنَّه لله تعالى، ثم بعدَ ذلك يدخِلُ فيه شيئاً من الرياء أو السمعة، فيريدُ مِنَ الناس الثناءَ عليه، كأنْ يقرأَ مسلمٌ القرآن لله تعالى تقرُّباً له، وعندما يرى الناسَ تنصِتُ له، يُلحِّن في صوته ابتغاءَ الثناءِ عليه، أو يتصدَّقُ إنسانٌ بمالٍ ثم يحبُّ أن يُمدَحَ ويُثْنَى عليه، أو يُحَسِّنُ الرجلُ صلاته التي يتقرَّبُ بها إلى الله لما يرى من نظر الناس إليه، وغير ذلك من الأعمالِ والعباداتِ التي تُصْرَفُ لله تعالى ابتداءً. وإلاّ لو صرف ابتداءً لغير الله لأصبحَ ذلك

---

[1] عقيدة أهل السنة والجماعة للقحطاني ص(142).

شركاً أكبرَ يخرجُ من الملة، ولكن بعدَ البَدْءِ فيها يدخلُ عليه حُبُّ المدحِ والثناءِ على فعلِهِ وعبادتِهِ.

وعاقبةِ الرياءِ الذي يخالِطُ العملَ هو إبطالُ أجرٍ وثوابِ هذا العمل، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *﴾ [الكهف :110] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أخوفُ ما أخافُ عليكم الشركَ الأصغرَ» فسئل عنه فقال: «الرياء»[1].

إنَّ الشركَ في الإراداتِ والنيَّاتِ بحرٌ لا ساحلَ له، وقلَّ مَنْ ينجو منه، فمن أرادَ بعملِهِ غيرَ وجه الله، ونوى به شيئاً غيرَ التقرّب إليه، وطلب الجزاءَ منه، فقد أشركَ في نيته وإرادته.

والإخلاصُ: أن يخلصَ العبد للهِ في أفعاله وأقوالِهِ وإرادتِهِ ونيّته، وهذه هي الحنيفيَّةُ ملةُ إبراهيم، التي أمرَ الله بها عبادَه كلَّهم، ولا يَقْبَلُ من أحدٍ غيرَها، وهي حقيقةُ الإسلام، وهي ملَّةُ إبراهيم عليه السلام[2].

والعبدُ المؤمن يخشى على نفسه مِنَ الرياء، وأن تصيرَ أعمالُه هباءً منثوراً، فقد قال الله تعالى عن أقوام: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا *﴾ [الفرقان :23] .

وقال الفُضيل في هذه الآية: قال: عملوا ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ*﴾ ، وحسبوا أنّها حسناتٍ، فإذا هي سيئاتٌ[3].

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده (428/5) ، (429/5). قال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (102/1): رجاله رجال الصحيح

[2] العقيدة الصافية ص(406).

[3] المحجة في سير الدُّلجة ، لابن رجب الحنبلي ص(90).

وقريبٌ من هذا أن يعملَ الإنسانُ ذنباً يحتقِرُه، ويستهين به، فيكونُ هو سببَ هلاكه، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ *﴾ [النور :15] .

وقال بعض الصحابة: إنَّكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشعرِ، كنا نعدها على عهدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقاتِ[1].

وأصعب من هذا مَنْ زُيِّنَ له سوءُ عمله فراه حسناً، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً *الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا *﴾ [الكهف:104 . 105] قال سفيان بن عُيينة: لما حضرتْ محمّد بن المنكدر الوفاةُ جزعَ، فَدَعوا له أبا حازم، فجاء فقال له ابن المنكدر: إنَّ الله يقول: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ *﴾ [الزمر :47] وأخافُ أن يبدو لي مِنَ الله ما لم أكنْ احتسبُ، فجعلا يبكيان جميعاً، فقال له أهله: دعوناك لتخفِّفَ عليه فزدته، فأخبرهم بما قال[2].

وقال الفضيل بن عياض: أُخبرت عن سليمان التَّيمي أنه قيل له: أنتَ أنتَ ومَنْ مِثْلُك؟ فقال: مه، لا تقولوا هذا، لا أدري ما يبدو لي من الله، سمعت الله يقول: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ *﴾ [الزمر :47][3]. وكان سفيان الثوري يقول عند هذه الآية: ويلٌ لأهلِ الرياءِ من هذه الآية، وهذا كما في حديث الثلاثة الذين هم أوَّلَ مَنْ تُسَعَّرُ بهم النارُ؛ العالِمُ، والمتِصَدِّقُ، والمجاهِدُ[4].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الرقاق ، باب: ما يتقى من محقرات الذنوب (6492) عن أنس رضي الله عنه.

[2] صفوة الصفوة (2/ 167) ابن الجوزي.

[3] المحجة في سيرة الدلجة لابن رجب ص(92).

[4] سبق تخريجه ص(105).

وكذلك من عمل أعمالاً صالحة، وكانت عليه مظالم، فهو يَظُنُّ أنَّ أعماله تنجيه، فيبدو له ما لم يكن يحتسب، فيقتسمُ الغرماءُ أعماله كلَّها، ثم يفضُلُ لهم فضلٌ، فيطرح من سيئاتهم عليه، ثم يُطرَح في النار[1].

وقد يناقَشُ الحسابَ فيُطْلَبُ منه شُكْرُ النعم، فتقوم أصغرُ النعم فتستوعِبُ أعماله كلَّها، وتبقى بقيةُ النعم، فيُطالَبُ بشكرِها فيعذَّبُ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ نُوْقِشَ الحسابَ عُذِّبَ» وفي روايةٍ: «هَلَكَ»[2].

وقد تكون له سيئاتٌ تحبِطُ بعضَ أعماله أو أعمالَ جوارحه سوى التوحيد، فيدخلُ النارَ. وقد يحبطُ العملُ بافةٍ من رياءٍ خفيٍّ، أو عُجُبٍ به، ونحو ذلك، ولا يشعر به صاحبُه[3].

قال ضيغم العابد: إنْ لم تأتِ الآخرة المؤمنَ بالسرورِ لقد اجتمع عليه الأمرّان، هَمُّ الدنيا وشقاءُ الآخرة.

فقيل له: كيف لا تأتيه الآخرة بالسرورِ، وهو يتعبُ في دار الدنيا ويدأبُ؟.

فقال: كيف بالقبولِ، كيف بالسلامةِ؟ ثم قال: كم مِنْ رجلٍ يرى أنَّه قد أصلحَ عملَه، يُجمَعُ ذلك كلُّه يومَ القيامة، ثم يضربُ به وجهُهُ.

ومن هنا كان بعضُ الصالحين يقلقون من هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ*﴾ [المائدة: 27] .

---

[1] هو حديث المفلس وقد سبق تخريجه.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الرقاق ، باب: من نوقش الحساب عذب (6536) بلفظ «عُذب» ، وكذلك مسلم في صحيحه ، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب: إثبات الحساب (2876). وأخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: تفسير القران ، باب: {} [الانشقاق: 8]. {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا *} بلفظ «هلك». وكذلك مسلم في صحيحه. كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب: إثبات الحساب (2876).

[3] المحجة في سير الدلجة ص(96).

ولذلك فالمسلمُ لا يثقُ بكثرةِ العمل، لأنَّه لا يدري أيقبل منه أم لا؟ ولا يأمنُ ذنوبه، فإنه لا يدري هل كفَّرت عنه أم لا؟ لأنَّ الأعمالَ مُغَيَّبةٌ عن العبيدِ، لا يدرون ما اللهُ صانعٌ بهم[1].

ومن تأمَّلَ هذا حقَّ التأمل أوجبَ له الخوفَ والخشيةَ والقلقَ، فإنَّ ابنَ آدم معرَّضٌ لأهوالٍ عظيمةٍ من الموتِ، والقبرِ، وأهوالِ البرزخِ، وأهوالِ الموقفِ، كالصراطِ، والميزانِ، وأعظمُ من ذلك الوقوفُ بَيْنَ يدي الله عزَّ وجلَّ، ودخولُ النار، ويخشى على نفسه الخلود فيها، بأن يُسلَبَ إيمانُه عندَ الموت، ولم يأمن المؤمنُ شيئاً من هذه الأمور، قال تعالى: ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ *﴾ [الاعراف :99] .

قال الشاعر (من الوافر):

أمـــا واللهِ لـــو عَلِـــمَ الأنامُ ... لِمَـا خُلِقُـوا لما غَفلُـوا ونامُـوْا

لقـد خُلِقُـوا لِمَـا لَـوْ أَبْصَـرَتْهُ ... عيـونُ قلـوبهم تاهُـوا وهـامُوا

ممـــاتٌ ثم قـــبرٌ ثم حَشْـــرٌ ... وتـــوبيخٌ وأهـــوالٌ عِظَـــامُ

ليـومِ الحشـرِ قَـدْ عَمِلَـتْ رجـالٌ ... فَصَـلُّوا مِـنْ مخافتِـهِ وَصَـامُوا

ونحـــنُ إذا نُهينـــا أو أُمِـــرْنَا ... كأهـلِ الكَهْـفِ أيقـاظٌ نِيَـامُ[2]

● الفرقُ بين الشركِ الأكبرِ والأصغرِ:

الشركُ الأكبر يخرجُ صاحبه من الإسلام، بخلافِ الشرك الأصغر.

الشرك الأكبرُ يحبطُ جميعَ الأعمال، أمّا الشركُ الأصغرُ فإنَّه يحبطُ العملَ الذي خالطَه فقط.

---

[1] المصدر نفسه ص(98).

[2] المحجة في سير الدلجة ص(101).

الشركُ الأكبرُ يبيحُ الدمَ والمالَ، والشِّرْكُ الأصغرُ ليس كذلك.

الشركُ الأكبرُ يخلِّد صاحبَهُ في النار، أمّا الشرك الأصغر فلا يخلّد صاحبَه في النار،وإن دخلها.

الشركُ الأكبر يوجِبُ المعاداةَ، وقطعَ الموالاة، فلا يجوزُ موالاة المشرك مهما كانت قرابته. أمَّا الشركُ الأصغرُ فلا يقطعُ الموالاةَ على الإطلاق، وإنّما يُوَالى بقدر ما لديه من التوحيدِ، ويُعادى بحسب ما فيه مِنَ الشرك[1].

- **آثارُ الشرك:**

إنَّ الشركَ الذي يقعُ فيه الإنسانُ له اثاره الوبيلةُ في دنياه وآخرته، سواءٌ أكان الواقع فيه فردٌ أم جماعةٌ، فمن تلك الآثار: إطفار نور الفطرة، والقضاء على منازع النفس الرفيعة، والقضاءُ على عزَّةِ النفس، ووقوعُ صاحبه في العبوديّةِ الذليلةِ، وتمزيقُ وحدةِ النفس البشرية، وإحباطُ العمل[2].

ثانياً ـ الكفر حقيقته وأنواعه وما يتعلق بكل نوع من أحكام:

- **تعريف الكفر وحقيقته:**

الكفرُ لغةً تغطيةُ الشيء، وسُمِّي الليلُ كافراً لتغطيته كلَّ شيءٍ[3]، وذكرَ أهلُ التفسير أنَّ الكفر في القرآن على خمسةِ أوجهٍ:

أحدهما: الكفر بالتوحيد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ *﴾[البقرة: 6] .

---

[1] عقيدة أهل السنة والجماعة ص(143).

[2] فقه النصر والتمكين ص(302).

[3] التبيان لعلاقة العمل بمسمى الإيمان ، علي سوف ص(249).

والثاني: كفر نعمةٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ *﴾ [البقرة :152] .

والثالث: التبرؤ، ومنه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت :25]، أي يتبرّأ بعضُكم من بعضٍ.

والرابع: الجحود، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة :89] .

والخامس: التغطية: ومنه قولُه تعالى: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد :20] يريدُ الزرّاع الذين يغطّون الحبَّ[1].

وأما الكفر اصطلاحاً: فهو الإنكارُ المتعمَّدُ لما جاء به محمّد صلى الله عليه وسلم، أو بعضَ ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ممّا عُلِمَ من دينه بالضرورة[2].

والكفر والإيمان ضدّان، متى ثبتَ أحدُهما ثبوتاً كاملاً انتفى الآخر[3].

والكفرُ ليس حقيقةً واحدةً، ولا هو شعبةٌ واحدةٌ، فلا ينحصِرُ في التكذيبِ أو الاعتقادِ القلبي، بل هو شُعَبٌ متعدِّدةٌ، ومراتبُ متفاوتةٌ، كما أنَّ ما يقابِلُه ـ وهو الإيمان ـ شعبٌ متعدِّدةٌ كما سبق ذكره.

ويقعُ الكفرُ بالتكذيبِ والجحودِ، والإعراضِ، والتكبّر عن أوامرِ اللهِ[4].

وكما أنَّ الإيمان ذو شعب دلَّ عليها حديثُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم المتفق عليه في قوله صلى الله عليه وسلم: «الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ أو بضع وستون شعبةً: فأفضلها

---

[1] نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (119/2 ـ 021).

[2] عقيدة أهل السنة والجماعة ص(49).

[3] الإرشاد إلى معرفة الأحكام للسعدي ص(203 ـ 204).

[4] التبيان لعلاقة العمل بمسمى الإيمان ص(256).

قول شهادةُ أنَّ لا إله إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان»[1]. فكذلك الكفرُ له شعبٌ أيضاً.

- **. أقسام الكفر:**

ينقسم الكفر إلى قسمين:

القسم الأول: كفرٌ أكبر يناقِضُ الإيمان، ويوجب الخروج من الملة، والخلودَ في النار، وهو على خمسة أنواع:

النوع الأول . كفر التكذيب: وهو اعتقادُ كذب الرسل، وهذا قليلٌ جداً، لأنَّ الله أيَّدَ رسلَه بالآيات، وأعطاهم من المعجزات ما يقومُ به دليلاً على صدقهم، وقيامِ الحجّةِ على أممهم، قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14] وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ *﴾ [الانعام: 33] وإنَّما يلجأ بعضُ الكفَّار إلى تكذيبِ الرسلِ بألسنتهم فقط، وليس من قلوبهم.

النوع الثاني . كفر الإباء والاستكبار: وهو المسمّى بالكفر الإبليسي، فإنَّ إبليسَ إنَّما جحدَ أمرَ الله وأنكره عناداً واستكباراً، وهذا النوع يقعُ من معظم الكفار، حيث يقولون: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ *﴾ [يس: 15] وكما يقول قوم فرعون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ *﴾ [المؤمنون: 47][2].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (35). وأخرجه البخاري في صحيحه مختصراً ، كتاب: الإيمان ، باب: أمور الإيمان (9).

[2] مدارج السالكين (346/1).

النوع الثالث ـ كفر الإعراض: وذلك بأنْ يُعْرِضَ بسمعه وقلبِهِ عن الرسول صلى الله عليه وسلم، لا يصدّقه، ولا يكذّبه، ولا يواليه، ولا يعاديه، ولا يصغي له، ولا إلى ما جاء به البتَّةَ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ *﴾ [الاحقاف :3] .

النوع الرابع ـ كفرُ الشكِّ: بأنْ لا يجزِمَ بصدقِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ولا يكذّبه، وإنما يشكُّ في ذلك، أو يشك في القيامة، ومنْ هذا الكفرِ كفرُ صاحِبِ الجنّة والبستانِ الذي غرّه ما عنده من الرزق، وفقدَ الإيمانَ باللهِ واليومِ الآخر، قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا *وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا *قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً *لَكِنَّ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا *﴾ [الكهف :35 ـ 38] فلقد عبّر عن عقيدته في اليوم الآخر بقوله: هكذا على سبيل الشك وعدم ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُّ إِلَى رَبِّي﴾، فوقع في الكفر، كما قال له صاحبه وهذا هو مصيرُ أصحاب القلوبِ المريضة والعياذ ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾

النوع الخامس ـ كفر النفاق: وهو إظهارُ الإيمانِ باللسان، وإخفاءُ الكفرِ والتكذيب في القلبِ، وهو النفاق الأكبر، وهذا النوع من أشدِّ أنواعِ الكفرِ خطراً على الإسلام والمسلمين، وأصحابُ هذا النفاق يتغلغون في صفوف المسلمين، ويحاولون تفريقَ الكلمة وتمزيقَ الأمة، ودليله قوله تعالى:(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ *﴾ [البقرة :8 ـ 9][1].

[1] العقيدة الصافية ص(397).

القسم الثاني: كفر أصغر: وهذا لا ينافي أصلَ الإيمان، ولا يذهب به بالكلية، وإنّما ينقص كماله، ويصبح الموصوف به مذموماً شرعاً، وإن بقيتْ أحكامُ الإسلام تجري عليه، لبقاء أصل الإيمان به[1]، وهو كلُّ ذنب وردَت تسميتُه في الكتاب والسنّةِ كفراً، وهو لا يصلُ إلى حَدِّ الكفر الأكبر، وهذا النوع يوجبُ استحقاقَ الوعيد دونَ الخلودِ في النار، ومثال ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «سبابُ المسلمِ فسوقٌ وقتالُه كفرُ»[2]. فإنَّ الكفرَ هنا معناه الكفرُ الأصغرُ الذي لا يخرجُ من الملّة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ *﴾[الحجرات: 9] فقد سمّاهم الله مؤمنين مع اقتتالهم[3].

- **إطلاق حكم الكفر، وشروط التكفير، وموانعه، والتوبة منه:**

1 . إطلاقُ حكم الكفر: ليس كلُّ مَنْ عملَ عملاً أو قال قولاً كفرياً يكون كافراً، إلا إذا وُجِدَت الشروطُ في حقِّ ذلك المعيَّن، وانتفت الموانعُ التي تمنع استحقاقه لذلك الحكم، فقد يقولُ الإنسان الكفرَ أو يعملُه باجتهادٍ أو خطأً ولا يكفُرُ به، وذلك لما يترتَّب على ذلك من الأحكام الشرعية، كإهدارِ دمه، وزوالِ عصمة ماله، وقطع الميراث بينه وبين أولاده، وتحريمِ زوجته عليه، وعدمِ حلِّ ذبيحته، وعدمِ جوازِ تغسيلِه والصلاةِ عليه ودفنِهِ في مقابر المسلمين، وعدم جوازِ الاستغفارِ له بعد موته، ولورودِ

---

[1] عقيدة أهل السنة والجماعة ص(51).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (48) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان قول النبي صلى الله عليه وسلم: «سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر» (64).

[3] عقيدة أهل السنة والجماعة ص(51).

الوعيد الشديد على مَنْ أطلقَ كلمة الكفر على مُسلمٍ، ولم يكن كذلك، ففي الحديث: «أيما رجلٍ قالَ لأخيه يا كافرُ فقد باءَ بها أحدُهما»[1].

2 . شروط التكفير:

بيّن علماءُ المسلمين بأنَّ الشخص المعيّن لا يكونُ كافراً حلالَ الدمِ والمالِ إلا إذا تحققت فيه شروطٌ عدة، وانتفت عنه موانعُ، حينئذٍ يجوزُ الحكم عليه بالكفر، أما إذا انتفى أيُّ شرطٍ، أو وُجِد أيُّ مانع، فلا يجوزُ أن يحكمَ عليه بالكفر، وليس معنى هذا إعفاءَه من العقوبة تماماً، بل يُعاقَبُ على حسب حاله، إنّما الممنوعُ الحكمُ عليه بالكفر، لا مطلقُ العقوبةِ.

هناك شروطٌ ثلاثةٌ لا بدَّ من اجتماعها في من عمل عملاً يستحقُّ عليه الوعيد واللعن والكفر، وإذا سقطَ شرطٌ منها فيمتنع لعنُ الشخصِ أو تكفيرُه، وهذه الشروط هي:

الشرط الأول . العلم: فالله سبحانه وتعالى لم يشرع العقوبةَ قبل إقامةِ الحجّة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً *﴾ [الإسراء: 15] وقال تعالى: ﴿رُسُلاً وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *﴾ [النساء: 165] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتنَا﴾ [القصص: 59] وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك: 8 . 9] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الأدب ، باب: من كفَّر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (6104) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر (60).

آياتكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى *﴾[طه: 134] وهذه النصوصُ الربانية تفيدُ أنَّ الله تعالى لا يؤاخِذُ عبادَه إلاّ بعدَ قيام الحجة عليهم، وعِلمهم بالحقِّ والصواب[1]، وقد ثبت في نصوصٍ أخرى أنّ الله لا يؤاخِذُ جاهلاً، ولو كان جهلُه بمسائلَ في العقيدة، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كانَ رجلٌ يُسْرِفُ على نفسِهِ، ولما حضره الموتُ قال لبنيه: إذا أنا مِتُّ فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذُرُّوني في الريحِ، فو اللهِ لئن قدرَ عليَّ ربي ليعذِّبني عذاباً ما عذَّبه أحداً، فلمّا ماتَ، فُعِلَ به ذلك، فأمرَ الله الأرضَ فقال: اجمعي ما فيكِ منه، ففعلتْ، فإذا هو قائمٌ، فقال: ما حملكَ على ما صنعتَ؟قال: يا ربِّ خَشْيَتُك، فَغُفِرَ له» وفي رواية: «مخافُتَك يا ربِّ»[2]، فهذا الرجلُ كان قد وقعَ له الشكُّ والجهلُ في قدرة الله تعالى على إعادةِ ابنِ آدم، بعدما أُحْرِقَ وذُرّي، وعلى أنّه يعيدُ الميتَ ويحشرَه إذا فعلَ ذلك، وهذان أصلان عظيمان، أحدهما: متعلِّقٌ بالله تعالى، وهو الإيمانُ بأنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ. والثاني: متعلّقٌ: باليوم الآخر، وهو الإيمانُ بأنَّ الله يعيدُ هذا الميّتَ، ويجزيه على أعماله، ومع هذا فلمَّا كان مؤمناً باللهِ في الجملةِ، ومؤمناً باليوم الآخر في الجملةِ، وهو أنَّ الله يثيبُ ويعاقِبُ بعدَ الموت وقد عمل صالحاً، وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه، غفرَ الله له بما كانَ منه من الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح[3].

---

[1] ظاهرة الغلو في الدين ، محمد عبد الحكيم حامد ص(267).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: أحاديث الأنبياء ، باب: حديث الغار (3481). وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: التوبة ، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (2756) بلفظ قريب.

[3] الفتاوى (491/12).

وكذلك بلال بن رباح رضي الله عنه، لما باع الصاع بالصاعين أمره النبيُّ صلى الله عليه وسلم بردّه، لم يرتِّبْ على ذلك حكمَ اكلِ الربا من التفسيقِ واللعنِ والتغليظِ لعدم علمه بالتحريم[1].

الشرط الثاني . العمدُ: لا بدَّ مِنْ توفّر شرطِ العمد، لأنَّ الله تعالى قد رفعَ الإثمَ والمؤاخذةَ عن المخطئ والمتأوِّل، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الاحزاب :5] وقال سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة :286]، وقد ثبتَ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: «أنَّ الله تعالى قال: قد فعلتُ» لما دعا النبيُّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بهذا الدعاء[2]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ اللهَ تجاوزَ لي عن أُمَّتي الخطأَ والنسيانَ وما استُكْرِهُوا عليه...»[3] وذلك يعمُّ الخطأَ في المسائلِ الخبريةِ القوليةِ، والمسائلِ العمليةِ، وما زالَ السلفُ يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحدٌ منهم على أحد لا بكفرٍ ولا بفسقٍ ولا بمعصيةٍ[4]. تلك أدلة رفعِ الإثمِ والمؤاخذةِ عن المخطئ والمتأول[5].

وإذا كان المسلم متأوِّلاً في القتال أو التكفير لم يكفرْ بذلك، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحاطب بن أبي بلتعة: يا رسول الله دعني أضربُ عنقَ هذا المنافق، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «إنَّه شهدَ بدراً، وما يدريكَ لعلَّ الله أن

---

(1) الفتاوى (253/20).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ، وبيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق ، وبيان حكم الهم بالحسنة والسيئة (125).

(3) أخرجه ابن حبان في صحيحه (7219) والحاكم في المستدرك 2/ 198 وصححه ووافقه الذهبي ، انظر شرح الحديث في كتاب جامع العلوم والحكم ، لابن رجب الحنبلي (350 . 356).

(4) الفتاوى (229/3).

(5) ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث ص(271).

يكون قد اطّلعَ على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتُم فقد غفرتُ لكم»[1]، وكذلك ثبت في «الصحيحين» عن أسامة بن زيد أنَّه قتلَ رجلاً بعد ما قال: لا إله إلا الله، وعظّم النبيُّ صلى الله عليه وسلم ذلك لما أخبروه وقال: «يا أسامةُ أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله»؟ كرَّر ذلك عليه حتى قال أسامةُ: تمنّيتُ أني لم أكنْ أسلمتُ قبل ذلك اليوم[2]، ولم يوجب عليه قَوَداً ولا دِيةً ولا كفّارةً، لأنّه كان متأوِّلاً، وظنَّ جوازَ قتلِ ذلك القائل لظنّه أنّه قالها تعوُّذاً.

الشرط الثالث ـ الاختيار والقدرة: قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل :106] ففي قوله تعالى: استثناءٌ ممّن كفرَ بلسانه، ووافق المشركينَ بلفظهم مُكرَهاً لما ناله من ضربٍ وأذًى، وقلبُه يأبى ﴿إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمَانِ﴾ يقولُ، وهو مطمئنٌ بالإيمانِ باللهِ ورسوله صلى الله عليه وسلم، وقد نزلت هذه الآية في عمّار بن ياسر، فقد أخذه المشركون، فعذّبوه حتى قاربهم في بعضٍ ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «كيفَ تجدُ قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنْ عادوا فَعُدْ»[3].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجهاد والسير ، باب: الجاسوس (3007) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: فضائل الصحابة ، باب: من فضائل أهل بدر ، وقصة حاطب بن أبي بلتعة (2494).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: المغازي ، باب: بعث النبي أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة (4269) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان. باب: تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله (96 ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث ص(272).).

[3] أخرجه الحاكم في المستدرك ، كتاب: التفسير ، باب: تفسير سورة النحل (389/2) رقم (3362) ، وقال: صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه. والبيهقي في السنن ، كتاب: المرتد ، باب: المكره على الردة (208/8) ، قال

ولهذا اتفق العلماءُ على أنَّ المكرَهَ على الكفرِ يجوزُ له أن يوالي إبقاءً لمهجته، ويجوزُ له أن يأبى كما كان بلالٌ رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك، والأفضلُ والأولى أنْ يَثْبُتَ المسلمُ على دينه، ولو أفضى إلى قتله[1]. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى في غيرِ موضعٍ أنَّه لا يكلِّفُ نفساً إلاَّ وسعها، كقوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة:286] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [الاعراف :42] وأمربتقواه بقدر الاستطاعةِ فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن :16] .

3 ـ موانع التكفير:

إنَّ الحكمَ على الشخص المعيَّن يتوقَّفُ على وجودِ شروطٍ، وانتفاء موانعٍ، ومن موانع التكفير: الخطأُ، الجهلُ، العجزُ، والإكراهُ.

أ ـ فالخطأ: لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة :286] وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الاحزاب :5] فوجودُ الخطأ من المسلمِ أحدُ موانعِ تكفيرِ المعيَّن، كما أنَّ الله أمرَ الناسَ أن يطلبوا الحقَّ على قدر وسعهم وإمكانهم، فإن لم يصيبوا الحقَّ في اجتهادهم، فلا يكلِّفُ الله نفساً إلا وسعها، والواجبُ في حقّ المسلم أن يعبدَ الله بحسب ما توصّلَ إليه اجتهادُه، إن كان مؤهّلاً للاجتهاد، وبذل وسعه في طلب الحقّ.

إنَّ الأدلةَ من الكتاب والسنة متضافرةٌ على أنَّ المجتهد المخطأئَ معذورٌ، كما دلَّ الإجماعُ والقياسُ على ذلك[2].

ابن حجر في فتح الباري (312/12): مرسل ورجاله ثقات.

[1] تفسير ابن كثير (587/2 . 588).

[2] منهج ابن تيمية في مسألة التكفير (249/1 . 257).

ب ـ الجهل: قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *﴾ [النساء: 165] وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً *﴾ [الإسراء: 15] فالجهلُ أحدُ موانعِ تكفيرِ المعيَّنِ، لأنَّ الإيمانَ متعلِّقٌ بالعلم، ووجودُ العلم بالمؤمن به شرطٌ من شروطِ الإيمانِ به[1].

ج ـ العجز: قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا *﴾ [النساء: 75] فأولئك كانوا عاجزينَ عن إقامةِ دينهم، فقد سقط ما عجزوا عنه[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا *إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً *فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا *﴾ [النساء: 97 ـ 99] فهذه الآيات في جماعةٍ من المؤمنين كانوا يستخفون بإيمانهم، وهم عاجزونَ عن الهجرة، فعذَرَهم اللهُ تعالى[3].

ومثالٌ آخر على العجز كمانع من موانع التكفير، أنَّ النجاشيَّ ملك النصارى في الحبشة، لم يطعه قومه في الدخول في الإسلام، ولم يدخل معه سوى نفرٍ يسيرٍ منهم، فلمّا مات، صلّى عليه النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، خرجَ بالمسلمين إلى

---

[1] المصدر نفسه (261/1).

[2] الفتاوى (220/19 ـ 221).

[3] المصدر السابق (220/19).

المصلى، فصفّهم صفوفاً، وصلّى عليه، وأخبرهم بموته يوم مات، فقال صلى الله عليه وسلم: «قد توفّي اليومَ رجلٌ صالحٌ من الحبش، فهلمّوا فصلّوا عليه»[1]. وكثيرٌ من شرائع الإسلام لم يكن دخلَ فيها لعجزِه عن ذلك، فلم يهاجِرْ، ولم يجاهِدْ، بل قد روي أنَّه لم يصلِّ الصواتِ الخمسَ، ولم يصمْ رمضانَ، ولم يؤدِ الزكاةَ الشرعية، لأنَّ ذلك يظهر عند قومه فينكِرون عليه، وهو لا يمكنه مخالفتهم، ويعلم قطعاً أنَّه لم يكن يمكنه أن يحكمَ بينهم بحكم القرآن، لأنَّ قومه لا يقرّونه على ذلك، ولهذا جعل الله هؤلاء من أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيات اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ *﴾ [آل عمران: 199] وقال بعضُ العلماء: هذه الآية نزلت في النجاشي، ومنهم من قال: فيه وفي أصحابه[2].

وكذلك ما أخبر الله به عن حال مؤمن ال فرعون مع قوم فرعون، وعن حالِ امرأة فرعون.

وكذلك كان يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ مع أهل مصر، فإنهم كانوا كفّاراً، ولم يمكنه أن يفعلَ معهم كلَّ ما يعرفه من دين الإسلام، لأنَّه دعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يجيبوه[3].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجنائز ، باب: الصفوف على الجنازة (1320) ، وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنائز بابٌ: في التكبير على الجنازة (953).

[2] الفتاوى (217/19 ـ 219).

[3] تفسير الطبري (218/4 ـ 219).

إنَّ مَنْ عجز عن أداءِ ما شرع الله عليه، واتّقى الله ما استطاعَ، فإنَّه معذور غيرُ مؤاخَذٍ على ما تركه.

د . الإكراه: قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *﴾ [النحل: 106] وهو كلُّ ما أدَّى بشخصٍ لو لم يفعل المأمورَ به إلى ضربٍ أو حبسٍ، أو أخذِ مالٍ، أو قطعِ رزقٍ يستحقّه، أو نحو ذلك[1].

وشروط الإكراه أربعةٌ:

الشرط الأول: أن يكونَ فاعِلُه قادراً على إيقاع ما يهدِّد به، والمأمورُ عاجزاً عن الدفعِ، ولو بالفرار.

الشرط الثاني: أن يغلبَ على ظنِّ المكرَه أنَّه إذا امتنعَ أوقع به المكرِهُ ما هدّده به.

الشرط الثالث: أن يكونَ ما هُدِّدَ به فورياً، أو بعدَ زمنٍ قريبٍ جداً، أو جرتِ العادةُ أنّ المهدِّد لا يخلف ما هدده به.

الشرط الرابع: أن لا يظهرَ من المأمورِ ما يدلُّ على اختياره[2].

4 . التوبة من الكفر بعد ثبوته على المعيَّن:

التوبة: هي رجوعُ العبدِ إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين[3].

والله سبحانه وتعالى يقبلُ توبة العبدِ من جميع الذنوب، الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ

---

[1] مناهج ابن تيمية في مسألة التكفير (266/1).

[2] فتح الباري (311/12).

[3] مدارج السالكين (199/2).

الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *﴾ [الزمر :53] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [المائدة :73 ـ 74] وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال :38] .

والتوبة تمحو جميع السيئاتِ، وليس شيءٌ يغفِرُ جميعَ الذنوب إلا التوبة، ومعلومٌ أنَّ من سبَّ الرسول صلى الله عليه وسلم من الكفّار المحاربين، وقال: هو ساحر، أو شاعر، أو مجنون، أو معلَّم، أو مفتر، وتاب: تابَ الله عليه. وقد كان طائفةٌ يسبّون النبيَّ صلى الله عليه وسلم مِنْ أهلِ الحرب، ثم أسلموا، وحسن إسلامهم، وقبل النبيُّ صلى الله عليه وسلم منهم، منهم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، وعبد الله بن أبي السرح، وكان قد ارتدَّ، وكان يَكْذِبُ على النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول: أنا كنتُ أعلّمه القرآن، ثم تابَ، وأسلمَ، وبايعه النبيُّ صلى الله عليه وسلم على ذلك[1]، فالتوبةُ هي الأمرُ الوحيدُ الذي يمحو الله به الكفر بعد ثبوته، وقد انعقد الإجماع على ذلك[2].

- **الأمثال القرآنية للكافرين:**

1 ـ السرابُ وأعمال الكفار: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ *﴾ [النور :39] بيّنَ الله سبحانه وتعالى أنَّ مثلَ أعمالِ الذين كفروا باللهِ

---

[1] مجموع الفتاوى (291/13).

[2] منهج ابن تيمية في مسألة التكفير (273/1).

مِثْلَ سرابٍ بأرضٍ منبسطةٍ، يرى وَسْطَ النهارِ، وحين اشتدادِ الحرّ، فيظنُّه العطشانُ ماءً، فإذا أتاه ملتمِساً الشرابَ لإزالةِ عطشه، لم يجدِ السرابَ شيئاً، فكذلك الكافرون في غرورٍ من أعمالهم التي عملوها، وهم يحسبون أنها تنجّيهم عند الله من الهلاك، كما حَسِبَ العطشانُ السرابَ ماءً، فإذا صار الكافِرُ إلى اللهِ، واحتاجَ لعمله، لم ينفعه، وجازاه الله الجزاء الذي يستحّقه[1].

ونلاحظ خلال المثل صورةَ السرّاب، ثم صورةَ الظامأئِ الذي ظنّه ماء، ثم خيبتُه عند وصولِه إليه، وحذفَ ما عدا ذلك، لأنَّ الخيالَ يتمُّ رسمَها، وفي المثل له لم يُذكَر إلا عملُ الذين كفروا، وطُوِي ما عدا ذلك، لأنَّ الفكرَ قادِرٌ على أن يستدعيه، وهذا من بلاغة القرآن[2].

2 . ظلماتُ الكفر: قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ *﴾ [النور: 40] هذه الآية مثلٌ آخر لأعمالِ الكفّار، إلاّ أنَّ المثلَ في انخداعِ الكافرِ بعمله في الدنيا، وغروره به، وهذا المثلُ لأعمالِ الكفّارِ في أنّها عملتْ على خطأ وفساد وضلال وحيرة وعلى غيرِ هدًى، فهي في ذلك كمثل ظلمات في بحرٍ عميقٍ جدّاً، كثيرِ الماء، وفوقَ هذا الموج موجٌ آخر، وفوقها سحابٌ متراكم، فاجتمعت عِدّةُ ظلماتٍ، وهكذا عمل الكافر ظلماتٌ في ظلماتٍ[3].

---

[1] الشرك في القديم والحديث (1382/2).

[2] أمثال القران وصور من أدبه الرفيع عبد الرحمن حبنكة ص(133).

[3] الشرك في القديم والحديث (1383/2).

فهذا المثلُ يصوّرُ الحالةَ النفسيةَ والفكريةَ والقلبيةَ للذين كفروا بعد أن تركوا نورَ الهدايةِ الربانيّة، إنّهم يطلبون سعادتهم في الظلمات، فقلوبُهم مظلمةٌ بالكفر، ونفوسُهم تائهةٌ في بحرٍ من ظلماتِ الأهواء والشهوات، وأفكارُهم تسبحُ في ظلماتِ أسباب لذّات الدنيا، وإرادتهم تحت كلِّ هذه الظلمات، فمثلُهم كمَنْ في ظلماتِ قاعِ بحرٍ عميقٍ، فوقه أمواجٌ، في العمق الظلمة، فوقها أمواجٌ، في السطح تتضاعفُ الظلمة، فوقها سحابٌ يزيدُ الظلامُ ظلاماً، ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعض[1].

إنَّ مثلَ الظلماتِ في (سورة النور) دلَّ على حقائقَ علميةٍ تتَّصل بالعلوم الدنيوية المادية التطبيقية أو النظرية، وإنَّ هذه الحقائق تنقسم ثلاثةَ أقسامٍ:

القسم الأول: دلالةُ المثلِ على معجزةٍ علميةٍ للنبيّ صلى الله عليه وسلم تتمثّل في الإخبارِ بوجودِ أمواجٍ في باطنِ البحارِ العميقة اللُّجّية (المحيطات) والتي لم تكن معلومةً في ذلك الوقت، بل لم يكن بمقدور البشر اكتشافها، لكونها على عمق لا تصله إلا الغواصاتُ أو الغواصون المزوّدون بالأكسجين.

القسم الثاني: الإخبارُ عن حقائق علميةٍ في العلوم الدنيوية بما يطابِقُ ما ثبتَ عند المتخصصين فيها، وقد اشتملَ المثل على فائدتين من هذا القسم:

الأولى: إفادةُ المثل أنَّ أعماقَ البحار العميقةِ مظلمةٌ ظلمةً شديدةً، مع بيان سبب ذلك، وهو وجودُ حُجُبٍ حجبت الضوءَ، هي عبارةٌ عن أوساط شفّافة متعدّدة أسهمت مجتمعةً في حجب الضوءِ عن تلك الأماكن، وتسبّبت في ظلمتها، واتفاق ذلك مع ما تقرر في علم البحار، وعلم الضوء.

---

[1] أمثال القران وصور من أدبه الرفيع ص(133).

الثانية: دلالةُ المثلِ على التفسير العلمي للرؤية، وأنَّه يشترَطُ له وصولُ الضوءِ من مصدر مضيءٍ إلى الجسم المرئي، وإذا انعدمَ الضوءُ، ولم يصلْ منه شيءٌ إلى الجسمِ، فإنَّه يُظْلِمُ ولا يُرى، واتفاقه مع التفسير الصحيح المتقرر عند المتخصصين في ذلك الشأن، كما تضمّن المثل ـ أيضاً ـ إبطالَ التفسير القديم القائم على أنَّ سببَ الرؤيةِ خروج أشعةٍ من العين تسقطُ على الأجسامِ فتحدث رؤيتها.

القسم الثالث: إفادةُ المثل حقائقَ علميةٍ ثابتةٍ في نفسها، وإن لم تكنْ مسلّمة عند كل المشتغلين بتلك العلوم، وذلك في الأمورِ العقلية التي تبحثُ عادةً فيما يسمّى بعلم النفس والسلوك والاجتماع. وقد دلَّ المثلُ على حقيقتين من هذا القسم، هما:

الحقيقة الأولى: أنَّ الكفَّارَ يتقلّبون في ظلماتٍ حالكةٍ، وضلالاتٍ لا ينفكُّون عنها.

الحقيقة الثانية: حقيقةُ أنَّ الكفَّار في خوفٍ وقلقٍ وحَيْرةٍ دائمةٍ[1].

3 ـ الرماد وأعمال الكفار: قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ *﴾ [ابراهيم: 18] شبّه اللهُ تعالى أعمالَ الكفّارِ في بطلانها، وعدمِ الانتفاع بها، برمادٍ مرّت عليه ريحٌ شديدةٌ في يومٍ عاصفٍ، فشبّه سبحانه أعمالَهم في حبوطها وذهابها باطلاً كالهباءِ المنثور، لأنها على غيرِ أساسٍ من الإيمانِ والإحسانِ، ولأنها لغيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وعلى غيرِ أمرِه: برماد طيرته الريح العاصفُ، فلا يقدرُ صاحبُه على شيءٍ منه وقتَ شدّةٍ حاجته إليه، فلذلك قال تعالى: ﴿لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى

---

[1] الأمثال القرانية (755/2) د. عبد الله جربوع.

شَيْءٍ﴾ يقدرون يومَ القيامةِ ممَّا كسبوا من أعمالهم على شيء، فلا يرون له أثراً من ثواب، ولا فائدة نافعة.

فإنَّ الله لا يقبلُ إلا ما كان خالصاً لوجهه، موافقاً لشرعه... وفي تشبيهه بالرماد سِرٌّ بديعٌ، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمالُ التي لغيرِ اللهِ وعلى غيرِ مراده طعمةٌ للنار، وبها تسعّرُ النار على أصحابها، وينشأئُ الله سبحانه لهم مِنْ أعمالهم الباطلةِ ناراً وعذاباً، كما يُنْشِأئُ لأهلِ الأعمالِ الموافقةِ لأمره ونهيه التي هي خالصةٌ لوجهه من أعمالهم نعيماً وروحاً، فأثّرت النارُ في أعمالِ أولئك حتى جعلتها رماداً، فهم وأعمالُهم وما يعبدون من دون الله وقودُ النارِ[1].

4 . نفقةُ الكفّار والريحُ الشديدة: قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *﴾ [آل عمران: 117] شبَّه الله سبحانه ما ينفقه الكافرُ ويتصدّقُ به على وَجْهِ القربة إلى الله وهو مشركٌ باللهِ، وجاحِدٌ به، ومكذّبٌ لرسلِهِ، أنَّ ذلك غيرُ نافعٍ، وأنَّه مضمحّلٌ عند حاجته إليه. ذاهبٌ بعد ما كان يرجو نفعه: بريحٍ فيها بردٌ شديدٌ، وتحمِلُ النارَ، فأصابت زرعَ قومٍ أَمِلوا إدراكه، ورَجَوْا رَيْعَهُ، لكنّهم كفرة، فأهلكتِ الريحُ التي فيها الصِّرُّ الزرعَ، ولم يُنْتَفعْ بِشَيءٌ منه، وكذلك يفعلُ اللهُ بنفقةِ الكافرِ وصدقته، يبطِلُ ثوابها، والمراد بالمثل صنيعُ الله بالنفقةِ[2].

---

[1] أعلام الموقعين (170/1).

[2] الشرك في القديم والحديث (1386/2).

وهذا مثل ـ أيضاً ـ ضربه الله تعالى لمن أنفقَ في غير طاعته ومرضاته، فشبَّه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر، وكسبِ الثناء، وحُسْنِ الذكر، ولا يبتغون به وجه الله، وما ينفقونه ليصدُّوا به عن سبيل الله واتباع رسله: بالزرع الذي زرعه صاحبه، يرجو نفعه وخيره، فأصابته ريحٌ شديدةُ البردِ جدّاً، يحرِقُ بردُها ما يمرُّ عليه من الزرع والثمار، فأهلكتْ ذلك الزرعَ وأيبسته[1].

5 ـ قلبُ الموحّدِ وقلبُ الكافرِ:

قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيات لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ *﴾ [الاعراف :58] بيّن سبحانه وتعالى في هذا المثل أنَّ البلدَ الطيبةُ تربتُه، العذبةُ مشاربُه، يخرُج نباته ـ إذا أنزل الله الغيثَ ـ طيباً ثمرُه في حينه ووقته.

والبلدُ الذي خَبُثَ فتربته رديئةٌ، ومشاربه مالحةٌ، ويخرجُ نباته بعسرٍ وشدةٍ، فهذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر، لأنَّ قلبَ المؤمن لما دخله القرآن وآمن به، وثبتَ الإيمان فيه، فاض بالخير، وقلبُ الكافر لما دخله القرآن لم يتعلّق منه بشيءٍ ينفعه، ولم يثبت فيه الإيمان، فاض بالنكد والشر والفساد[2].

وقد سمّى الله في كتابه المؤمنَ بالطيّبِ، والكافر بالخبيثِ، فقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ *﴾ [الانفال :37] فالخبيثُ في هذه الآية هم الكفار، والطيّبُ هم المؤمنون[3].

---

[1] أعلام الموقعين (186/1).

[2] تفسير الطبري (211/8) ، تفسير ابن كثير (222/2).

[3] تفسير القرطبي (401/7) ، الشرك في القديم والحديث (1375/2).

هذه بعض الأمثلة القرآنية التي ضُرِبَتْ للكفّار، وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

ثالثاً. النفاق: حقيقته وأقسامه، وأبرز صفات المنافقين

1. تعريف النفاق:

النفاقُ: لفظٌ إسلاميٌّ، لم تكنِ العربُ تعرفه قبل الإسلام بهذا المعنى المخصوص، وحاصِلُ عباراتِ العلماء في تعريفه يمكِنُ إرجاعُها إلى أنَّ النفاق هو: إظهارُ الإيمانِ، وإبطانُ الكفرِ[1].

2. أقسام النفاق: ينقسِمُ النفاق إلى قسمين:

القسم الأول. نفاق الاعتقاد: وهذا النوعُ من النفاق يسمّى النفاق الأكبر، الذي يخرجُ صاحبه من ملة الإسلامِ، ويوجِبُ له الخلودَ في النار، ويُحرِّمُ عليه دخولَ الجنة، وذلك لأنَّه أظهرَ الإسلامَ والخيرَ، وأبطنَ الكفرَ والشرَّ، وهؤلاء هم أشدُّ خطراً وبلاءً على الإسلام والمسلمين، لأنَّه يؤمَنُ جانبُهم لما ظهر من أمورٍ تدلُّ على إيمانهم، ويأتي الخطرُ كلُّ الخطرِ من جانبهم، فهم الذين يُشيعونَ الفاحشة في الذين آمنوا، وهم الذين يذبذبون الصفَّ المسلم، وغير ذلك، ولكنّ الله كاشِفٌ أمرهم، وهو على إذلالهم قديرٌ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ *يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ *فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ *﴾ [البقرة:8 ـ 10] .

القسم الثاني. نفاق العمل: وهو النفاقُ الذي لا ينقلُ صاحبه عن الملّة، بل يظلُّ معه مسلماً، ويبقى معه إيمانُه، وهذا النفاقُ العمليُّ هو الاتصاف ببعض أعمال

---

[1] النفاق وأثره في حياة الأمة د. عادل الشدي ص(20).

المنافقين التي لا تنقض الإيمان، بل هي في المعاملات، وذلك مثل الكذب في الحديث، وإخلاف الوعد، والغدر عند الخصام، والخيانة عند الائتمان، فإنَّه قد يجتمعُ في العبدِ بعضُ خصالِ الخيرِ، وبعضِ خصالِ الشرِّ، ويستحقُّ من الثواب على قدر ما عنده من خصالِ الخيرِ، ويستحقُّ من العذابِ على قدر ما عنده من خصال الشرِّ والنفاقِ، وكان الصحابةُ رضوان الله عليهم يخافون النفاق، ويحذرون من الوقوع فيه، والاقتراب منه[1]، قال ابن أبي مُليكة رحمه الله: أدركتُ ثلاثينَ من أصحابِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم كلُّهم يخافُ النفاقَ على نفسه[2].

إنَّ اتهامِ بعضِ الصحابةِ أنفسَهم بالنفاقِ والخوفِ من الوقوعِ فيه يدلُّ على أشياء كثيرةٍ، ومعانٍ رفيعةٍ منها:

- مدى حرص الصحابة رضوان الله عليهم على إيمانهم وتوحيدهم، وحفظ إيمانهم من أن تشوبه شائبةٌ تعكّر صفوه، أو تنقص كماله.
- تواضع الصحابة رضوان الله عليهم، وعدمِ اغترارِهم بأعمالهم.
- ما يجبُ أن يكونَ عليه العبدُ من الخوفِ والرجاء، فإنَّه يخاف ربَّه أن يقعَ فيما يغضبه، وفي الوقت نفسه يرجو رحمته[3].

3 ـ أبرز صفات المنافقين:

أ ـ الإفساد في الأرض بتهديم شريعة الله، واتهام المؤمنين بالسفه: قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ *أَلاَ

---

[1] العقيدة الصافية ص(412).
[2] المصدر نفسه ص(413).
[3] المصدر نفسه ص(413).

إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ *وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾ [البقرة :11 . 13] .

ب . خداع المؤمنين: قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ *﴾ [البقرة :14].

ج . الإعراض عن التحاكم إلى شرع الله: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا *وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا *﴾ [النساء :60 . 61] .

د . الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف: قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *﴾ [التوبة :67] .

هـ اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين: قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا *﴾ [النساء :138 . 139][1].

هذه أبرزُ صفاتِ المنافقين، أما التي ذكرت في القرآن الكريم فكثيرة.

---

[1] الإيمان للزنداني ومجموعة من العلماء ص(153 . 154).

رابعاً ـ الرِّدَّة: تعريفها وأقسامها، وأحكامها:

1 ـ تعريف الردة:

الردة: هي رجوعُ المسلم العاقلِ البالغِ عن الإسلام إلى الكفر، مختاراً غير مكره، ويستوي فيه الذكر والأنثى[1].

2 ـ أنواع الردة:

النوعِ الأول ـ الارتداد بالقول: كسبِّ الله تعالى، والنطقِ بقولٍ يكفُر به.

النوعِ الثاني ـ الارتدادُ بالفعل: كالسجودِ للأصنامِ والكواكبِ ونحوها، أو إذا أتى بفعلٍ صريحٍ، كالاستهزاءِ بالدين، أو امتهانِ القرآن، أو وضعه في القاذورات.

النوعِ الثالث ـ الارتداد بالاعتقاد: كاعتقادِ الشريك لله سبحانه وتعالى، أو اعتقادِ حِلّ شيءٍ من المحرّمات المجمَعِ عليها إجماعاً قطعياً.

النوعِ الرابع ـ الارتداد بالشك: كما لو شكّ في شيءٍ من واجبات الدين، كالصلاة أو الصيام، أو الزكاة، أو يشك في تحريم الشرك، أو شيء من المحرمات المعلومة من الدين بالضرورة، مثل الزنا، والخمر، أو شك في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره من الأنبياء أو في صدقه، أو في دين الإسلام، أو في صلاحيته لهذا الزمان أو غيره من الأزمنة[2].

3 ـ الأحكام التي تترتب على الارتداد:

أ ـ استتابةُ المرتد، فإنْ تابَ ورجعَ إلى الإسلام في خلال ثلاثةِ أيامٍ قُبِلَ منه ذلك.

---

[1] العقيدة الصافية ص(418).

[2] العقيدة الصافية ص(418).

ب ـ إذا أبى أن يتوب وجب على القاضي أن يأمرَ بقتله، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ بَدَّلَ دينَهُ فاقتلوه»[1].

ج ـ يُمْنَعُ من التصرُّف في ماله في مدَّة استتابه، فإن أسلم فهو له، وإلاّ صار فيئاً لبيتِ المالِ مِنْ حين قتله أو موته على الردة، وقيل: من حينِ ارتدادِهِ، يُصْرَفُ في مصالح المسلمين.

د ـ انقطاعُ التوارثِ بينَه وبين أقاربه، فلا يرثُهم، ولا يرثونه.

هـ إذا مات أو قتل على ردته، فإنه لا يُغسَّل، ولا يُصلعليه، ولا يُدفن في مقابر المسلمين، وإنَّما يدفن في مقابر الكفار، أو يُوارَى في التراب في أماكن غير مقابر المسلمين، هذا في الدنيا.

وأما في الآخرة فإنها تستوجِبُ العذابَ الشديد، والخلودَ في النار[2]، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخرة وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ [البقرة :217] .

4 ـ الأشياء التي يصيرُ بها المسلم مرتداً (والعياذ بالله):

أ ـ الشرك بالله تعالى: وهو أن يجعلَ لله ندّاً من مخلوقاته، يُدعى كما يُدعى الله، ويُخاف كما يُخاف الله، ويُتوكل عليه كما يُتوكل على الله، أو يُصرف له شيءٌ من العبادات، فإذا فعل ذلك فقد كفر، وخرجَ من ملّة الإسلام، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب: الجهاد والسير ، لا يعذب بعذاب الله (3017).

[2] العقيدة الصافية ص(419).

وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ *﴾ [الزمر :8] .

ب . إظهار الطاعة والموافقة للمشركين على دينهم: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ *ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ *فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ *ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ *﴾ [محمد :25. 28] .

ج . موالاة المشركين والكافرين: قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *﴾ [المائدة :51] وقال تعالى: ﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: 28] .

د . الجلوس عند المشركين في مجالس شركهم من غير إنكار: قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيات اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَىءُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا *﴾[النساء: 140] .

هـ الاستهزاء بالله أو بكتابة أو برسوله صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآياتهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ *﴾ [التوبة :65. 66] .

و . ظهور الكراهية والغضب عند الدعوة إلى الله، وتلاوة كتابه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي

وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ *﴾ [الحج :72] .

ز . كراهية ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والحكمة:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ *﴾ [محمد :9] .

ح . جحود شيءٍ من كتابِ الله ولو اية، أو بعضِها، أو شيءٍ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً *أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِيناً *﴾ [النساء :150 . 151] .

ط . عدم الإقرار بما دلت عليه آيات القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة:

قال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيات اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ *﴾ [غافر :4].

ى . الإعراض عن تعلم دين الله، والغفلة عن ذلك: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ *﴾ [الاحقاف :3] .

ك . كراهية إقامة الدين، والاجتماع عليه: قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ *﴾ [الشورى :13] .

ل . تعلُّم السحرَ، وتعليمه، والعمل بموجبه: قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ [البقرة :102] .

م ـ إنكار البعث: قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ [الرعد :5] .

ن ـ التحاكم إلى غير حكم الله عزَّ وجلَّ: قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ *﴾ [المائدة :50] .

خامساً ـ الفسق: تعريفه وأقسامه:

1 ـ تعريف الفسق:

الفِسْقُ: هو الخروجُ عن طاعةِ اللهِ سواءٌ كان خروجاً كليّاً أو جزئياً.

2 ـ أقسام الفسق: ينقسم الفسق إلى قسمين:

القسم الأول ـ فسق ينقل عن الملة وهو الكفر: فهو فسقٌ كلي، يخرجَ صاحبه عن طاعة الله وعبوديته، ولقد سمَّى الله تعالى الكفرَ المخرجَ عن الملة الموجبَ لصاحبه النار، سمَّاه فسقاً، كما قال تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف :50] وسمَّى الله تعالى أصحاب النارُ فُساقاً، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة :20] .

القسم الثاني ـ فسقٌ لا ينقل من الملة، وهو فسق جزئي، وهو يطلَقُ على بعض المعاصي، وعلى بعض العصاة، وصاحبه ما زال في حظيرة الإسلام، ولقد سمَّى الله المؤمنين الذين يرمون المحصناتِ، ثم لم يأتوا بالشهداء، بأنهم فاسقون، وهم ما زالوا في حظيرة الإسلام، يتمتّعون بعقيدة المسلمين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *﴾ [النور :4] .

سادساً ـ المعاصي: تعريفها وأنواعها وحكم مرتكب الكبيرة

1 ـ تعريف المعاصي:

المعاصي: هي تركُ المأموراتِ، وفِعْلُ المحظوراتِ، أو ترك ما أوجب وفرض في كتابه، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وارتكاب ما نهى الله عنه أو رسوله صلى الله عليه وسلم من الأقوالِ والأعمالِ الظاهرةِ أو الباطنةِ[1].

ولفظُ المعصيةِ والفسوقِ والكفرِ إذا أطلقت دخل فيها الكفرُ والفسوقُ، كقوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا *﴾ [الجن :23] وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ *﴾ [هود :59] فهذه معصيةُ لجنس الرسل[2].

وقد جاء معنى العصيان بألفاظ كثيرة في القرآن الكريم:

أ ـ الذنب: قال تعالى: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت :40] .

ب ـ الخطيئة: قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ *﴾ [يوسف :97] .

ج ـ السيئة: قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود :114] .

د ـ الحُوب: قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا *﴾ [النساء :2] .

هـ الإثم: قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ﴾ [الاعراف :33].

و ـ الفسوق والعصيان: قال تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات :7] .

---

[1] الكبائر والصغائر ، حامد محمد المصلح ص(19).

[2] المصدر نفسه ص(20).

ز ـ الفساد: قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: 33] .

ح ـ العتو: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ *﴾ [المائدة: 166] .

2 ـ أقسام المعاصي: تنقسم المعاصي إلى قسمين: كبائر وصغائر حسب تقسيمها في الكتاب والسنة للأدلة الاتية.

أما في الكتاب فمنها قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: 31] ففي هذه الآية بيانُ أنَّ الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر[1]، وقوله جلَّ جلاله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ [النجم: 32] في الآية استثناءٌ منقطع، لأنَّ اللمم من صغائر الذنوب ومحقّرات الأعمال، فهو استثناءٌ من عامَّةِ الكبائر، وقوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: 7] فجعلها مراتبَ ثلاثاً، وسمّى أولها: كفراً، وثانيها: فسقاً، وثالثها: عصياناً[2]. وقوله تعالى: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: 49] وهذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ ما يعمل الإنسان يدوَّن عليه صغيراً كان أو كبيراً[3].

وأما في السنة فقد جاءت أحاديث كثيرة منها:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ الذنبِ أعظمُ عند الله؟

---

[1] الكبائر والصغائر ص(23).
[2] المصدر نفسه ص(23).
[3] الكبائر والصغائر ص(23).

قال: «أَنْ تجعلَ للهِ ندّاً وهو خلقَكَ».

قال: قلتُ له: إنَّ ذلك لعظيمٌ. قال قلت: ثم أيْ؟

قال: «أن تقتلَ ولدَكَ مخافةَ أن يطعمَ معك».

قلت: ثم أي؟.

قال: «أن تزاني حليلة جارك»[1].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئّكم بأكبرِ الكبائر؟» ثلاثاً: «الإشراكُ باللهِ، وعقوقُ الوالدين، وشهادةُ الزور، أو قول الزور» وكان رسولُ اللهِ متكئاً فجلسَ، فما زل يكرّرُها حتَّى قلنا ليتَه سكت[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ: مكفِّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجتنبتِ الكبائرُ»[3].

فهذه الأدلةُ ـ وغيرُها كثيرٌ ـ تدلُّ دلالةً صريحةً على أنَّ المعاصي منها ما هو كبائر، بل وأكبر الكبائر، كما جاء في الأحاديث السابقة.

القسم الأول الكبيرة:

تعريف الكبيرة: كل ذنب ختمه الله تعالى بنارٍ أو غضبٍ، لأو لعنةٍ أو عذابٍ[1]، وقيل: كلُّ ما أُوْجِبَ فيه حدٌّ، أو وَرَدَ فيه توعُّدٌ بالنار، أو جاءت فيه لعنةٌ[2]. وقال

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: تفسير القران ، باب: قوله تعالى: {} [البقرة: 22] {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ *} ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: كون الشرك أقبح الذنوب ، وبيان أعظمها بعده (86).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان الكبائر وأكبرها (87). وأخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الشهادات ، باب: ما قيل في شهادة الزور (2654) بلفظ قريب.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الطهارة ، باب: الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر (233).

بعض أهل العلم وغيرهم: إنّه يمكن أن تعرَّف الكبائرُ بالعدِّ بدلاً من الحدِّ، ومنهم مَنْ قال عن الكبائر: هي إلى السبعين أقربُ منها إلى السبع[3]. وذكر الهيتمي عن العلائي أنَّه صنَّفَ جزءاً جمع فيه ما نصَّ عليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنَّه كبيرة وهي: الشركُ، والقتلُ، والزنا، وأفحشُه بحليلةِ الجارِ، والفرارُ من الزحفِ، وأكلُ الربا، وأكلُ مال اليتيم، وقذفُ المحصنات، والسحرُ، وشهادةُ الزور، اليمينُ الغموس، والنميمةُ، والسرقةُ، وشربُ الخمرِ، واستحلالُ بيت الله الحرام، ونكثُ الصفقة، وتركُ السنةِ، والتعرَّبُ بعدَ الهجرةِ، واليأسُ من روحِ اللهِ، والأمنُ من مكر اللهِ، ومنعُ ابن السبيل من فضلِ الماءِ، وعدمُ التنزُّه من البولِ، وعقوقُ الوالدين، والتسبُّبُ إلى شتمهما، والإضرارُ في الوصية، فهذه الخمس والعشرون هي مجموعٌ ما جاء في الأحاديث منصوصاً عليه أنَّه كبيرة[4].

إنَّ ما ذكره صحيحٌ من حيث كونها كبيرةً منصوصاً عليها، والأدلةُ عليها في مظانِّها، ولكن ليس هذا مجموعُ ما جاء في الأحاديث الصحيحة المنصوصِ عليها، بل قد ورد غيرُها، ونذكر منها ـ على سبيلِ المثالِ لا الحصر ـ الاتي: الكذب، وقاتل نفسه، والمكثر من اللعن بغير حق، وتشبُّه الرجال بالنساء والعكس، وسوءُ الجوار، والخيانة، والرشوة، وتغييرُ منار الأرض...الخ.

الخلاصة؛ إنَّ الكبائر غيرُ منحصرةٍ بعدٍّ ولا حدٍّ منضبط، بل إنها كلُّ معصيةٍ دلَّ الدليل على توكيد التحريم وتغليظه، سواء تُوَعِّدَ عليها بلعنٍ، أو غضبٍ، أو نارٍ، أو

---

(1) الزواجر لابن حجر (9/1).

(2) الكبائر والصغائر ص(27).

(3) تفسير الطبري (41/1).

(4) الكبائر والصغائر ص(28).

عذابٍ، أو حدٍّ، أو غير ذلك، ممّا عظمَ ضررُها في الوجود، أو اقترن بارتكابها ما تعظمُ به[1].

القسم الثاني الصغيرة:

تعريف الصغيرة: ما ليس فيها حدٌّ في الدنيا، ولا وعيدٌ في الآخرة[2]، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ [النجم :32]، واللمم: ما كان بين الحدين، لم يبلغ حدَّ الدنيا ولا حدَّ الآخرة: موجبة قد أوجَب الله لأهلها النار، أو فاحشة يقام عليها الحدُّ في الدنيا[3].

والصغيرة مع الإصرار تشكّلُ خطراً على صاحبها، وربما تهلكه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إيَّاكُمْ ومحقَّراتِ الذنوب، فإنَّما مثل محقّراتِ الذنوب، كمثلِ قومٍ نزلوا بطنَ وادٍ، فجاءَ ذا بعودٍ، وجاء ذا بعودٍ، حتى حَمَلوا ما أنضجوا به خُبْزاً، وإنَّ محقّرات الذنوبِ متى يُؤْخَذْ بها صاحبُهَا تُهْلِكه»[4]. ولأنَّ السيئةَ وإنْ صغرتْ تجرُّ أختها، حتى توقع فاعَلَها في ما هو أكبرُ من الكبائر، ولهذا دفعُ السيئةِ بالحسنةِ لا بالسيئةِ، قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون :96] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتّقِ اللهَ حيثُما كنتَ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُهَا»[5]. فإنَّ

---

[1] المصدر نفسه ص(29 ـ 33).

[2] أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان (1307/3).

[3] المصدر نفسه (1307/3).

[4] أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (165/6) بهذا اللفظ. وأخرجه أحمد في مسنده (5/ 331) ، بلفظ قريب ، من حديث أبي مالك سهل بن سعد الساعدي. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (190/10): رجاله رجال الصحيح ، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين ، ورجال إحداهما رجال الصحيح ، غير عبد الوهاب بن عبد الحكم ، وهو ثقة.

[5] أخرجه الترمذي في جامعه ، كتاب: البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب: ما جاء في معاشرة الناس (1987) وقال: حسن صحيح.

العبد إذا وقعَ في سيئةٍ عليه أن يعملَ حسنةً تمحو تلك السيئة التي عملها، فيبدّل مكان السوءِ إحساناً، ومكان السيئةِ طاعةً، فإنَّه إذا وُفِّقَ لفعلِ الحسناتِ ألفها وأحبَّها، واطمئنَّ قلبُه لها، فلا يفارِقُها أبداً، حتى لو أجبرَ على سيئةٍ لم يأنسْ بها، وقلبُه يؤنِّبُهُ، وإيمانُه ينهاه عنها، فهو يزدادُ كلَّ يوم خيراً، وعن الشرِّ بُعداً[1].

3. حكم مرتكب الكبيرة:

سلك الصحابةُ والتابعون لهم بإحسان منهجاً وسطاً في شأنِ مرتكبِ الكبيرة، فلم يكفّروه، ولم يقولوا بأنّه كاملُ الإيمان، بل إنّه مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، أو هو مؤمن ناقصُ الإيمان، أو مؤمنٌ عاصٍ، وهذا الحكم عليه إنَّما هو في الدنيا، أما في الآخرة فهو تحت مشيئة الله تعالى، إن شاء عذّبه، وإن شاء غفر له، وبهذا الحكم عليه جمعوا بين النصوص الشرعية التي تصف أهل الإيمان، والنصوص التي لم تخرج الفاسقَ من دائرةِ الإسلام[2].

إنَّ فساق الملة ليسوا مخلَّدين في النار، وليسوا كاملين في الدين والإيمان والطاعة، بل لهم حسنات وسيئات، يستحقّون بهذا العقاب، وبهذا الثواب[3].

وقد اتفق الصحابةُ والتابعون لهم بإحسانٍ وسائر أئمة المسلمين على أنّه لا يخلدُ في النار من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من إيمانٍ، واتفقوا أيضاً على أنَّ نبينا صلى الله عليه وسلم يشفعُ فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته[4].

---

[1] الكبائر والصغائر ص(35).
[2] أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان ، عبد العزيز عبد الله (1315/3).
[3] المصدر نفسه (1315/3) ، الفتاوى (679/7).
[4] الإيمان ، لابن تيمية ص (209).

وقد استدلَّ علماءُ الأمة الإسلامية على قولهم في مرتكب الكبيرة بالعديدِ من الأدلة من الكتاب والسنة:

أما الأدلة من القرآن الكريم فمنها:

أ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48] وقد أبانت هذه الآية أنَّ كلَّ صاحبِ كبيرةٍ ففي مشيئة الله، إنْ شاءَ عفا عنه، وإن شاءَ عاقبه، ما لم تكن كبيرتُهُ شِرْكاً بالله[1].

ب ـ قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ *إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *﴾ [الحجرات: 9 ـ 10] رغم أنَّ القتالَ بين المسلمين من الكبائر لم ينتفِ عن المتقاتلين اسمُ الإيمان، ولم يخرجوا به عن أهله[2]، وقد استدلَّ كثيرٌ من العلماء بهذه الآية على أنَّ المعصيةَ وإنْ عظمتْ لا تُخْرِجُ من الإيمان[3].

ج ـ قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 178] مع أنَّ الله عزَّ وجلَّ أوعدَ القاتلَ بالخلودِ في النار عقوبةً له على جريمته، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا *﴾ [النساء: 93] ومع ذلك لم ينفِ عن هذا القتل

---

[1] تفسير الطبري (129/4).

[2] دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين د. أحمد جلي ص(127).

[3] علي بن أبي طالب للصلاَّبي ص(383).

العاصي صفةَ الإيمانِ، فهو أخٌ لأولياء المقتول، وهم مؤمنون: (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ) والمرادُ بالأخوّة إخوةُ الدين، والقاتل جزاؤه جهنم، فإن شاء الله أن يغفر له غفر له.

د ـ ولم ينف القرآن الكريم صفة الإيمان عن اكل أموال الناس بالباطل، أو اكل الربا، ما دام غيرَ مستحلٍّ لذلك، فيقول تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء :29] وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *﴾ [البقرة :278] .

وورد أيضاً من الأحاديث الصحيحة التي تنصُّ على أنَّ المعاصي لا تُخْرِجُ عن الملة، ومن ذلك:

أ ـ عن أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وعليه ثوبٌ أبيضُ، وهو نائمٌ، ثم أتيتُه وقد استيقظَ، فقال: «ما مِنْ عبدٍ قال: لا إله إلا الله، ثم ماتَ على ذلك إلا دخلَ الجنَّةَ».

قلتُ: وإن زنى وإن سرق؟.

قال: «وإن زنى وإن سرق».

قلت: وإن زنى وإن سرق؟ ثلاثاً.

ثم قال في الرابعة: «وإنْ زنى، وإنْ سرق، على رَغْمِ أنفِ أبي ذر»[1].

ففي قوله: «وإن زنى وإن سرق» دليلٌ على أنَّ أصحابَ الكبائر لا يُقْطَعُ لهم بالنار، وأنَّهم إنْ دخلوها أُخْرِجوا منها، وخُتِمَ لهم بالخلود في الجنة[2].

---

[1] سنن البيهقي (16/8).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: اللباس ، الثياب البيض (5827) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ،

ب ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنّا مع رسولِ اللهِ في مجلسٍ، فقال: «بايعوني على ألاّ تشركوا باللهِ شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفسَ التي حرّمَ الله إلا بالحق، فمن وفّى منكم فأجرُهُ على اللهِ، ومَنْ أصابَ شيئاً من ذلكَ فعوقبَ به، فهو كفارةٌ له، ومن أصابَ شيئاً مِنْ ذلكَ فستره الله عليه، فأمرُهُ إلى الله، وإنْ شاءَ عفا عنه، وإن شاء عذّبه»[1].

ومما يستدل به إجماعُ الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان على أنَّ صاحب الكبيرة مؤمن بإيمانه، فاسقٌ بكبيرته، وهو تحت مشيئة الله تعالى في الآخرة[2].

باب: الدليل على من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات مشركاً دخل النار (94).

[1] شرح صحيح مسلم (97/2).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: الحديث (18) ومسلم في صحيحه ، كتاب: الحدود ، باب: الحدود كفارات لأهلها (1709). [585] أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان (1318/3).

الخاتمة

وبعد: فهذا ما يسّره الله لي من الحديث عن الإيمان بالله عزَّ وجلَّ في هذا الكتاب، وقد سميتُه «الإيمان بالله جلَّ جلاله»، فما كان فيه من صوابٍ فهو محضُ فضلِ اللهِ عليَّ، فله الحمد، وله المنة، وما كان فيه من خطأ، فاستغفرُ الله تعالى، وأتوبُ إليه، والله ورسوله صلى الله عليه وسلم بريءٌ منه، وحسبي أني كنتُ حريصاً ألاَّ أقع في الخطأ، وعسى ألاّ أُحْرَمَ من الأجر.

وأدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب بني الإنسان أينما وُجدوا، وأن يكون سبباً في زيادة إيمانهم وهدايتهم أو تعليمهم أو تذكيرهم، وأن يذكرني من يقرؤه من إخواني المسلمين في دعائه، فإنَّ دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابةٌ إن شاء الله تعالى.

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ *﴾ [الحشر :10].

وبقول الشاعر (من الوافر):

إلهـــي لا تعـــذّبني فـــإنّي	مقـــرٌّ بالـــذي قـــدْ كـــانَ مـــنّي
ومـــالي حيلـــةٌ إلاّ رجـــائي	وعفـوُك إنْ عفـوتَ وحُسْـنُ ظـنّي
فَكَـــمْ مِـــنْ زلّـــةٍ لي في الـــبرايا	وأنـــتَ علـــيَّ ذو فَضْـــلٍ وَمَـــنِّ
إذا فكّـــرتُ في نَـــدَمِي عليهـــا	عَضَضْـتُ أناملِـي وَقَرَعْـتُ سِـنّي
يظـــنُّ النـــاسُ بي خـــيراً وإنّي	لشـــرُّ النـــاسِ إنْ لم تعـــفُ عَـــنّي

سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أشهدُ أن لا إله إلا أنت، أستغفرُك وأتوبُ إليك.

* * *

فهرس الموضوعات

كتب صدرت للمؤلف:

1. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
3. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
4. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
5. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
6. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
7. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8. فقه النصر والتمكين في القران الكريم.
9. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12. الوسطية في القران الكريم.
13. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
14. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
15. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
16. خلافة عبد الله بن الزبير.

17.عصر الدولة الزنكية.

18.عماد الدين زنكي.

19.نور الدين زنكي.

20.دولة السلاجقة.

21.الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

22.الشيخ عبد القادر الجيلاني.

23.الشيخ عمر المختار.

24.عبد الملك بن مروان وبنوه.

25.فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26.حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27.وسطية القران في العقائد.

28.فتنة مقتل عثمان.

29.السلطان عبد الحميد الثاني.

30.دولة المرابطين.

31.دولة الموحدين.

32.عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33.الدولة الفاطمية.

34.حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

35. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

36. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ﷺ)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39. المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

40. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41. الشورى في الإسلام.

42. الإيمان بالله جل جلاله.

43. الإيمان باليوم الآخر.

44. الإيمان بالقدر.

45. الإيمان بالرسل والرسالات.

46. الإيمان بالملائكة.

47. الإيمان بالقران والكتب السماوية.

48. السلطان محمد الفاتح.

49. المعجزة الخالدة.

50. الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

51. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

52.التداول على السلطة التنفيذية.

53.الشورى فريضة إسلامية.

54.الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

55.العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

56.المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

57.العدل في التصور الإسلامي.

58.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

59.الأمير عبد القادر الجزائري.

60.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

61.سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

62.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

63.أعلام التصوف السُني "ثمانية أجزاء".

64.المشروع الوطني للسلام والمصالحة

65.الجمهورية الطرابلسية (1918 – 1922) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر

66.الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

* * *



د. علي محمد محمد الصلابي

مفكر ومؤرخ وفقيه

– ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ/ 1963م

– نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.

– حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.

– نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.

– اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

– زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث

سير الخلفاء الراشدين

الدولة الحديثة المسلمة

وسطية القرآن الكريم في العقائد.

صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.

تاريخ كفاح الشعب الجزائري

العدالة والمصالحة الوطنية

وآخر مؤلفاته "الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج".